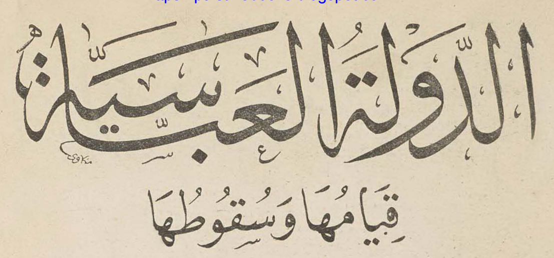


تأليف

حسن خليفة

أستاذ التاريخ و الاقتصاد بدار العلوم العليا

ليسانسيه فى الآداب ، و (B. A.) فى التاريخ والاقتصاد

والعلوم السياسية من جامعة شفيلد بانجلترا

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب بدار العلوم العليا

الطبعة الاولى

يطلب هذا الكتاب من المكتبة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة

أو من « المكتبة المصرية الكبرى » بشارع الفجالة بالقاهرة

المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة



قيامها وسقوطها

تأليف



أستاذ التاريخ و الاقتصاد بدار العلوم العليا

ليسانسيه فى الآداب ، و (B. A.) فى التاريخ والاقتصاد

والعلوم السياسية من جامعة شفيلد بانجلترا

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب بدار العلوم العليا

الطبعة الاولى

يطلب هذا الكتاب من المكتبة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة

أو من « المكتبة المصرية الكبرى » بشارع الفجالة بالقاهرة

المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يتناول منهج التاريخ المقرر دراسته لطلبة السنة الثالثة العالية بدار العلوم تاريخ الدولة العباسية والدويلات التى تفرعت عنها، وقد عهد الىّ أن أقوم بتدريس هذه المادة، ورأيت أن أضع مذكرات موجزة فيها تتناسب مع وقت هؤلاء الطلاب، وتكون لهم مرجعا يعتمدون عليه وهم يحصلونها، من غير أن يلجأوا إلى المطولات التاريخية التى وضعت قديما وحديثا، والتى سردت حوادث تلك الدولة من بدء قيامها إلى دور انحلالها وسقوطها. ولقد وجدت الحاجة ماسة إلى اخراج هذه المذكرات كتيبا إتماما للفائدة وتعميما للمنفعة. فاستعنت المولى القدير وتقدمت به إلى جمهور الطلاب ومن يعنون بالتاريخ الأسلامى، راجيا منهم أن يغفروا لى ما عسى أن يكون قد وقع فيها من خطأ أو تقصير مرحبا بكل نقد علمى صحيح

هذا وقد استقيت معلوماتى من المصادر العربية والأفرنجية أذكر منها: تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، وتاريخ الكامل لابن الأثير، وبلوغ الأرب فى أحوال العرب للالوسى، ومقدمة ابن خلدون، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومحاضرات تاريخ الأمم الأسلامية للمرحوم الشيخ محمد الخضرى بك، وتاريخ الخوارج للمرحوم الشيخ محمد شريف، وفجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين، وتاريخ

الجمعيات السرية للأستاذ عبدالله عنان ، وحماة الاسلام تأليف محمد بك نجيب وعصر المأمون للدكتور فريد الرفاعى ، وتاريخ العرب لسيد أمير على ، والخلافة للسير وليم موير ، وتاريخ الأدب عند العرب لنكلسون ومحاضرات الادب للاستاذ الشيخ احمد الاسكندرى ، ونظام الاثينيين للدكتور طه حسين ، وتاريخ الاغريق للمرحوم محمود فهمى ، وتاريخ الأغريق تأليف بيورى ، إلى غير ذلك من الجرائد اليومية والمجلات الدورية والمحاضرات العامة

ويرى القارىء فى نهاية هذا الموجز وصفا مختصرا لتاريخ عظمة اثينا واسبرطة ، وانتقال الحضارة الاغريقية وعلومها الى الدولة العباسية وهو ما نص غليه المنهج المذكور

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الثناء إلى زميلى الأستاذ أحمد يوسف نجاتى المدرس بدار العلوم لمراجعته العبارة العربية ، وإلى زميلى الأستاذ الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم لتفضله بعمل الخرائط التاريخية ، وإلى باقى حضرات الزملاء الذين تفضلوا ومدوا الىَّ يد المعاونة الصادقة ، سائلا المولى القدير أن يجزيهم عنى خير الجزاء

يناير سنة ١٩٣١ — حسن خليفه



الباب الأول

تأسيس الدولة العباسية

تمهيد

١ - عصر الخلفاء الراشدين :

بعد أن لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى اجتمع الصحابة فى سقيفة بنى ساعدة ، وتشاوروا فى أمر خلف رسول الله ، وبعد مناظرات حادة جرت بين المهاجرين والأنصار ، قر رأى الأكثرية على إسناد هذا المنصب الخطير إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فتولاه ، وظلت فئة قليلة من المسلمين على الرأى القائل بأسناده الى عضو من أسرة بنى هاشم ورشحت له على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، على الرغم من وجود عمه العباس الذى كان فى ذلك الوقت أسن بنى هاشم ، وكان علىّ يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد ابن عمه، وناصرته زوجه السيدة فاطمة الزهراء فى وجهة نظره ، فظل ممتنعا عن مبايعة أبى بكر حتى توفيت زوجه ثم بايعه بيعة صحيحة على ملأ من الناس

انقضى زمن أبى بكر وعند وفاته عهد بأمر المسلمين إلى عمر بن الخطاب فتولى الخلافة ولم ينازعه فى أمرها أحد ، وأدار شئون الدولة بعدل وحزم ، وفتح الأمصار ونشر لواء الاسلام شرقا وغربا ، وبعد حكم زاهر دام عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام مات متأثرا بطعنة أبى لؤلؤة غلام

المغيرة بن شعبة فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣ ه ، وكان قد ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين بعد أن رشح لها وهو على فراش الموت واحدا من ستة أشخاص قائلا : « رأيت ألا أتحمل أمركم حيا وميتا ، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة : على وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والزبير بن العوام حواريه وابن عمته ، وطلحة الخير بن عبيد الله . فلتختاروا منهم رجلا ، فاذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه ، وإن أئتمن أحدا منكم فليؤد أمانته »

وجمع المقداد بن الأسود أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة ، وطرح عليهم الأمر ، فتناظروا وكثر الكلام بينهم ، وانتخب عثمان بن عفان وعدل عن علىّ ، وأقبل الناس يبايعون عثمان ، وبايعه علىّ وكان ذلك فى أوائل المحرم سنة ٢٤ ه

تولى عثمان بن عفان الأمر ، فدب دبيب الخلاف بين المسلمين وغرست بذور الفتنة بينهم ، ورأى أنصار علىّ أن صاحبهم كان أحق بالخلافة منه ، وظلوا يترقبون الفرصة حتى يصلوا الى مأربهم عاملين جهد الطاقة على استمالة جمهور المسلمين الى نظريتهم ، وفى السنة السادسة من خلافة عثمان قامت حركة عنيفة كان الغرض منها نقل الخلافة إلى علىّ ، ونشط الدعاة فى كل من الكوفة والبصرة والفسطاط يشوهون أعمال الخليفة وولاته ويرجفون فى البلاد وينشرون فيها الأباطيل ، منتهزين فرصة لين الخليفة فاكتسبوا أنصارا كثيرين ، وأخذت عوامل السخط تزداد يوما فيوما حتى هب فريق من الناقمين وحاصروا الخليفة فى داره لمدة اثنين وعشرين يوما ، ثم دخلوا عليه وقتلوه وهو يتلو القرآن فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ه

كان قتل عثمان سببا لتفاقم الخلاف بين المسلمين، اذ اتهم أنصاره وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان والسيدة عائشة أم المؤمنين عليا بممالأة الثوار وأمسكوا عن مبايعته، عندما قبل منصب الخلافة بعد تردد، ولم يستطع علىّ على الرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها أن يبرىء نفسه من الشكوك التى حامت حوله من أن له يدا فى قتل عثمان، وعصفت بالبلاد ريح الثورة، وقامت الفتن فى أنحاء الخلافة الأسلامية وتلتها الحروب الداخلية، وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ. ولم يذق الخليفة الرابع للراحة طعما بل ولم تصف له الخلافة يوما واحدا، ثم هجم عليه أحد الخوارج وهو عبدالرحمن بن ملجم وضربه فى رأسه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة فى صبح يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ وإليك نبذة فى أخبار الخوارج

الخوارج: قال المرحوم الأستاذ الشيخ محمد شريف سليم ناظر دار العلوم سابقا «إن الخوارج قوم من المسلمين يرون فى سيرة الخليفتين عثمان وعلى رضى الله عنهما ومن بعدهما من أمراء المؤمنين وولاة أمورهم ما لا يراه عامة المسلمين، ويزعمون أنها مخالفة للدين، فيخرجون من الجماعة ويتألبون عليهم، فيضطر أولو الأمور الى قتالهم خشية اضطراب الأمن وانتشار الفساد، ومن ذلك أطلق عليهم اسم الخوارج»

وكان بدء ظهورهم فى خلافة علىّ عندما قامت الحروب الداخلية فى الدولة الاسلامية بين الخليفة يعاضده أهل العراق، وبين معاوية ومن انضم اليه من الزعماء يعاضده أهل الشام، وبعد حروب شعواء بين الفريقين رضيا مبدأ التحكيم بينهما بعد موقعة صفين سنة ٣٧ هـ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى حكما لهم على كره شديد من علىّ، واختار أهل

الشام عمرو بن العاص حكما لهم ، واجتمع الحكمان بحصن يسمى دومة الجندل بقرية من قرى الشام ، وتفاوضا فيما يكون عليه أمر المسلمين ، فخدع عمرو أبا موسى ، واتفق معه على أن يخلع كل منهما صاحبه ليولى المسلمون من يختارونه ، وتقدم أبو موسى وأعلن خلع على ، وقام عمرو وأعلن تثبيت معاوية ، فاضطرب الناس ، وانقسم أنصار علىّ الى فريقين ، فريق استمر يناصره وهذا هو فريق الشيّعة التى سنتكلم عليها فى موضع آخر ، وفريق خرج عليه وحكمّ اذ قال كيف يحكم الرجال فى أمر الله عز وجل . لا حكم إلا الله —

أخذ الخوارج بعد ذلك يظهرون الزراية على علىّ فى التحكيم ، ويقاطعونه فى خطبه معلنين العداء له ، وفى سنة ٤٠ ﻫ اجتمعت طائفة منهم بمكة وتآمروا على قتل علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص زاعمين أنهم سبب اضطراب الأمة الاسلامية ، ووقع اختيارهم على عبد الرحمن بن ملجم ليقتل عليا ، والحجاج بن عبد الله الصريمى المعروف بالبرك ليقتل معاوية ، وعمرو بن بكر التميمى ليقتل عمرو بن العاص ، وأن يكون قتل الثلاثة فى ليلة واحدة

كثر عدد الخوارج بعد موت الامام على ، وكانوا مصدر الثورات والاضطراب فى عهد الدولة الأموية ، وظلوا كتلة واحدة حتي سنة ٦٤ ﻫ ، ثم انقسموا إلى فرق كثيرة أشهرها خمس ، وهى الأزارقة ، والأباضية والصفرية ، والنجدية ، والبيهسية ، وانتشرت فى البلاد والأقطار ، وأخذ دعاتها ينشرون مذاهبها المختلفة ، كما تراه مفصلا فى الملل والنحل للشهرستانى والفرق بين الفرق للبغدادى وغيرهما ، وازدادت شوكة الخوارج ، ونجحوا فى التغلب على قوات الحكومة ، وظلوا يعيثون فى الارض فسادا ، واستولوا على كرمان وولاية فارس ، وهددوا البصرة فى سنة ٦٥ ﻫ ، فأجمع

أهلها وأشرافها على اختيار المهلب بن أبي صفرة والى خراسان لمطاردتهم ومحاربتهم ، فشمر عن ساعد الجد ، وأخذ يضيق عليهم الخناق ويحاربهم بمختلف الوسائل الحربية والسياسية ، واستمر على هذا المنوال حتى فرق شملهم وانتصر عليهم ، وخلص العراق من شرهم ، ولولاه لسقطت البصرة فى أيديهم ، ولذلك سميت بصرة المهلب

جاء فى كتاب فجر الاسلام لأحمد أمين « وكان كلام الخوارج يدور حول تشريح أعمال الخلفاء وأنصارهم ، والبحث فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمنا ومن لا يكون ، وقد وضعوا نظرية للخلافة وهى أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل أو يحكّم ، وليس بضروري أن يكون قرشيا بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله »

« وكان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربا بدوا ، وانضم اليهم بعض الخوارج الموالى ، إعجابا برأيهم الديمقراطى فى الخلافة ، وقد اشتهر الخوارج بالتشدد فى العبادة والانهماك فيها والأخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة يضاف اليها العربية الخالصة جعلت لهم ادبا خاصا يمتاز بالقوة شعرا ونثرا وقوة فى السبك وفصاحة فى الاسلوب »

مات الامام علىّ متأثرا بجرحه بعد أن ضربه ابن ملجم بيومين ، وكان قد قضى فى الخلافة أربع سنين ونحو تسعة أشهر ، وبموته انقضى عصر الخلفاء الراشدين أو عصر الجمهورية الأسلامية كما يطلق عليه بعض المؤرخين ، وبدأ عصر الحكم الملكى الوراثى وقامت الدولة الأموية

٢ — عصر الدولة الاموية :

انتخب أهل الشام معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ، وظل جمهور المسلمين ما عدا الخوارج مواليا لعلىّ حتى قتل ، فبايع جند العراق ابنه الحسن ، ولكنه رأى من مصلحة المسلمين وتوحيدا لكلمتهم أن ينزل عن الخلافة لمعاوية ، وتفاوض معه فى أمر التنازل ، واشترط لنفسه ولأهله شروطا ارتضاها ، ثم بايعه فى شهر ربيع الاول سنة ٤١ هـ وترك أمر الخلافة له ، فغضب لذلك فريق الشيعة ، وترقب الفرصة لاقامة أخيه الحسين خليفة على المسلمين . وكان معاوية ذا مواهب سياسية كبيرة وذا عقل راجح ورأى صائب ، استطاع بحسن تدبيره وبفضل حزمه وكثرة بذله ان يوطد دعائم ملكه ، وأن يؤسس بين المسلمين حكما ملكيا وراثيا ، واضعا نصب عينيه الوصول الى الغاية التى كان يطمح اليها ، متخذا لنفسه شعار سياسيي الوقت الحاضر « الغاية تبرر الوسيلة » . وفى عهده تقدمت الدولة الاسلامية تقدما ايجابيا ، وفتحت البلاد ، وانتشر الاسلام انتشارا عظيما ، ومات فى رجب سنة ٦٠ هـ بعد حكم دام عشرين سنة فى السنة الخامسة والسبعين من عمره . وكان قد فكر قبل موته بأربع سنوات أن يأخذ على الناس البيعة لابنه يزيد بولاية العهد ، ومن الاسباب التي دفعته الى القيام بهذه الخطوة الجريئة والأقدام على هذا الانقلاب الخطير الشأن ، البعيد الاثر فى النظام الحكومى الاسلامى ، ما أجمله ابن خلدون فى مقدمته اذ قال كما ورد فى كتاب عصر المأمون « إن الذى دعا معاوية لأيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتفاق

أهوائهم ، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع ، وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل الى المفضول ، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء » . وقد أضاف السير وليم موير الى هذه العوامل عوامل اخرى تتلخص فى رغبة معاوية الأكيدة فى قصر أمر الخلافة على أفراد أسرته ، وفى خوفه من تفرق كلمة المسلمين بعد موته ، وقيام الحروب الاهلية مما يضعف مركز الدولة الأسلامية ، ويطمع فيها أعداءها الخارجين من عجم وروم الذين كانوا يتحفزون للاغارة عليها متى سنحت الفرصة المناسبة لهم

لقد كان لهذا الانقلاب أثر كبير فى توطيد ملك بنى أمية ، ولكنه « كان فى نفسه سببا يعتد به من أسباب سقوط الدولة الاموية »

خلف يزيد اباه فى الحكم وبايعه الناس ، ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهالى المدينة ، من بينهم الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وكان أول عمل قام به يزيد بعد أن استوى على عرش الخلافة أن كتب الى الوالى على المدينة من قبل أبيه وهو الوليد بن عتبة ابن ابى سفيان أن يأخذ له البيعة ممن امتنعوا عن مبايعته ، فصدع بالامر كل من عبد الله بن عمر وابن عباس ، وأما عبد الله بن الزبير والحسين فرفضا وخرجا الى مكة ونزلا بها ، ولما علم أهل الكوفة بانتقال الخلافة الى يزيد عزموا على دعوة الحسين الى مدينتهم لمبايعته بالخلافة ، واجتمعت الشيعة فى منزل زعيمهم سليمان بن صرد الخزاعى ، وكتبوا الى الحسين يرجون قدومه ، ونصح له أصدقاؤه بمكة أن يعتذر ويرفض الدعوة ، لما كانوا يعلمونه من تردد الكوفيين وعدم ثباتهم

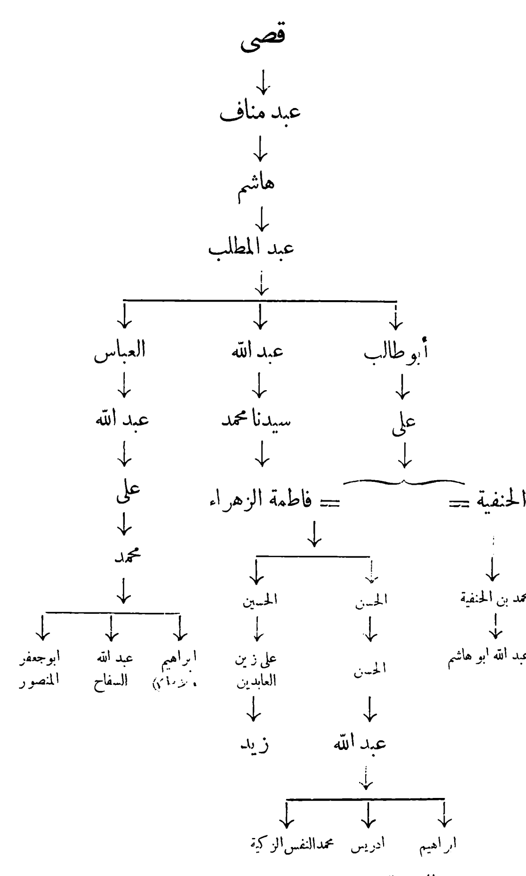
ولكن ابن الزبير نصح له بالقبول حتى يتخلص منه وهو أكبر منافس له فى أمر المطالبة بالخلافة

قبل الحسين الدعوة ، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب الى الكوفة ليمهد له الامر ، وأوصاه بتقوى الله وكتمان أمره ، وعلم يزيد بخطوات مسلم فعزل والى الكوفة ، وولى عليها عبيد الله بن زياد امير البصرة ، وكان رجلا شديدا ، وحاكما مدبرا فتغلب على مسلم وقتله وقتل معه صديقه هانىء بن عروة المرادى . وفى ٨ ذى الحجة سنة ٦٠ ﻫ خرج الحسين ومعه أهله وأولاده طالبا الكوفة ، مخالفا رأى مشيريه ، ضاربا بما نصحوا به اليه عرض الحائط ، وقبل أن يصل الى الكوفة بلغه خبر قتل مسلم ، فكرر مشيروه نصائحهم ، وطلبوا اليه العدول والرجوع الى مكة ، ولكن ألح بنو عقيل عليه بالاستمرار مطالبين بثأر أخيهم ، ولما قرب من الكوفة قابله الحر بن يزيد التميمى ومعه جيش بلغ عدده ألف فارس ومنعه من التقدم ، فاتجه الحسين نحو الشمال تاركا الكوفة ، وظل الحر يراقبه حتى أرسل بن زياد جيشا لملاقاة الحسين وعلى رأسه عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وضرب الحسين خيامه فى سهل مدينة كربلاء على شاطىء الفرات وهى تبعد نحو خمسة وعشرين ميلا عن الكوفة ، ودخل الفريقان فى مخابرات انتهت بالاخفاق ، واضطر الحسين الى القتال ولكنه غلب على أمره وقتل هو ومن معه قتلا شنيعا فى ١٠ المحرم سنة ٦١ ﻫ (١٦ اكتوبر سنة ٦٨٠ م)

تخلص يزيد بقتل الحسين من منافس عنيد له ، ولكن مأساة كربلاء كان لها رد فعل شديد فى قلوب أهل الشيعة ، وندموا ندما شديدا لقعودهم عن نصرة الحسين ، واستغل دعاتهم حوادث تلك المأساة ، وبالغوا فى سردها

ونشروها بين أهل العراق وفارس والحجاز، فاكتسبوا أنصارا كثيرين وأصبح للعلويين شأن خطير يهدد كيان الدولة الاموية، ويهز أركانها من أقصاها الى أقصاها، إذ قامت الثورات العنيفة فى أنحاء الخلافة الاسلامية وظلت الشغل الشاغل ليزيد وقواده وعماله حتي قضى نحبه فى السنة الاربعين من عمره فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ ﻫ

خلف يزيد ابنه معاوية الثانى وكان تقيا تأثر بمأساة كربلاء، ومال الى بنى هاشم، واتبع معهم سياسة الرفق واللين، ولكنه مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته، وبموته انقرض فرع أبي سفيان بن حرب، وانقسم الأمويون على انفسهم، وظهرت الاحزاب بين أفراد أسرتهم، وفكر مروان بن الحكم زعيم أكبر حزب بينهم أن يبايع عبد الله بن الزبير الذى كان قد عظم أمره ودخل فى دعوته أهل الحجاز والعراق وخراسان وفارس ومصر وكان له أعوان كثيرون فى الشام نفسها، ولكن حدثت أمور خدمت مروان بتباطؤ عبد الله، واتفق زعماء بنى أمية ونادوا بمروان خليفة، وخرج لقتال ابن الزبير وانتصر عليه فى معركة مرج راهط وهى تقع فى الشمال الشرقى لدمشق وتبعد عنها بضعة أميال. وكان من نتائج هذا الانتصار أن خضع الشام بأجمعه الى مروان، ثم سار إلى مصر وفتحها أيضا وبايعه اهلها، وكان يريد أن يتتبع أثر عبد الله بن الزبير، ولكن المنية عاجلته فمات فى رمضان سنة ٦٥ ﻫ ٦٨٥ م بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز فأوجد بذلك النظام الثنائى فى ولاية العهد، ذلك النظام الذى نشأ عنه انحلال الدولة الأموية كما سنتبينه من الحوادث الآتية، والآن نترك سيرة عبد الملك ونقول كلمة موجزة فى شيعة بنى هاشم



٣ — الشيعة :

عرف الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل البيت أحق بالخلافة بعده بالشيعة ، لأن شيعة الرجل هم أصحابه وأتباعه ، وكان العباس عم النبي وعليّ ابن عمه أولى أهل البيت

واجتمعت كلمة الشيعة على تفضيل الأمام عليّ كرم الله وجهه على العباس فى أمر الخلافة ، واعترف العباس نفسه بهذه الأولوية ولم يطالب بالخلافة

مذهب الشيعة وفرقها :

يقول الشيعة إن الامام أو الخليفة بعد النبى صلى الله عليه وسلم هو سيدنا على ، وأنه فى نظرهم أكبر معلم ، إذ أنه قد ورث علوم الرسول ، ويرون أنه ليس شخصا عاديا ، بل يمتاز عن سائر الناس لأنه معصوم من الخطأ وأن الاعتراف بامامته والطاعة له جزء من الايمان ، ويقولون إن الأئمة تتسلسل من بعده من نسله بترتيب من عند الله ، وقد اختلفوا فيما بينهم اختلافا كثيرا فى طريقة هذا التسلسل ، ومن ثم تشعبت مذاهبهم وكثرت فرقهم مما لا محل لذكره هنا ، بل نقتصر على ذكر فرقتين هما أهم الفرق وأكبرها شأنا : وهما (فرقة الزيدية وفرقة الأمامية) ، فالفرقةالاولى تتكون من أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن الأمام عليّ ، ومذهب هذه الفرقة هو أعدل مذهب الشيعة وأقربها إلى السنة ، اذ «لايؤمنون بالخرافات التى ألصقت بالأمام فجعلت له جزءا إلهيا» . هذا وقد خرج زيد فى خلافة هشام بن عبد الملك بتحريض أهل الكوفة مطالبا بالخلافة ، والتف حوله أنصار كثيرون ، ولكن الجيوش الأموية طاردته وتغلبت عليه وشتتت أنصاره وذلك لقعود أهل الكوفة عن نصرته وقت الخطر ، وقبض عليه وقتل صلبا فى سنة ١٢١ هـ وثار بعده ابنه يحيى ولكنه غلب على أمره أيضا وقتل سنة ١٢٥هـ

وتفرق بعد ذلك أنصار هذا المذهب فى طول البلاد وعرضها ، ولا يزال كثيرون من أهل اليمن يعتنقونه حتى يومنا هذا

أما الفرقة الثانية وهى الأمامية فقد قالت إن النبى صلى الله عليه وسلم نص على خلافة علىّ، وأنها تنتقل منه إلى من بعده، وفى رأى زعمائها أن أبا بكر وعمر كانا مغتصبين للخلافة، وقد طعنوا فى إمامتهما وجعلوا الاعتراف بالامام جزءا من الايمان، وقد انقسمت الامامية الى فرق صغيرة متعددة منها الفرقة الاثناعشرية، وأطلق عليها هذا الاسم لأنها تجعل الأئمة اثنى عشر إماما وهم علىّ، والحسن، والحسين، وعلى زين العابدين، ومحمد الباقر وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلى الرضا، ومحمد التقى، وعلى التقى، وحسن العسكرى، ومحمد المهدى، وينتشر مذهب هذه الفرقة فى بلاد فارس وعقيدتها هى العقيدة الرسمية لدولة ايران الى اليوم

واشتهرت فرقة أخرى وهى الفرقة الاسماعيلية، وهى التى تقف بأئمتها عند اسماعيل بن جعفر الصادق، وجاء فى وصفها ماورد فى كتاب فجر الاسلام صحيفة ٣٢٥ «ووضع أتباعها لهم تعاليم درجوها تسع درجات تبتدىء بأثارة الشكوك فى الاسلام، كسؤالهم مامعنى رمى الجمار، وما العدو بين الصفا والمروة؟ وتنتهى بهدم الاسلام والتحلل من قيوده، وأولوا كل مافيه، فقالوا إن الوحى ليس إلا صفاء النفس، وأن الشعائر الدينية ليست إلا للعامة، وأما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها، وأن الأنبياء هم سواس العامة، أما الخاصة فأنبياؤهم الفلاسفة، وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن، فهو رموز لأشياء يعرفها العارفون، إنما يجب أن يفهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز، والقرآن ظاهر وباطن، ويجب أن نخترق الحجب المادية حتى نصل إلى أطهر مايمكن من الروحانية، ومن ثم سموا أيضا «الباطنية» وكان من آثار دعايتهم الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر، ولا يزال لهم بقايا الى اليوم فى الشام والعجم والهند ورئيسهم الآن «أغا خان» الزعيم الهندى المشهور

وتعتقد الأمامية على وجه العموم بعودة أمام منتظر، ولكنها تختلف فى شخص الأمام باختلاف فرقها، فمنها من تنتظر جعفر الصادق ومنها من تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب

وهناك فرقة ثالثة تنتظر محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب وتزعم أنه حى لم يمت، وأنه فى جبل رضوى بالحجاز إلى أن يأذن الله له بالخروج، وأنه بين أسد ونمر يحفظانه، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ويعود بعد الغيبة، فيملأ العالم عدلا كما ملىء جورا، ويقول شاعرهم فى هذا المعنى:

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
علىّ والثلاثة من بنيه هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لايرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

وتعرف هذه الفرقة الثالثة بالفرقة الكيسانية نسبة الى كيسان مولى محمد بن الحنفية، وهو لقب للمختار بن أبى عبيد الثقفى الذى خرج بالكوفة بعد موت الحسين فى كربلاء داعيا الى الامام المهدى وهو محمد بن الحنفية، وقد لاقت دعوته أذنا صاغية بين أهل العراق، والتف حوله أنصار كثيرون، ولكن عبد الله بن الزبير أرسل اليه جيشا بقيادة أخيه مصعب فتغلب عليه وقتله سنة ٧٦هـ ٦٨٦م، وبايع محمد بن الحنفية عبد الملك بن مروان، وعلى الرغم من قيامه بهذه البيعة ظلت شيعته على الرأى بأنه أحق بالخلافة ولكنه مغلوب على أمره، ولما مات انتقل ولاؤها الى ابنه عبد الله أبى هاشم

الشيعة والأمويون :

كان خلفاء بنى أمية فى نظر الشيعة مغتصبين للخلافة ظالمين، ولذلك عملوا على مناهضتهم بجميع الوسائل العلنية والسرية، وأيدوا مذهبهم بتفسير الآيات القرآنية بما يتفق وعقديتهم، ووضعوا الأحاديث الكثيرة ونسبوها الى النبي صلى الله عليه وسلم فى فضائل علىّ وفى المهدى المنتظر، ولذلك أخد الأمويون وعمالهم يطاردونهم فى كل قطر ومصر، واضطهدوهم اضطهادا شديدا، وسجنوهم ونهبوا أموالهم، وقتلوهم وشردوا معهم أهل البيت، وما أعمال عبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وأسد بن عبد الله القسرى الا برهان ناطق على شناعة هذه الاضطهادات، وكان من جراء هذا الاضطهاد وتلك المطاردة أن مالوا الى الدعوة السرية وأحكموا نظامها. «وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء الى الرموز والتأويل»، وقد اصطبغ أدبهم بالحزن العميق والنوح والبكاء وذكرى المصائب والآلام

أثر الشيعة فى الاسلام :

جاء فى كتاب فجر الأسلام صحيفة ٣٣٠ مايأتى « والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الأسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد أدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادتشية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كالذى كان فى المغرب قبل انتقال الفاطميين الى مصر — كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارا يخفون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم. فاليهودية ظهرت فى التشيع بالقول بالرجعة، وقالت الشيعة إن النار محرمة على الشيعى ألا قليلا، كما قال اليهود

لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، والنصرانية ظهرت فى التشيع فى قول بعضهم إن نسبة الأمام إلى الله كنسبة المسيح اليه ، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الأمام ، وإن النبوة والرسالة لاتنقطع أبدا فمن اتحد به اللاهوت فهو نبى ، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول ، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الأسلام . وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية ، وما فى نفوسهم الا الكره للعرب ودولتهم والسعى لاستقلالهم ، قال المقريزى « واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الأسلام ان الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليدعلى جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والاسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على ايدى العرب ، وكان العرب عند الفرس أقل الامم خطرا تعاظمهم الامر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات شتى وفى كل ذلك يظهر الله الحق . . . فرأوا أن كيده على الحيلة انجع ، فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع بأظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علىّ ، ثم سلكوا مسالك شتى حتى أخرجوهم من طريق الهدى »

٤ — انتقال الدعوة الشيعية الى العباسيين :

مات محمد بن الحنفية بن علىّ ، فانتقل ولاء الفرقة الكيسانية الى ابنه أبى هاشم عبد الله ، وكان من عادته أن يفد على الخلفاء الامويين ، ولما تقابل مع سليمان بن عبد الملك أحد هؤلاء الخلفاء (٩٦ — ٩٩) أكرمه وقضى حوائجه ، ولكنه حقد عليه لفصاحته وخافه ، فأمر أن يدس له السم فى لبن فى

أثناء رجوعه من الشام ، فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله ذهب إلى الحميمة وهى قرية تقع فى جنوب فلسطين ، ونزل على بنى عمه من العباسيين ، وأوصى بحقه فى الخلافة الى أحدهم وهو على بن عبدالله بن العباس ، وهذا أوصى بها عند وفاته الى ابنه محمد العباسى وعرفه أسرار الدعوة ، وبذلك انتقل ولاء الكيسانية من العلويين الى العباسيين ، ونشط هؤلاء العباسيون منتهزين تلك الفرصة الجليلة السانحة ، وبذلوا جهد طاقتهم فى رواج دعوتهم والوصول الى منصب الخلافة ، ونهض محمد العباسى بالدعوة الشيعية نهضة قوية ، وكان ذا نظر ثاقب ، وعقل سليم ، واليه يرجع الفضل فى تنظيم صفوف الشيعة تنظيما محكما أدى الى النجاح المنشود ، وهو صاحب فكرة الدعوة السرية ، إذ عين للشيعة نقباء ودعاة وأوصاهم ببث الدعوة سرا ، وبالتظاهر بها لآل البيت عامة من غير تعين فرد حتى لا يفتك به الأمويون ، وكانت طريقة حكيمة أنتجت ثمرتها المطلوبة

وانتشر النقباء ، وعددهم اثنا عشر نقيبا ومعهم الدعاة وعددهم سبعون رجلا فى مختلف الأقطار والأمصار ، ينشرون دعوتهم ، وينفذون خططهم ، مسترشدين فى عملهم بكتاب محمد العباسى لهم ، ويدل هذا الكتاب كما جاء فى عصر المأمون (صحيفة ٨٣ المجلد الاول) على ماكان عليه هذا الزعيم العباسى من علم بأحوال الناس فى عصره ، وبعد بأخلاق الشعوب التى كانت خاضعة للسلطان الاسلامى ، وبما كانت تجيش به النفوس فى كل صقع وحاضرة ، وبمثل هذا الزعيم الداهية ومن اجتباهم للدعوة العباسية ، قد كتب الفوز لهذه الدعوة آخر الأمر . ومما قاله هذا الزعيم فى كتابه : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ، ومسلمون فى أخلاق

النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون ألا آل أبى سفيان ، وطاعة بنى مروان ، وعداوة راسخة وجهلا متراكما . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فأن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل . وهم جند لهم أبدان ، وأجسام ، ومناكب ، وكواهل ، وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة . . . . وبعد فأنى اتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق »

ابتدأت الدعوة السرية فى خلافة عمر بن عبدالعزيز وكان عادلا ومتسامحا مع أهل البيت ، وجعل الشيعة لدعوتهم مركزين أحدهما بالكوفة التى اعتبرت نقطة الاتصال، وأقام فيها بأمر الدعوة ميسرة مولى على بن عبد الله العباسى وأما المركز الثانى فكان بخراسان وهى محل الدعوة الحقيقى ، وتولى الدعوة فيها محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج . يقول المرحوم الخضرى بك صحيفة ١٦ « أما الكوفة فهى مهد التشيع لاهل البيت من قديم ، فيمكنهم أن يأووا اليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم . وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين : الأول أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة ، لأن مؤداها نقل الخلافة الى بيت النبى صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة وسيد الأمة ، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته ، ولا يجوز نقله الى غير بيت الملك الا أن كان ذلك عن اختلاس — الثانى أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ، ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس ، وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد ، فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا ، والنفوذ السائد ، ولا يتولى من ليس منهم شيئا من الولايات العامة ، فكان أهل فارس مستعدين لأن

يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة واخراج الخلافة الى الدولة المستقبلة، كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية . »

جاب الدعاة البلاد فى أوائل القرن الثانى للهجرة يزاولون التجارة ظاهرا، وينشرون الدعوة سرا، بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعون الناس الى مناصرتهم بشتى الاساليب، وظلوا كذلك نحو سبعة وعشرين عاما، وكان ولاة الأمويين فى خراسان يطاردونهم متى ظهر أمرهم مطاردة شنيعة من تعذيب وتقتيل، فأن أسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان كان يقطع أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم وكان يصلبهم، وهو من أشد ولاة خراسان قسوة، ولكنهم مضوا فى دعواهم على الرغم مما لاقوه من التنكيل ومما صادفهم من النكبات . وفى سنة ١٠٥ هـ أنضم الى الشيعة بكير بن ماهان وكان رجلا قويا ثريا وخلف ميسرة نقيب الشيعة فى الكوفة بعد موته، فقاد الدعوة خير القيادة، يأتمر الدعاة بأمره، ويسيرون فى الطريق التى يرسمها لهم

٥ — أنحلال الدولة الأموية وسقوطها :

ظلت الدولة الاموية مهيبة الجانب، ثابتة الدعائم فى أيامها الأولى بفضل حزم معاوية بن أبى سفيان وحسن تدبيره للامور، واستمرت كذلك فى عهد ابنه يزيد الأول، ولكن البيت الأموى انقسم على نفسه بعد ذلك وجرى الخلفاء الأمويون على سنة النظام الثنائى لولاية العهد، فكان هذا النظام شرا مستطيرا، وعاملا كبيرا من عوامل الضعف، اذ كان لكل ولى عهد حزب يناصره، وبطانة تنشر دعوته « وربما تطرفت فى منهجها السياسى تطرفا يبث العداوة فى القلوب، ويستثير السخائم فى النفوس »، فقد خرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الذى تولى الخلافة بعد اخيه هشام، ونسب اليه الفسق والكفر

ءِ احلال ماحرم الله ، وقدح فيه علانية وساعده فى ذلك أنصاره ، ولما تغلب عليه وتولى العرش وقع فيما وقع فيه من سبقه من الخلفاء ، واضطربت الاحوال فى الدولة اضطرابا شديدا ، وانتشرت الفتن وقامت الحروب الاهلية ، اذ قام أهل حمص يأخذون بثأر الوليد ممن قتله ، وحذا أهل فلسطين حذوهم ، وطردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وكذلك قامت الفتنة فى ولاية الأردن وفى العراق وخراسان ، وتقلص نفوذ الخليفة بين أهل تلك البلاد ، وخرج عن طاعته نصر بين سيار والى خراسان ، ولم تطل مدة خلافته وتوفى فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٦هـ بعد حكم قصير دام خمسة أشهر واثنين وعشرين يوما ، وكان قد عهد بولاية العهد من بعده لأخيه ابراهيم ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك

تولى ابراهيم الملك ولم يستقم له الأمر ولم يبايعه إلا أهل دمشق ، وظل حاكما غير معترف به إلا من فئة قليلة نحو ثلاثة أو أربعة شهور ، وسبب ذلك خروج مروان بن محمد بن مروان بن الحكم عليه وكان واليا على ارمينية والجزيرة ، وحاربه وتغلب على القوات التى أرسلت لأخضاعه ، وزحف على دمشق ودخلها منتصرا ، وأخذ على الناس البيعة لنفسه ، واعتلى عرش الخلافة فى صفر سنة ١٢٧هـ ديسمبر سنة ٧٤٤م وهو آخر الخلفاء الأمويين وعلى يديه سقطت الخلافة الاموية ، وكانت مدته كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات ، إذ خرج عليه الولاة فى جميع أنحاء الدولة ، واشتدت دعوة الشيعة فى كل مكان ، فخرج عليه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ابن أبى طالب فى الكوفة ، وثار فى وجهه أهل حمص وأهل فلسطين ، وخرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ونشطت بقايا الخوارج وثار زعيمهم الضحاك بن قيس الشيبانى ، واستولى على الكوفة عنوة بعد أن طرد

حاكمها الاموى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ثم زحف على الموصل وافتتحها ، وانتشرت الفتنة فى بلاد الحجاز أيضا ، واشتغل مروان بأخماد تلك الفتن والثورات طوال أيام حكمه ، وأرسل قواده لأخمادها ومطاردة الثوار وانتصر على كثير منهم ، ولكنه لم يوجه العناية الكاملة لما كان يجرى فى خراسان ، فوجدت الشيعة فيها بيئة صالحة لنشر دعواها ، واستطاع دعاتها وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى ان ينتزعوها من الامويين مستعينين بالعصبية القومية ، ومنتهزين انشقاق القبائل العربية ، ومنها خرجوا الى العراق واستولوا عليه ، واعلنوا الدعوة لبنى العباس . وفى هذا الموضوع ، قال الدكتور فريد الرفاعى صحيفة ٧٥ المجلد الاول «والعصبية العربية التى كانت من الاسباب التى اضمحل بها سلطان بنى أمية قديمة فى القبائل العربية : كانت فى الجاهلية قبل الاسلام ، وكانت تضيق وتتسع بحسب الظروف والمناسبات ، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية وهو اوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية ، نراها بين ربيعة ومضر وهى قبائل عدنانية ، ونراها بين بني أمية وهاشم ، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها ، وكانت هذه العصبيات تشتد حينا وتفتر حينا . فلما جاء الاسلام ، ودخل الناس فيه أفواجا ، وتم له السلطان فى جزيرة العرب الف بين القبائل وأزال مافى صدورهم من أحقاد .... وأزال كل أثر للعصبية القديمة فى نفوسهم وبقى أمر العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين ، وذلك راجع لامحالة إلى عوامل شديدة الاثر فى نفوسهم ، كهيمنة الروح الدينية عليهم وكاشتغالهم بالفتح ، وما استتبع الفتح من غنائم ، وكحزم الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاة وقسوتهم . فلما كان العصر الاموى ، واستقر الناس فى الحواضر الاسلامية وشغلوا بعض الشىء عن الفتوح ، راجعتهم الشنشنة القديمة

« فاخذ بعضهم يفتخر على بعض بما كان لآبائهم من مجد فى الجاهلية وبلاء فى الاسلام ، وما لقبائلهم من قوة وايد . »

الشيعة وأبو مسلم بخراسان :

تولى أمر خراسان فى عهد هشام الثانى نصر بن سيار وكان ينتسب الى كنانة ومضر ، وكان الوالى قبله هو عبد الله القسرى وهو يمانى فكان ضلعه مع قومه وأهل عشيرته وقدمهم على غيرهم من وجوه العرب ، فلما جاء نصر الى تلك البلاد أعرض عن هؤلاء وحابى عشيرته وقدمهم أيضا على غيرهم ، فحدث الانشقاق بين النزارية الذين يؤيدهم الوالى وبين اليمانيين وكان كبيرهم إذ ذاك هو جديع بن شبيب المعروف بالكرمانى ، ثم انشقت النزارية على نفسها فكانت ربيعة فى جانب ، ومضر فى جانب آخر ، وقد نشأ عن هذا الانشقاق أن قامت الحرب بين نصر والكرمانى ، وانتصر الكرمانى على نصر وطرده من مدينة مرو حاضرة خراسان ، وهدم اليمانيون منازل المضرية وأصبحوا أعداء الحكم الاموى ، وهم الذين ناصروا الدعوة الشيعية فى تلك البلاد وكانوا العضد الايمن لابى مسلم الخراسانى

توفى محمد بن على العباسى أمام الشيعة فى سنة ١٢٥ هـ — ٧٤٣ م واوصى بالأمامة من بعده لابنه إبراهيم ، وفى ذلك الوقت توفى أيضا بكير ابن ماهان ، فأقام إبراهيم مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبى سلمة الخلال وكان صهراً لبكير ، وذا منزلة رفيعة بين الكوفيين ، فاستطاع بنفوذه أن يكون عونا ثمينا وسندا قويا للشيعة

كان ابراهيم الأمام موفقا حقا فى اختياره لأبى مسلم للقيام بالدعوة له ولآل بيته فى خراسان ، فقد كان شابا نابها امتاز بالدهاء ، وسعة الحيلة ،

حازما وسياسيا ماهرا قديرا أتبع مع خصومه ومنافسيه القاعدة السياسية « فرق تسد » فنجح نجاحا باهرا وأقام صرح الدولة العباسية فى المشرق

هذا وقد اختلف المؤرخون فى نسبه فقال بعضهم إنه عربى وقال آخرون إنه فارسى، وذهب بعضهم إلى أنه كردى، وقد قال هو عن نفسه « كفاك خبرى عن نسبى »، ويقول السير وليم موير فى هذا « إن أصل هذا البطل على حداثة سنه غير معروف، ولكن من المؤكد أنه ليس عربيا، وقد يكون أصله مولى لأحد وجوه العرب، اتصل ببكير بن ماهان ومنه تلقى أصول التشيع، وفى سنة ١٢٥ هـ اتصل بمحمد بن عبد الله العباسى ودخل فى خدمة الاسرة وتفانى فى الاخلاص لها ونشر دعوتها »

وجهه إبراهيم الأمام الى خراسان سنة ١٢٧ هـ فى وفد من وجوهها بعد أن خطبهم حاثا لهم على اتباعه والائتمار بأمره قائلا « انى قد رأيت أن أولى الأمر هناك أبا مسلم لما جربت من عقله وبلوت من أمانته، وأنا موجهه معكم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد رجوت أن يكون هذا الذى يسوق لنا الملك فعاونوه وكاتفوه، وانتهوا الى رأيه »، ثم أوصى أبا مسلم وصية ثمينة قال فيها :

« يا عبد الرحمن أنك رجل منا أهل البيت فأحفظ وصيتى. وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فأن الله لا يتم هذا الأمر الا بهم. وانظر هذا الحى من ربيعة فأتهمهم فى أمرهم، وانظر هذا الحى من مضر فأنهم العدو القريب الدار، فأقتل من شككت فيه، ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء. وأن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فأفعل، فايما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فأقتله، ولا تخالف هذا الشيخ (وهو سليمان بن كثير) ولا تعصه، وأن أشكل عليك أمر فأكتف به منى. »

ويرى من هذه النصيحة مفتاح السياسة العباسية ومراميها فى خراسان وما هى الأسس التى سار على وفقها أبو مسلم، إذ نفذ الوصية تنفيذا دقيقا ولم يحد عن العمل بها قيد أنملة ومثل دور «فرق تسد» تمثيلا محكما. وفى سنة ١٢٨ هـ نزل أبو مسلم بخراسان، وأقام بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج، واعلن دعوته وهرع اليه الناس من كل حدب وصوب يلتفون حوله ويعاضدونه فى دعواه، وفى شهر رمضان سنة ١٢٩ أعلن لبس السواد بين أنصاره واتخذه شعارا للعباسيين. وكان اللون الأسود هو لون العلم الاسلامى فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن الثورة على الأمويين، ولم ينته الشهر حتى اجتمع حوله قوات كافية استطاع بمعونتها أن يطلب إلى سليمان بن كثير الخزاعى كبير دعاة الشيعة أن يصلى بالناس صلاة عيد الفطر (١٥ يونية سنة ٧٤٧ م) متبعا تقاليد تخالف تقاليد الأمويين فى الصلاة، إذ بدأها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة

كتب أبو مسلم بعد ذلك إلى نصر بن سيار يعلمه بخبره، ونجح فى التفرقة بينه وبين رجاله، وانتقل هو وأنصاره من قريته إلى قرية أخرى وهى الماخوان من قرى مرو وأحكم تحصينها، وبلغ أنصاره إذ ذاك على قول بعض المؤرخين سبعة آلاف رجل، ولما رأى نصر أن الأمر خطير أرسل يطلب النجدة من الخليفه محذرا اياه سوء عاقبه التوانى قائلا

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فأن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جدث وهام
فأن النار بالعودين تذكى وأن الحرب أولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام

لم ينهض مروان بقمع الفتنة وهى فى مهدها بسبب اشتغاله بأخماد الثورات الآخرى كما تقدم ، واستطاع أبو مسلم أن ينتزع البلاد بمساعدة قواده ورسله من نصر الواحدة تلو الأخرى ، وفى جمادى الأولى سنة ١٣٠ ه ترك مركزه فى الماخوان إلى مرو عاصمة الأمارة بعد أن حرض أبن الكرمانى (وكان أبوه قد قتل وهو يحارب نصرا) على دخولها قبله والاشتباك بنصر ، وانتهز فرصة القتال بين الفريقين ودخل المدينة وهو يتلو « ودخل المدينة على حين غفلة » إلى آخر الأية الشريفة ، واحتل دار الأمارة وفر نصر هاربا ، فأرسل أحد قواده المسمى قحطبه بن شبيب وراءه يقتفى أثره فطارده من مدينة إلى أخرى حتى مرض نصر ومات فى ربيع سنة ١٣١ ه ودخل قحطبة مدينة الرى

بهذه الخطوات تم النصر لأبى مسلم واستولى على خراسان ، ومنها بعث عماله إلى جميع الولايات وأرسل قواده يمينا ويسارا وشمالا وجنوبا يفتحون البلاد وينتزعونها من حكام الأمويين ، واستولى الحسن بن قحطبة على همذان ، وفتح هو وأبوه نهاوند والموصل ، ثم توغل قحطبة فى بلاد العراق فقابله أبن هبيرة أميرها من قبل الأمويين قريبا من الكوفة ، وقبل أن يشتبك الفريقان فى القتال توفى قحطبة وتولى القيادة بعده أبنه الحسن ، واستعر القتال ودارت دائرته على أبن هبيرة فانسحب إلى مدينة واسط ، ودخل الحسن الكوفة فى المحرم سنة ١٣٢ ه وسلم الأمر لأبى سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد متبعا فى ذلك نصيحة أبيه عند وفاته

تسلم أبو سلمة الأمر وأرسل الحسن وراء ابن هبيرة بعد أن أمده بقوات جديدة وقواد مدربين ليلحق به بواسط ، ثم أرسل قوات أخرى

تفتح البلاد فى سائر انحاء العراق ، وخرج هو بنفسه على رأس جيش صغير وعسكر عند حمام اعين « على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة »

مروان الثانى وابراهيم الامام :

كانت الشيعة تدعو الى آل البيت من غير تعيين فرد حتى لا يفتك به الامويون ، وكان لا يعرف سر الدعوة إلا النقباء وزعماء الدعاة ، ولما اشتدت الحركة ، واتخذ الشيعة خطة الهجوم ، وقع كتاب مرسل من إبراهيم الأمام إلى أبى مسلم يأمره فيه بمضاعفة الجهود والفتك بالعرب فى يد مروان ، فعرف منه السر ، وأرسل الى عامله بالبلقاء أن يسير الى الحميمة مقر الاسرة العباسية ، ويقبض على ابراهيم ويسيره اليه . عرف ابراهيم مصيره فأوصى بالأمر إلى أخيه عبد الله العباسى وطلب إلى أسرته أن تترك مقرها إلى الكوفة . ولما تقابل ابراهيم مع مروان أمر بسجنه بحرّان ، ولبث فى السجن حتى مات موتة غامضة اختلف المؤرخون فى وصفها

أما اسرته فقد جاءت الى الكوفة واستقبلها أبو سلمة ، وأنزلها فى إحدى دورها ، وكتم أمرها عن سائر القواد أربعين ليلة ، ويقال إنه حاول فى أثنائها أن يغرى أحد زعماء العلويين وهم جعفر الصادق بن محمد الباقر ، وعبد الله بن حسن بن حسن ، وعمر بن زين العابدين ، بقبول الخلافة متخطيا عبدالله أبى العباس ، ولما عرف القواد ذلك أسرعوا إلى أبى العباس وسلموا عليه بالخلافة فسلم أيضا عليه بها أبو سلمة

قيام الدولة العباسية وسقوط مروان الثانى :

خرج أبو العباس عبد الله فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ ٢٨ نوفمبر سنة ٧٤٩ م ومعه أخوته وأقاربه وأكابر الشيعة من الدعاة والنقباء

وأبو مسلم إلى الجامع الكبير، فصعد المنبر وألقى خطبة جاء فيها « يأهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم ينفعكم تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زمننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح » فلقب بالسفاح لذلك ولم يستطع بسبب مرضه إتمام خطبة العرش فجلس على المنبر، وصعد عليه عمه داود بن على العباسى وأكمل الخطبة مرتجلا وكان بليغا فصيح اللسان قوى الحجة، وقد سرد فى خطبته نقائص الامويين، واستدل على أحقية بنى العباس للخلافة ومدح أهل خراسان، ووعد أهل الكوفة المكافأة الحسنة. وبعد أن تمت الخطبتان خرج السفاح إلى القصر وترك أخاه أبا جعفر بالمسجد ليأخذ له البيعة على الناس واستمر به حتي جن الليل

خرج السفاح بعد ذلك الى المعسكر حيث كان أبو سلمة بحمام أعين وترك عمه داود عاملا على الكوفة، وكان مروان الخليفة الأموى يرابط بحران وحوله أنصار وجنود، وتخضع لسلطانه بلاد كثيرة، وكان قائده الكبير ابن هبيرة لايزال متحصنا ببلدة واسط، فأرسل السفاح عمه الثانى عبدالله بن على لقتال مروان، وأرسل جيشا آخر بقيادة الحسن بن قحطبة للقضاء على ابن هبيرة، وذهب عمه وتسلم القيادة من أبي عون الذى كان قد انتصر على عبد الله بن مروان الأموى قبل ذلك فى أغسطس سنة ٧٤٩م.
خرج مروان من حران فى جيش بلغ عدده مائة وعشرين الف مقاتل وعبر الدجلة وتقدم لمقاتلة أعدائه وعند فرع من فروعه يسمى نهر الزاب التقى الجيشان، وبعد معركة عنيفة انتصر عبد الله على مروان فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ﻫ ٢٥ يناير سنة ٧٥٠م

خسر مروان المعركة بسبب تخاذل جند الشام ، وفر من الميدان إلى حران ، واقتفى عبد الله أثره فخرج منها إلى قنسرين ومنها إلى حمص ومنها إلى دمشق ، وكان يحاول أن يجمع جيشا جديدا لصد أعدائه فلم يفلح ، واستمر عبدالله يطارده حتى أتى دمشق ودخلها عنوة وقتل أميرها الأموى أما مروان فقد فر إلى الأردن ومنها ذهب إلى فلسطين وتركها إلى مصر ، واستدعى السفاح عمه وأمره أن يعين صالح بن على ليلحق بمروان ويقضى عليه ، فاقتفى أثره وقابله فى قرية بوصير على الضفة الغربية للنيل وهى قريبة من الواسطى وانتصر عليه وقتله فى آخر سنة ١٣٢ هـ وبموته مات آخر خلفاء بني أمية وماتت معه الدولة الاموية ، وكان مروان من أشجع الخلفاء وأقدرهم . لم يبق بعد موته خارجا على السفاح غير ابن هبيرة وكان متحصنا بواسط كما تقدم وسار اليه الحسن بن قحطبة وحاربه حربا عوانا ، ولما طال أمر القتال أرسل الخليفة أخاه أبا جعفر فى جيش آخر وضيق عليه الخناق ، ولما بلغ ابن هبيرة خبر قتل مروان طلب الصلح ، ودارت المخابرات بينه وبين أبى جعفر ، واتفق الفريقان وسلم ابن هبيرة بعد أن حصل على عهد أمان من أبى جعفر ولكنه نقض عهده وقتله ، وقتل معه عددا من وجوه أصحابه ، وبموته تم الأمر للسفاح وصفا له الجو

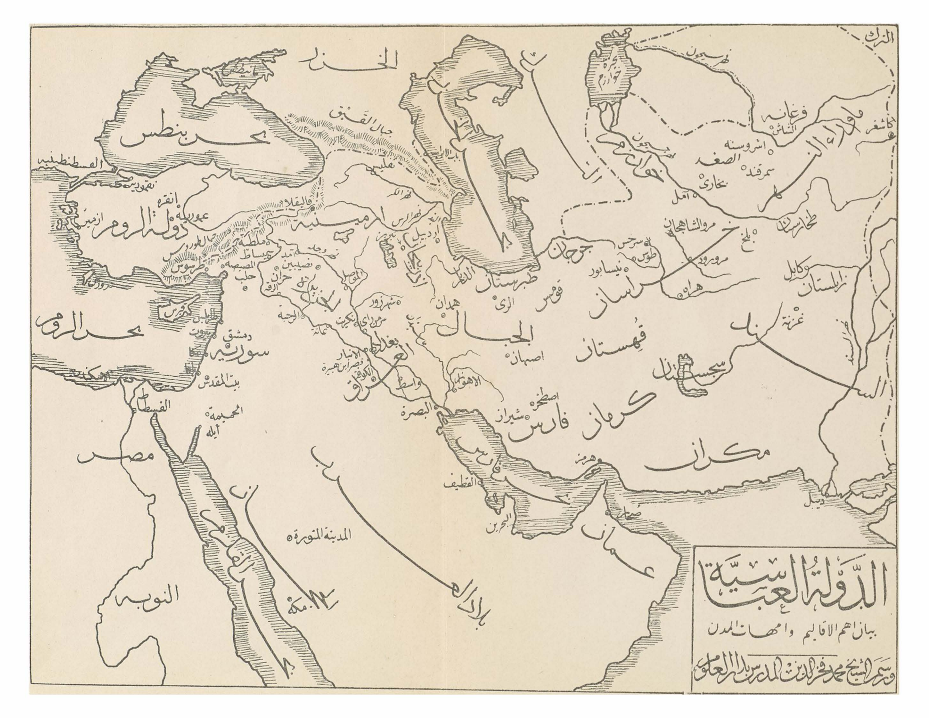
مميزات الدولة العباسية (١٣٢-٦٥٦ هـ — ٧٥٠-١٢٥٨ م)

يقول السير وليم موير « إن الدولة الاسلامية امتازت فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين بتماسك أجزائها ومتانة وحدتها ولكنها لم تكن كذلك فى عهد العباسيين إذ لم تعترف اسبانيا بسلطانها ولم تقر لها بسيادة . وكانت سلطتها فى شمال أفريقيا اسمية أكثر منها فعلية . وأما فى المشرق فقد كانت سلطتها قوية فيه ، ولكن تناثرت أجزاؤها بعد عصر المعتصم ، وظهر فيها

حكام واسر جديدة ، وكان لكل منها تاريخ قائم بذاته منفصل عن غيره ، ومع ذلك قد ظلت الدولة العباسية دولة الخلافة الاسلامية من بدء قيامها الى سقوطها »

فقد العرب فى أيام الدولة العباسية صفاتهم الاولى مدنية كانت أو عسكرية تلك الصفات التى كانت سببا فى نشر الاسلام ورخاء الدولة الاسلامية ، وانغمسوا فى الترف وتعالوا على غيرهم من الشعوب ، وتفرقوا الى شيع وأحزاب ، وأحيوا العصبيات القديمة وراعوا مصالحهم الذاتية وآثروها على المصلحة العامة ، وقلت فيهم الغيرة الدينية ولم يبق لهم مطمح أن يكونوا فتاح العالم كما كانوا قديما ، وانصرف العباسيون عنهم الى غيرهم من الأمم والشعوب من فرس وأتراك وقدموهم عليهم ، والى الفرس والخراسانيين يرجع الفضل فى أقامة الدولة العباسية ، وما لبث أن اتخذ خلفاء العباسيين وزراءهم وقوادهم وحرسهم وبطانتهم من الفرس والترك والموالى وأهملوا العرب ، وبذلك اختفت الأرستقراطية القديمة وحلت محلها طبقة من الموظفين على رأسها الوزير الأكبر الذى كان يمثل الخليفة فى المظاهر العامة ، وظهر بجانب الوزير موظف آخر وهو السياف وهو مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة وكان غير معروف فى عهد الدولة الاموية . ولعب المنجمون دورا مهما وكان رأيهم الأعلى فى شئون الدولة حتى فى الحملات العسكرية . ونقل العباسيون نظام البريد ورسله عن الفرس والبابليين ، وكان هؤلاء الموظفون عيون الخليفة فى كل اقليم وولاية من ولايات الدولة

كان لنفوذ الفرس فى الدولة العباسية أثر كبير فى أخلاق العرب ، وفى نشر الثقافة العامة ، والتسامح الدينى ، والبحث العلمى الحر


الدولة العباسية
بيان اهم الاقاليم وامهات المدن
رسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
بحر بنطس
الخزر
بحر الروم
دولة الروم
القسطنطينية
ارمينية
جبال القبق
سورية
دمشق
بيت المقدس
الفسطاط
مصر
النوبة
المدينة المنورة
مكة
الجزيرة
العراق
بغداد
البصرة
الجبال
همدان
اصبهان
الرى
قومس
طبرستان
جرجان
خراسان
نيسابور
قهستان
فارس
شيراز
اصطخر
كرمان
مكران
سجستان
عمان
القطيف
البحرين
هرمز
بلخ
بخارى
سمرقند
الصغد
اشروسنه
فرغانه
الشاش
ماوراء النهر
كاشغر
الترك
طخارستان
غزنة
زابلستان
كابل
هراة
طوس
سرخس
ديبل

كانت الدولة العباسية دولة عسف شديد وخيانة ونكث للعهود. قال الخضرى بك « ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم. وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم، وفى بدء إسلامهم وفى فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم »

وقال مؤرخ آخر « أعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خداع ودهاء وغدر، وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة »



الباب الثاني

عصر السفاح والمنصور

١ ـ أبو العباس عبد الله السفاح

(١٣٢-١٣٦هـ)(٧٤٩-٧٥٤م)

ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بالحميمة، وهي مقر أسرته كما تقدم فى سنة ١٠٤هـ، وتولى الحكم فى سنة ١٣٢هـ، وقد قابلته المصاعب من كل جانب، وامتلأ زمنه بالثورات والاضطرابات، إذ كان لا يزال فى الدولة الاسلامية قواد وولاة ضلعهم مع الأمويين. وقامت الثورات فى سورية والجزيرة، وكان ابن هبيرة لا يزال متحصنا فى واسط، وأبى حاكم السند والهند أن يعترف بخلافته، وهددت الدولة البوزنطية البلدان والثغور الاسلامية، فشمر أبو العباس عن ساعد الجد، ونهض ببأس شديد يكافح المصاعب ويغالبها حتى تغلب عليها، ووطد دعائم ملك أسرته بفضل ما استعمله من القسوة وما سفكه من الدماء، وكان موفقا فى استخدام عمال وولاة من أعمامه وبنيهم، وقد اخلصوا له الاخلاص كله، ونفذوا سياسته تنفيذا محكما، وبهم طارد الأمويين ومن ناصرهم مطاردة أهلكتهم وفرقت عصبيتهم، وأراحت العباسيين من شر انتفاضهم، ولقد كان سفاكا للدماء، ناكثا للعهود، غادرا، فأنتقده المؤرخون انتقادا مرا، وصوروا لنا عصره بأبشع الصور، وأظلم الاوصاف

ترك الكوفة بعد البيعة واتخذ مدينة الأنبار عاصمة لملكه، وفى ضاحية من ضواحيها بني مدينة جديدة وسماها الهاشمية، ثم عين حكاما

من أنصاره وأقاربه لأقاليم الدولة المختلفة ، وقد اشتهر من هؤلاء العمال خمسة رجال كان لهم النفوذ والسلطان الاكبر فى تأسيس الدولة ، وهم

(١) أبو مسلم الخراسانى بالمشرق (٢) أبو جعفر المنصور فى الجزيرة وارمينية والعراق (٣) عبد الله بن على بسورية ومصر

(٤) داود بن على فى الحجاز واليمن (٥) سليمان بن على فى البصرة وملحقاتها

علاقته بالأمويين :

استعمل السفاح هو وأعوانه مع الامويين من القسوة وسفك الدماء مالم يشهد التاريخ مثله فى دولة تقوم على أنقاض أخرى ، فانه أعمل السيف فى غير هوادة فى الامويين وأنصارهم ، ونسج على منواله عماله فى أنحاء الدولة وإليك شيئا من خبر تلك المذابح الشنيعة ، فقد روى أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الاغانى قال : كان أبو العباس جالسا فى مجلسه وحوله نفرمن بني هاشم وبنى أميـة ، فدخل الحاجب فقال يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازى أسود متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف الا يحسر اللثام عن وجهه حتي يراك ، قال هـذا مولاى سديف ، يدخل ، فدخل فلما نظر الى أبى العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجه ، وقال شعرا منه :

لا يغرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فألتفت اليه سليمان بن هشام بن عبـد الملك ، وقد كان بين الحاضرين وقال قتلتنى ياشيخ ، فأمر به السفاح فقتل هو ومن معه

أما عامله عبد الله بن على ، فيقول ابن خلكان أنه أغمد الخناجر فيمن كان بالشام من أسرة خلفاء بنى أمية ، ولم يفلت منه أحد إلا من كان رضيعا ،

ثم عمد إلى قبور بني أمية فى دمشق فنبشها ، وأخرج ما فيها من عظام وأحرقها وذراها فى الريح ، وروى عنه فريق من المؤرخين خبر هذه الحادثة المروعة وهى أنه دخل عليه شبل بن عبد الله مولى بني هاشم الشاعر ، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا ، كان قد دعاهم إلى مأدبة بعد أن أمنهم وأنشد شعرا منه :

ولقد ساءنى وساء قبيلى   قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها الله   بدار الهوان والأتعاس
واذكرن مصرع الحسين وزيدا   وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحرّان أمسى   رهن رمس فى غربة وتناسى

فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط النطوع عليهم ، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا

وقتل سليمان بن على مع أنه كان أشفق الناس على بنى أمية كل من عثر عليه من الأمويين فى البصرة ، ويقال إنه أحضر يوما جماعة من أشرافهم ، وعليهم الثياب الموشاة وقتلهم ، ثم أمر بهم فجروا بارجلهم فالقوا فى الطريق فأكلهم الكلاب ، واستمر يطارد الامويين حتى دخل عليه عمرو ابن معاوية بن عمرو بن عتبه بن أبى سفيان واستماله اليه بخطبة رقيقة ، منها «أن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس اليهن معنا ، وأولى الناس بهن بعدنا ، قد خفنا لخوفنا ومن خاف خيف عليه » ، فتأثر سليمان تأثرا شديدا ، وأمن الرجل ومن معه ، وكتب إلى السفاح يطلب منه الأمان لهم ، فأجيب طلبه وكتب الخليفة إلى عماله بوقف المطاردة والتقتيل

ولم تكن أعمال باقى الولاة أقل قسوة وأخف شدة مما ذكرنا ، فان داود ابن على قتل من ظفر به من بنى أمية بمكة والمدينة ، وكذلك كانت أعمال

يحيي أخي السفاح بالموصل ، فانه غدر بالناس غدرا شنيعا وقتلهم قتلا ذريعا ، وكذلك ضرب العباسيون جماعة الخوارج بعمان ضربة قاضية ، واستطاع زياد أمير سمرقند اخضاع صغد وفرغانه ، بعد أن قتل خمسين الفا وأسر عشرين الفا . هذا ولم تكن الشدة مقصورة على بنى أمية ، بل شملت من ناصر العباسيين وكان له فضل فى اقامة ملكهم ، فانه لما تم الأمر لهم شكوا فى اخلاص أبى سلمة الخلال وزير آل محمد ، واتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم الى آل على بن أبى طالب ، فأرادوا قتله ، ولكنهم بعثوا لمشاورة ابى مسلم قبل الأقدام على هذا العمل الجرىء ، وبعث السفاح أخاه أبا جعفر الى خراسان لمقابلة أبى مسلم واستشارته فى ذلك ، وبعد أن تمت المقابلة أرسل أبو مسلم رجلا قتل أبا سلمة وهو خارج من عند السفاح ، وأشاعوا أن الخوارج قتلوه . وقتل أبو مسلم عماله بفارس ، وقتل كبير الشيعة فى خراسان وهو سليمان بن كثير ، وكان هذا القتل لأتفه الأسباب وأوهاها ، وغضب أبو جعفر غضبا شديدا لجرأة أبى مسلم وأسرّها فى نفسه إذ القتل وقع أمامه ولما عاد الى الخليفة أخبره بخطورة شأنه فى خراسان ، وكان من رأيه الفتك به أيضا ، ولكن الخليفه تريث فى الأمر ولم يقدم على ذلك فى أيام خلافته خوفا من خروج أهل خراسان عليه

علاقته بالدولة البوزنطية :

لم تسلم الدولة فى عصره مع الأحتياطات الشديدة التى أخذها من خطر الغزو الأجنبى ، فقد أغارت الدولة البوزنطية على أطرافها ، واستولت على ثغر ملطية وكليكية ، وكانت تقتل المسلمين تقتيلا على يد قائد أرمنى يسمى كوشان ، وقد استطاع هذا القائد أن يدخل أرضروم وقتل رجالها ، وهتك أعراض نسائها ، وساق الغنائم الى ملك الروم

المنافسة بين أبى مسلم وأبى جعفر فى عهده :

أراد أبو مسلم أن يتولى أمر الحج عام ١٣٦ ﻫ ، فكتب الى السفاح يستأذنه فى ذلك فأذن له ، ولكنه أوعز الى أخيه ابى جعفر أن يطلب امارة الحج حتي لا يأخذها أبو مسلم ، ولما طلبها أبو جعفر أجابه اليها ، واعتذر لأبى مسلم ، وخرج الاثنان للحج فى عام واحد ، وأظهر أبو مسلم من الكرم وقوة الجاه وكثرة الأنصار فى أثناء الحج ماحرك مواطن الغيرة والحسد فى قلب أبى جعفر ، وجعله يتدبر الأمر ، ويتخذ العدة للفتك به ، والخلاص من خطر تألبه

اصلاحاته الداخلية وموته :

قام السفاح ببعض اصلاحات داخلية فى أنحاء دولته ، فأنه أمر بوضع منارة بين الكوفة ومكة لتهدى المسافرين فى تلك الفيافى الواسعة ، وأقام بعض الحصون فى الطريق لحماية الحجاج ، وأمر بمسح الارض وزرعها ونظم طرق الجباية ، وهو أول من استعان بالوزراء ، فأنه استوزر أبا سلمة الخلال ، ولما فتك به استوزر خالد بن برمك جد البرامكة ، الذين ظهر مجدهم فى عهد هارون الرشيد ، وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين خدموها خدمات جليلة الشأن فى بدء تأسيسها ، وهو من أبناء الفرس ، وأول من اعتنق الاسلام من أهل بيته ، وقد اشتهر بالحزم والكرم وسعة الحيلة وحسن التدبير

اختار السفاح للخلافة بعده أخاه أبا جعفر وجعله ولى عهد المسلمين فى سنة ١٣٦ ﻫ ، واختار بعد أبى جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن على ، وكتب العهد بذلك وصيره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ،

ودفعه الى عيسى بن موسى ، وقد ارتكب السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التى سبق بها فى عهد بنى أمية وهى تولية اثنين العهد ، « وكانت من أسباب ما أصاب بنى أمية من الخلاف والفرقة »

مرض السفاح بعد ذلك بالجدرى ، وتوفى بالأنبار فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ ، ٩ يونيه ٧٥٤ م ، وقد ترك ابنا يسمى محمد وبنتا تسمى ريطة وهى التى تزوجت بأبن عمها محمد المهدى

قد انتقد المؤرخون السفاح انتقادا شديدا ، لقسوته وغدره ونكرانه للجميل ، ووصفه المؤرخ الشهير « ويل » بقوله « لم يكن أبو العباس مستبدا متوحشا فحسب ، بل كان خائنا متعمدا ، وغادرا ناكرا جميل من أحسن اليه »

ولكن لعله وهو يعلم أنه يؤسس دولة جديدة كثيرة الاعداء والخارجين أسرف فى اخذ حذره ولم يبال أن يخيس بعهده اذا أوجس فى نفسه خيفة ممن أمنه



٢ – أبو جعفر المنصور

(١٣٦-١٥٨هـ) (٧٥٤-٧٧٥م)

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على، ولد بالحميمة سنة ١٠١ هـ، ولما انتقل أخوه إلى الكوفة انتقل معه، وكان عضده الأقوى وساعده الأشد فى تدبير الملك، ولقد كان أميرا على الحج عند موت أخيه، فأخذ له البيعة ابن أخيه عيسى بن موسى، وكتب اليه يخبره بوفاة السفاح والبيعة له. فأسرع بالعودة إلى مدينة الكوفة، وتسلم زمام الأمور وتلقب بالمنصور وقد اكتنفته المصاعب الداخلية والخارجية، ولكنه قابلها بالعزم والحزم، وتغلب عليها الواحدة بعد الأخرى بمهارة وكياسة خلدت اسمه بين كبار السواس والأمراء، ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، وهو أول خلفائها العظام، وإلى حسن سياسته وبعد نظره، ترجع القوة والشهرة التى نالتها أسرته فى الشرق والغرب، وذلك للأعمال الخالدة التى قام بها فى الدين والسياسة، وقد استطاع فى وقت قصير أن يخمد الثورات الداخلية، ويتخلص من منافسيه وخصومه الألداء. الواحد بعد الآخر، ثم التفت بعد ذلك إلى سياسة العمران والأنشاء فوطد دعائم الملك، ونظم أحوال الدولة المالية تنظيما اقتصاديا متينا

الثورات والفتن الداخلية فى عهده :

أولا : خروج عبد الله بن على :

غضب عبد الله بن على عم المنصور عندما علم بأمر البيعة للمنصور دونه، وكان يطمع فى الخلافة بعد السفاح لما قام به من الأعمال الخطيرة الشأن فى تأسيس الدولة العباسية، وكان المنصور يعلم هذا الميل عنده،

ولذلك استشار أبا مسلم فيما يجب أن يعمل فاخذ أبو مسلم هذه المسألة على عاتقه ، ولما أعلن عبد الله الثورة على الخليفة فى صفر سنة ١٣٧ هـ (نوفمبر سنة ٧٥٤ م) وكان واليا على سورية ، خرج اليه أبو مسلم فى جيش مدرب وزحف عليه حتى لحقه بمدينة نصيبين ، ويذكر السير وليم موير أن عبد الله لما علم بزحف أبى مسلم قتل الخراسانيين من جنده ، وكان عددهم نحو سبعة عشر الفا ، وذلك خوفا من تألبهم عليه إذا رأوا أبا مسلم ، وقد استطاع أبو مسلم أن يُخرج عبد الله من موقعه الحصين ويحتله ، وذلك أنه أظهر أنه يريد الزحف على الشام نخاف جند الشام على أسرهم وأموالهم ، وطلبوا إلى عبد الله أن يترك مكانه ويسير إلى الشام ، ولما فعل ارتد أبو مسلم واحتل الموقع الحصين كما تقدم ، ودار القتال بين الفريقين وكان سجالا ودام نحو خمسة أشهر كانت نهايتها أن انتصر أبو مسلم على خصمه واضطره إلى الفرار ، واستولى على معسكره وأمن الناس ، ولم يقتل أحدا ، وأمر بالكف عنهم

فر عبد الله هو واسرته إلى مدينة البصرة ، ونزل عند أخيه سليمان بن على وكان واليا عليها ، وظل مختفيا مدة حتى علم بخبره أبو جعفر المنصور فأرسل فى طلبه فأحضره اليه سليمان سنة ١٣٩ هـ ، فأمر بحبسه وقتل بعضا ممن كان معه ، ونفى بعضا إلى خراسان ، وظل عبد الله سجينا حتى مات فى سجنه سنة ١٤٧ هـ ، فكانت عاقبة هذا القائد عاقبة محزنة بعد أن خدم الدولة خدمات عظيمة كما مر بنا

ثانيا : سقوط أبى مسلم الخراسانى :

كان أبو مسلم من قواد الدولة العظام ، والى علو همته وحزمه يرجع الفضل فى القضاء على سلطان الامويين فى خراسان والعراق كما بينا سابقا ، وكان أبو جعفر يحقد عليه لعلو منزلته ، ويخشاه لخطر شأنه ، وكان يترقب

الفرصة للخلاص منه ، بعد أن استعان به فى الخلاص من المنافسين الآخرين ، وقد جاءت تلك الفرصة عقب موقعة نصيبين ، فان الخليفة أرسل رسولا من قبله يحصى الغنائم التى جمعها من معسكر عبد الله ، فغضب أبو مسلم غضبا شديدا ، وكاد يفتك بالرسول ، وصمم على الرحيل الى خراسان وهى حصنه المنيع ، وله فيها أتباع وأنصار أقوياء ، ولما علم المنصور بذلك بذل جهده ليثنى أبا مسلم عن عزمه ، وكتب اليه يعرض عليه ولاية الشام ومصر حتى يبعده عن خراسان، ولكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب الجديد وأخذ فى تنفيذ عزمه ، فعمد المنصور الى الدهاء وكتب اليه كتابا رقيقا ، وأرسله مع عيسى بن موسى ، وأوصاه أن يكلم أبا مسلم باللين ويجزل له الوعود ويرغبه ويمنيه بجميع وسائل الاغراء . فخضع أبو مسلم واطمأن لوعود الخليفة ، وحول وجهه عن خراسان وقصد المنصور وكان ينتظره بالمدائن ، وأعد له الخليفة استقبالا عظيما حتى يزيد فى طمأنينته ، ووصل أبو مسلم ، وقضى ليلة بالمدائن استراح فيها من متاعب السفر بعد أن قابل الخليفة ، وفى اليوم الثانى استدعاه المنصور ، وكان قد أعد له كمينا يخرج لقتله عند إشارة متفق عليها ، ثم أخذ يؤنبه على ما ارتكبه من المخالفات ، وصفق فخرج أربعة من الحراس من وراء الستار وهجموا عليه وقتلوه سنة ١٣٧ ﻫ ٧٥٥ م ، ولما بلغ منعاه جنده هاجوا واستلوا السيوف واعتزموا الأخذ بثأر واليهم ، ولكن المنصور استرضاهم بالمال ، واقنعهم بخيانة أبى مسلم وفساد طويته فانصرفوا راضين ، وبقتله أمن المنصور شر أقوى منافسيه ، وشعر لأول مرة أنه أصبح الحاكم الحقيقى لدولته ، وقبل أن نطوى صحيفة هذا القائد الكبير لابد لنا ان نقول كلمة قصيرة عن أخلاقه ومطامعه

كان أبو مسلم كبير النفس ابيا، طموحا الى المعالى، اتصف بصفات أكابر القواد، ولكنه كان سفاكا للدماء محبا للانتقام، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه قتل نحو ستمائة ألف نفس، وكان محبوبا بين قومه لسخائه وكرمه، متصفا بالحزم والكتمان، فقد جاء فى كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى ما نصه: «قيل لأبى مسلم صاحب الدولة: بأى شىء أدركت هذا الأمر؟ فقال: ارتديت بالكتمان، واتزرت بالحزم، وحالفت الصبر، وساعدت المقادير، فأدركت ظنى وحزت حد بغيتى.»

قامت ثورة فى الجزيرة وفارس فى سنة ١٣٨، إذ قام أهل فارس بقيادة سونبادة المجوسى للأخذ بالثأر لمقتل أبى مسلم، واستطاع الثوار أن يستولوا على البلاد مابين الرى ونيسابور، وقتلوا الرجال وسبوا النساء، وقام الخوارج بالثورة فى بلاد الجزيرة ولكن المنصور أرسل قواده لأخضاع الثورتين وتمكنت جنوده من القضاء على الثوار، وأعيد الأمن والسلام إلى نصابه

ثالثا: ثورة الراوندية سنة ١٤١ هـ

خرج المنصور حاجا فى سنة ١٤٠هـ، وبعد أن أدى فريضة الحج زار بيت المقدس، وسار من فلسطين إلى سورية ورجع منها إلى الجزيرة ولما عاد إلى مقر ملكه، هددته ثورة خطيرة، قام بها فريق الراوندية وهم جماعة من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك قائدهم، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل، وأتوا قصر المنصور فى الهاشمية، فجعلوا يقولون هذا قصر ربنا ويطوفون

به فارسل المنصور إلى رؤسائهم ، وقبض على مائتين منهم وسجنهم ، فغضب الباقى وهجموا على السجن وأخرجوا اصحابهم ، فخرج المنصور بنفسه لاخماد الثورة ، وكاد يقتل لولا أن أنقذه القائد العظيم معين بن زائدة الشيبانى ، وجاءت قوات الجيش وحملت على الثائرين وقتلتهم جميعا

رابعا : الثورة فى خراسان وطبرستان (١٤١ - ١٤٣ هـ)

سار عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدى والى خراسان سيرة رديئة اغضبت المنصور ، فأرسل اليه أحد قواده المشهورين وهو حازم بن خزيمة وأرسل معه ابنه المهدى وكان فى العشرين من عمره ، ولما اقتربا من البلاد هب أهلها وثاروا فى وجه حاكمهم وقبضوا عليه ، وأرسلوه إلى الخليفة هو واتباعه وابنه فأنتقم المنصور منه وقتله ، وعذب أتباعه ونفى ابنه إلى جزيرة فى البحر الاحمر

سارت الجيوش بعد ذلك إلى طبرستان ، وكان حاكمها قد ثار على حكم المسلمين ، ولكن القوات الأسلامية تغلبت عليه ، وفتكت بالثوار فتكا ذريعا

هدأت الأحوال بعد ذلك فى أنحاء الدولة ، وخرج المنصور حاجا على حسب عادته ، ولكنه فوجىء بخروج محمد وابراهيم ولدى عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب واليك البيان

خامسا : ثورة العلويين سنة ١٤٤هـ

عاش العلويون ، وهم أبناء الحسن وأولاد عمهم الحسين ، عيشة هادئة فى المدينة المنورة بعد مأساة كربلاء ، ولم يتدخلوا فى الأمور السياسية إلا

قليلا فى عهد الامويين ، واقتصروا فى أعمالهم على الأمور الدينية ، والقيام ببعض الأعمال التجارية ، ولما قام أهل الشيعة يدعون الناس الى الالتفاف حول أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشترك هؤلاء فى الدعوة ، بل تركوها تجرى مجراها الطبيعى ، وعاش معهم فى المدينة أبناء الخلفاء الراشدين وأبناء الزبير وباقى الصحابة رضوان الله عليهم ، وصاهروهم وامتزجوا بهم وأصبح لهم عصبية قوية ، وكان أهل المدينة يجّلونهم ، وينظرون اليهم نظرة عطف وأكبار ، فلما تأيدت الدعوة الشيعية ، واستأثر العباسيون بالخلافة دون بنى عمهم ، أدرك هؤلاء وأنصارهم ومن يلتفون حولهم أن العباسين خدعوهم ، فحفظوها لهم وأخذوا يترقبون الفرصة للخروج عليهم ، ولما تولى المنصور الخلافة رأى أنه لايتم له الأمر ولا يصفو له الجو إلا اذا تخلص من هؤلاء أيضا كما تخلص من منافسية الآخرين

اشتهر من العلويين فى عهده عبد الله بن الحسن وولداه محمد الملقب بالنفس الزكية وابراهيم ، واشتهر أيضا جعفر الصادق ، وهو من نسل الحسين ، وكان الامام فى نظر الفرقة الامامية ، ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا ، وكان يوصى أصحابه بالخلود الى السكينة منتظرا الفرصة المناسبة للخروج ، أما النفس الزكية فكان قد بويع بالخلافة من بنى هاشم فى أواخر عهد الأمويين ، وكان أبو جعفر من الذين بايعوه إذ ذاك ، ولما قامت الدولة العباسية قعد عن البيعة للسفاح مع أن بنى هاشم قد بايعوه جميعا ، وكان ابو جعفر هو الذى يأخذ البيعة لاخيه فى الحجاز

تخلف النفس الزكية هو وأخوه ابراهيم عن البيعة للمنصور ، وشعر الخليفة أنهما مصدر خطر عظيم يخشى منه ، وأخذ ينتحل المعاذير للفتك بهما ، وأمر بمراقبتهما وبث العيون والأرصاد للقبض عليهما أينما وجدا ، وأخذ عماله يطاردون أسرهما فسجنوا أباهما وعذبوا الباقى عذابا أليما ، فلم

يجد محمد بدا من الظهور بعد أن اتفق مع أخيه ابراهيم على الظهور والمطالبة بالخلافة

ظهر محمد بالمدينة فى سنة ١٤٥ هـ، ودعا لنفسه بالخلافة، فالتف حوله أنصار كثيرون وبايعوه. وأفتى أبو حنيفة ومالك بصحة البيعة، واستطاع محمد أن يقبض على حاكمها وزج به فى السجن، ووصلت الأخبار إلى أبي جعفر فكتب اليه يؤمنه ويرغبه، واسرع إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة العلويين، وأغلق أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد

تواترت الرسائل بين الفريقين، وكتب أبو جعفر الى محمد كتابا طويلا جاء فيه: «ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وأخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيك ألف الف درهم، وأن أنزلك من البلاد حيث شئت، وأقضى لك ما شئت من الحاجات، وأن أطلق من سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه، فأن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه الىّ من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام»

فكتب اليه النفس الزكية جوابا طويلا جاء فى آخره ما يلى «ولك عهد الله أن دخلت فى بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك، وكل ما أحببته إلا حدا من حدود الله، أو حقا لمسلم أو معاهد، فقد علمت مايلزمك فى ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك، وأحرى لقبول الأمان، فأما أمانك الذى عرضت علىّ فأى الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله ابن على، أم أمان أبي مسلم؟ والسلام»

دارت مكاتبات أخرى بينهما ، ولم تنته الى اتفاق ، فأرسل الخليفة جيشا عظيما على رأسه ابن اخيه عيسى بن موسى لقتاله وزحف على المدينة ، وكان محمد قد أساء اختيار موقعه الحربى ، ولما اقترب قائد المنصور من المدينة ذعر أهلها وتركوا محمدا الا نفرا قليلا منهم ، ودار القتال بين الفريقين وانتهى بقتل محمد بعد أن أظهر بسالة عظيمة فى القتال ، وكان ذلك فى ١٢ رمضان سنة ١٤٥ ه ودخل عيسى المدينة وانتقم من أهلها ، وأرسل رأس محمد الى أبى جعفر وقطع الهبات والصدقات التى كانت ترسل اليها ، وظلت موقوفة حتى أعادها المهدى بن المنصور فى أيام خلافته

لم يبق أمام أبى جعفر الا أخضاع ابراهيم وكان ابراهيم قد أظهر الدعوة لاخيه فى مدينة البصرة ، وجمع حوله عددا كبيرا من الانصار ، وعاضده علماء الدين ، وكان قد اتفق مع أخيه على رفع راية العصيان فى يوم واحد ، ولكنه تأخر عن ذلك بسبب مرضه وبذلك استطاع عيسى بن موسى أن يلحق به بعد أن فرغ من قتال محمد ، وكان قد استولى على دار الأمارة ، وهزم قوات الخليفة ، وأخذ ما فى بيت المال ، ووزعه بين أتباعه وجنده ، واستولى الثوار من أتباعه على فارس والاهواز وواسط ، ولما بلغ المنصور خبره خرج إلى الكوفة كما تقدم ، وأمر قائده بالأسراع بالزحف لملاقاة ابراهيم قبل أن يصل الى الكوفة ، والتقى الجيشان ، وهناك كما ورد فى ابن خلدون فى الصحيفة الخامسة من الجزء الرابع «على شواطىء دجله عند مكان يسمى باخمرى يبعد عن المدينة بستة عشر فرسخا ، حدثت معركة دموية بين الفريقين ، انتصر ابراهيم فى مبدئها ولكنها انتهت بخذلانه وقتله ، وتفرق أنصاره فى ذى القعدة من السنة عينها » . وأرسل عيسى رأس إبراهيم الى المنصور فكان فرحه بالانتصار عظيما جدا ، وثأر لنفسه من أهل المدينة والبصرة وقتل كثيرا من أهل المدينتين ووجوههما ، وسجن الامام

أبا حنيفة وجلده ثم شرد أتباع العلويين وقضى على معظمهم بالتقتيل والتعذيب .

تأسيس بغداد سنة ١٤٥ ﻫ (٧٥٠ م)

كان أبو جعفر قد اتخذ مدينة الهاشمية مقرا لخلافته ، ولكنه كان يرغب فى الابتعاد عن الكوفة ، ولذلك أخذ يبحث عن موضع جديد يتخذه عاصمة لدولته ، ولما انتهى الى موضع بغداد استقر رأيه على بناء المدينة ، ووضع حجر أساسها بيده وهو يقول « بسم الله والحمد لله وله الملك كله ويهب الملك لمن يشاء من عباده »

وموقع بغداد موقع جميل ، إذ تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة ، والمواصلات بينها وبين الخليج الفارسى سهلة ، وهى مكان وسط بين بلاد العرب والشام وأرمينية وبلاد المشرق ، وكانت تشرف على الكوفة ، وواسط والبصرة ، وقد بذل المنصور جهده فى تجميلها وجعلها عروس المدائن فبناها ، مستديرة الشكل ومد اليها الانهار والجداول ، فصارت تجرى فى الشوارع والدروب صيفا وشتاء ، ثم بنى فى وسطها قصره المسمى بقصر الخلد والجامع الكبير ويقال إنه انفق على بنائها نحو ثمانية عشر مليونا من الدنانير على قول بعض المؤرخين ، ونحو مائتى الف جنيه على قول آخر ، ولما تم بناؤها أحضر اليها المنصور العلماء من كل بلد ، وأمها الناس أفواجا وازداد عمرانها حتى صارت سيدة البلاد ، ومهد الحضارة الاسلامية . ويقول الخطيب البغدادى فى وصفها « لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها ، وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها وسعة اطرافها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها ، وشوارعها

ومحالها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ، وطرقها وخاناتها ، وطيب هوائها وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها .... الخ »

وفى سنة ١٥١ ﻫ بنى المنصور الرُّصافة على الضفة الشرقية لدجلة أمام بغداد لابنه المهدى ، ومد اليها الماء وغرس فيها البساتين وكان مثلها فى بغداد ، مثل الجزيرة فى القاهرة

الأحوال الخارجية فى عهد المنصور :

خرجت الدولة الأندلسية على الدولة العربية ، وانفصلت عنها ، وذلك ان عبد الرحمن بن معاويه بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، استطاع ان ينجو بحياته من مذابح عام ١٣٢ ﻫ وهرب إلى مصر ، ومنها إلى افريقية ، ووصل إلى المغرب الاقصى ، وبعد ان استمر ينتقل بين قبائل تلك البلاد لمدة ست سنوات ، دخل الأندلس سنة ١٣٨ ﻫ وانتصر على واليها إذ ذاك يوسف ابن عبد الرحمن الفهوى ، واقام الدولة الأموية الثانية فى الاندلس. وفى عام ١٤٦ ﻫ حاول المنصور اخضاع الاندلس ، فأرسل اليها جيشا بقيادة أبي العلاء مغيث ، ونزل الجيش بالاندلس ، واشتبك مع عبد الرحمن فى معركة بالقرب من اشبيلية ، ودارت الدائرة على الجيش العباسى فهزم ، وقتل قائده . ولما علم المنصور بذلك قال : أحمد الله الذى جعل بينى وبين صقر قريش هذه البحار الواسعة

وكانت أفريقية مصدر اضطراب دائم له ، إذ كان أهلها من عرب وبربر يميلون إلى تأييد العلويين ، فأرسل اليها المنصور أحد قواده المسمى

الأغلب التميمى واليا عليها فى سنة ١٤٨ ﻫ، واشتبك مع الثوار فى معارك كثيرة ثم قتله الخوارج فى سنة ١٥١ ﻫ، وخلفه عمر بن حفص، وظل واليا لمدة ثلاث سنوات، ثم قام الخوارج بفتنة أخرى، واستولوا على القيروان، وقتل عمر، فغضب المنصور وأرسل اليها جيشا قويا بأمرة يزيد المهلبى، فتغلب على الثائرين، وقتل زعماءهم، واستمر واليا على افريقية حتى مات. وخلفه داود المهلبى

قامت الثورات بعد ذلك فى أرمينية وهراة، ولكن الخليفة أوفد ابن خزيمة فقضى على الثوار وشتت شملهم، وقامت ثورة أخرى فى بلاد الموصل، وانتشرت فى فارس ووصلت إلى بلاد السند وناصرها الاكراد، ولكن قوات الخليفة تغلبت على الثوار، وأرسل المنصور خالدا البرمكى حاكما على الموصل، فأدار البلاد بحزم، وأسكن الفتن ونشر لواء السلام بين ربوعها وكان قد أرسل إليها قبل ذلك ابنه جعفرا واليا عليها، وأرسل معه حرب بن عبد الله نائبا له، وقد سكن جعفر فى قصر بديع لحرب، وفيه ولدت ابنته زبيدة زوج الرشيد فيما بعد

وفى سنة ١٥٨ﻫ أغار البيزنطيون على آسيا الصغرى، وخربوا قراها، فأرسل إليهم الخليفة من ردهم على أعقابهم. وفُرضت الجزية على الامبراطور البوزنطى، وكانت الجند والجيوش التى تتولى محاربة الروم تسمى الصائفة، لأنها كانت لا تخرج للقتال إلا فى الصيف، لشدة برد هذه الجهات وكثرة ثلوجها، واستحالة الزحف فى طرقها فى أثناء الشتاء.

ولاية العهد:

كان السفاح قد أوصى بولاية العهد الى عيسى بن موسى، بعد أخيه أبى جعفر المنصور كما تقدم، ولكن المنصور عمل على نقل ولاية العهد

الى ابنه المهدى ، وأدرك بغيته بعد سلسلة من الدسائس والمؤامرات ، وخلع عيسى من منصبه بالكوفة ، وتعين المهدى واليا للعهد فى سنة ١٤٧ هـ (٧٦٤ م)

الاصلاحات الداخلية فى عهد المنصور :

استطاع المنصور بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية والخارجية ، ان يوجه مجهوداته لتنظيم ملكه ، ووضع إدارته على افضل الاساليب ، ثم أخذ يصلح ماخربته الاغارات الاجنبية ، وقام بسياحة فى مملكته ليفحص الأمور بنفسه ، ويشرف على التعمير والتجديد ، فاعاد بناء مَلَطْيَة التى كان الروم قد دخلوها وهدموا أسوارها ، ثم جدد مدائن أخرى ووضع فيها الجنود والحاميات ، بعد أن قوى حصونها وقلاعها ، وأعاد تنظيم الحكم فى البلاد ، وعين كتابا للبريد ليخبروه بكل دقائق الحوادث وأقام طائفة من العيون والجواسيس ليخبروه بكل كبيرة وصغيرة من أمور الدولة ، وأعاد تحصين البصرة والكوفة ، وأمر بأحصاء السكان فى أنحاء الدولة ، ونظم جباية الضرائب ، وكان حريصا على الأموال العامة حرصا شديدا حتى اتهمه الناس بالشحّ والبخل

وفاة المنصور وأخلاقه :

استمر المنصور مجدا فى عمله يواصل ليله بنهاره لتوطيد دعائم ملكه حتى بلغت الدولة شأوا عظيما من المجد . وعند ما شعر بدنو أجله أرسل فى طلب ولى عهده ، وأوصاه وصية دلت على خبرة عملية وحنكة سياسية . ثم خرج للحج فى سنة ١٥٨ ولكنه مات فى الطريق قبل أن يصل الى

مكة في مكان يعرف ببئر ميمونة في ٦ ذي الحجة من السنة عينها (اكتوبر سنة ٧٧٥ بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما ، وترك خزينة عامرة ، وجيشا قويا ، ومملكة شاسعة الاطراف ، واسعة الاكناف

وقد وصفه المؤرخون بأنه كان شديد التمسك بديانته ، بعيدا عن الشبهات ، خلت حاشيته من مظاهر الانحطاط الخلقي ، وكان يعطي في موضع العطاء ، ويمنع في موضع المنع ولكن المنع كان أغلب عليه ، حتى سار المثل بشحه وسمي « أبا الدوانيق » لشدته في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ؛ ومن هذه الناحية كان يختلف عن معاوية ابن أبي سفيان فقد كان معاوية من أكرم الناس ، وأشدهم تسخيرا للأموال العامة والخاصة في الاغراض السياسية ، أما هو فقد كان من أحرص الناس على الأموال العامة والخاصة ، «وقد يؤثر التضحية بالدماء والكفايات في سبيل اغراضه السياسية على التضحية بالأموال» . ولقد كان مكيافليا في سياسته إذ كانت الغاية عنده تبرر الوسيلة مهما كان في ذلك نقض للوعود أو نكث للعهود ، وفوق ذلك كان مقداما حازما ، لا يتردد في التنفيذ ، ولا يتهيب الوسائل . وفي عهده تأثر العرب بعادات الفرس وعلومهم وفلسفتهم . واعتنق الاسلام كثير من المجوس ، وبدأ يتحول النفوذ من ايدي العرب إلى الفرس ، وأخذ فقهاء الدين يدونون الأحاديث ويجمعونها ، وألفوا الكتب في التاريخ والدين ، وبدأ الناس يُعنون بأدب اللغة والتاريخ والطب والفلك ، وبذلك وضع المنصور الأساس لاقامة الحياة العلمية والعمرانية التي أزهرت فيما أتى من عصور

الباب الثالث

عصر المهدى والهادى

١ — محمد المهـــدى

(١٥٨ — ١٦٩ ﻫ) (٧٧٥ — ٧٨٥ م)

هو أبو عبد الله محمد المهدى بن المنصور، وامه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى بأم موسى، ولد سنة ١٢٦ ﻫ بالحميمة، وقد عنى أبوه بتربيته عناية كبرى، واختلف عن أبيه اختلافا كبيرا فى الاخلاق، إذ كان كريما متسامحا، ولكنه كان حازما مع أعدائه ومنافسيه والخارجين عليه وقد تولى العرش بعد أن استتب الأمر للعباسيين بفضل سياسة أبيه، فبذل جهده فى تهدئة الخواطر الثائرة بسبب قسوة المنصور وشدته، فعفا عن المسجونين لجرائم تافهة، وأبدل السجن بعقوبة الاعدام لبعض المسجونين السياسيين، وأفرج عن الحسن بن ابراهيم وأجرى عليه راتبا، وأعاد الى الاماكن المقدسة امتيازاتها، وأمر بصرف ما كان لأهلها من الارزاق التى كانت تعطى لهم من ايردات القطر المصرى، وأرجع الى العلويين ممتلكاتهم التى كان أبوه قد صادرها، وكان المنصور قد جرى على عادة فرض غرامات على المخطئين والمرفوتين من الموظفين وعمال الادارة، وحفظها حاملة اسماء أربابها فى خزانة أطلق عليها اسم بيت المال للمظلومين فلما جاء المهدى فتح هذه الخزائن ووزع أموالها على أربابها وعلى ورثة من مات منهم، وروى المؤرخون أنه مر ببيت خرب لأبى سلمة وهو خارج

فى حملة عسكرية ضد الروم ، فوقف عنده، وأحضر أولاده وأتباعه ، ووزع بينهم عشرين الف دينار اعترافا منه بفضل ابيهم ، ومكافأة لهم نظير ما كان لوالدهم من مساعدة لافراد اسرته عند بدء قيامها بالحكم ، وفى سنة ١٦٠ ﻫ خرج حاجا الى بيت الله الحرام فصرف على الفقراء والمعوزين من أهل مكة ثلاثين مليونا من الدراهم ومائة وخمسين الف ثوب ، وأعاد بناء الحرم الشريف ، ووسع المدارس والمساجد الأخرى فى مكة والمدينة وباقى مدن الحجاز ، وأقام منازل للاستراحة بين بغداد ومكة ، وكان هناك منزل واحد فى أيام السفاح بين القادسية ومكة وهى مسافة تقرب من ثلثمائة ميل ، ووضع حول هذه المنازل الحراس والحاميات لحراسة الحج وحمايته ، وحفر الآبار ، وأقام الزوايا بجانبها . وقد اتخذ له حرسا من الانصار من أهل المدينة بلغ عدده نحو الخمسمائة ، وكانت سنة جميلة تلك التى سنها المهدى ، لو جرى عليها خلفاؤه فاتخذوا حراسهم من العرب ، ولم يستبدلوا بهم الاتراك والديلم ، ما تضعضع حكم العباسيين ، وما استطاع هؤلاء الدخلاء الاستئثار بالسلطة والنفوذ فى دار الخلافة كما فعلوا بعد ذلك

الفتن والثورات فى عهده :

أولا : حاول أحد أبناء مروان الثانى الخروج على العباسيين وثار فى سورية ، ولكن المهدى قمع الفتنة وتغلب على الثائر وقبض عليه وأودعه السجن ، ولكنه أخرجه بعد قليل وأجرى عليه الارزاق ، وعامل زوج مروان الثانى معاملة رقيقة ، وأسكنها قصره مع زوجه حيث عاشت عيشة اعزاز واكرام

ثانيا : ثار فى خراسان بين سنتى ١٥٨ و ١٦٠ ﻫ هاشم بن حكيم ، وهو

المعروف بالمقنع لأنه كان يخفى قبح وجهه ودمامة خلقته بقناع من ذهب وكان يعتقد أن روح الله ظهرت فى آدم ثم فى نوح ثم فى أبى مسلم ثم انتقلت اليه، وأن الدين اعتقاد لا أعمال، وكانت تعاليمه ثورية، وشاع ذكره وتبعه خلق كثير من بخارى وسمرقند واتراك بحر قزوين، ولما امتد نفوذه واشتهر أمره أرسل اليه الخليفة معاذ بن مسلم أحد قواده، وأرسل بعده سعيد الحرشى فطارده وضيق عليه الخناق وحاصره فى قلعة كشى، فلم ير المقنع بدا من التسليم، وفضل أن يسم نفسه وأهل بيته ومن كان معه فماتوا، وكان قد اتخذ له ولأتباعه اللباس الابيض شعارا فعرفوا بالمبيضة

ثالثا : ثورة « الزنادقة »

ظهرت فرقة أخرى من الفرق الدينية فى ولاية جرجان، وهى ولاية تقع شرقى بحر قزوين، عرفت بالمحمرة لاتخاذها اللباس الأحمر شعارا لها، ونشرت تعاليمها بين الناس فى خراسان وفى المقاطعات الغربية لبلاد فارس وتسربت إلى بلاد العراق، وكانت هذه التعاليم مزيجا من تعاليم مزدك ومانى من أصحاب المذاهب الدينية التى ظهرت فى فارس وانتشرت بها قبل الاسلام، فقد ظهر مزدك وهو من أهل نيسابور سنة ٤٨٧م، ودعا الى مذهب ثنوى جديد فكان يقول بالنور والظلمة كما قال غيره من أنبياء الفرس، ولكنه امتاز بآرائه الشيوعية، اذا كان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء، وأهم ماتجب فيه المساواة المال والنساء، قال الشهرستانى « وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال فقد أحل النساء وأباح الاموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنور والكلأ » وقال الطبرى « قال مزدك وأصحابه إن الله انما جعل الارزاق فى الأرض

ليقسمها العباد بينهم بالتآسى ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الاغنيا ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وان من عنده فضل من الاموال والنساء والامتعة فليس هو أولى به من غيره ، فافترص السفلة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فأبتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله » وقد طارد كسرى أنو شروان مزدك وأتباعه مطاردة عنيفة ، ولكنه لم يستطع القضاء على انصار هذا المذهب قضاء مبرما

أما مانى فقد ظهر فى أوائل القرن الثالث الميلادى وخلاصة مذهبه كما ورد فى كتاب فجر الاسلام صحيفة ١٢٥ « أن العالم كما قال زرادشت نشأ عن أصلين : وهما النور والظلمة ، وعن النور نشأ الخير ، وما يصدر عن الانسان من خير فمصدره إله الخير ، وما يصدر من شر فمصدره إله الشر ، فان هو نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور ، ومتى نظر نظرة قسوة فتلك النظرة من الشر والظلمة ، وكذلك جميع الحواس ـ وقد امتزج الخير والشر فى هذا العالم امتزاجا تاما ، وقد أطال هو وأصحابه فى كيفية هذا الامتزاج بما يشبه الخرافات »

أطلق المسلمون على المحمرة اسم الزنادقة . وللمؤرخين تعليلات كثيرة فى أصل هذه التسمية فمنهم من قال إنها تطلق على أصحاب مانى ، ومنهم من قال إنها اسم لمذهب خاص كاليهودية والنصرانية «ويقول بعضهم إن زنديق فى الأصل معناها بالفارسية الذى يتبع زند ثم أطلق على المانوية ، لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل » ، ونهض المهدى يقاوم مروجى هذه التعاليم إذ انتشرت

الرزيلة بسببها ، وانغمس الناس فى حمأتها ، وتفككت روابط الاسرة ، وسقطت هيبة الحكومة ، وتقوضت أسس الحياة الاجتماعية والعقائد الدينية ، واختطفت الاولاد والنساء ، وقسا الخليفة على هؤلاء الفوضويين وطاردهم من غير رحمة ولا هوادة ، وعدهم أعداء الدين وَالفضيلة والنظام العام

احوال الدولة الخارجية فى عهده :

أولا : اغار البوزنطيون على حدود الدولة فى سنة ١٦٣ ﻫ ، واستولوا على مرعش وأحرقوها ، واعملوا السيف فى رقاب أهلها ، فأرسل اليهم المهدى قائده القدير الحسن بن قحطبة ، ولكنهم تراجعوا قبل أن يلحق بهم واكتفى الحسن بتهديم بعض معاقلهم ومدنهم ، وبعد قليل عادوا الى أغاراتهم فسار اليهم المهدى بنفسه فى جيش بلغ عدده مائة وخمسين ألفا ، وترك ابنه موسى فى بغداد يقوم باعباء الحكم فيها ، واخترق بلاد الموصل واتخذ مدينة حلب مركز أعماله الحربية ، وأرسل ابنه هرون ومعه قواد آخرون مثل الحسن بن قحطبة وعيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح ويحي بن خالد البرمكى لمقاتلة الروم ، وقد انتصر هرون ودخل سمالا ، وطلب الاعداء الصلح على أن يدفعوا غرامة حربية فى نظير اخلاء بلادهم وإطلاق سراح أسراهم ، وقبل هرون الصلح ، وعاد إلى حلب ، وتوجه المهدى بعد ذلك لزيارة بيت المقدس ، وأقام هرون واليا على الغرب ، بما فيه أرمينيا وأزربيجان يعاونه ثابت بن موسى ويحي بن خالد

نقض الروم شروط الصلح ورجعوا الى الاعتداء على أملاك المسلمين فزحف هرون لملاقاتهم فى سنة ١٦٥ ﻫ ، وظهر عليهم وذبح منهم خلقا

كثيرين ، وسار بجيشه نحو القسطنطينية ، ولما رأت الملكة إريني ارملة ليو الرابع وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع أن الخطر يهدد ملكها طلبت إلى هرون ايقاف القتال ، وتعهدت بدفع جزية سنوية وبتموين الجيش الاسلامى عند تراجعه ، فقبل منها الشروط وتهادنا لمدة ثلاث سنوات

ثانيا : حاول المهدى بين سنتى ١٦١هـ و١٦٣هـ استرجاع الاندلس الى حظيرة الدولة الاسلامية ، ولكن المحاولة لم تنجح وانتهت بالفشل ، وكان قد أرسل حملة عسكرية قبل ذلك بسنة واحدة الى الهند بقيادة عبد الملك ابن شهاب المسمعى عن طريق البحر ، ووصلت الحملة وهاجمت مدينة باربد وأحرقت تمثالا لبوذا ومعه عدد من اتباع مذهبه ، ولكن المرض انتشر بين أعضائها فرجعت الحملة ، وعند ساحل الفرس حطمت الريح سفن الاسطول

وزراء المهدى :

اعتمد المهدى كثيرا على وزرائه ، ولذلك أخذت الوزارة فى عهده شكلا واضحا ، وأصبح للوزير شأن كبير فى ادارة الشئون وتصريف الامور فى الدولة ، وقد اشتهر من وزرائه أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، وكان وزيرا قديرا بارعا فى المسائل المالية ، نظم جباية الأموال ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وصنف كتابا فى الخراج ، ولكن المهدى غضب عليه لأمور نسبت لابنه ، وعزله فى سنة ١٦١ هـ ، واستوزر بعده أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى سليم ، وكان عالى الهمة ، دبر أمور الملك تدبيرا محكما ، واستأثر بالسلطان والنفوذ فى طول البلاد وعرضها ، ولكنه كان يميل الى الزيدية من العلويين ، وأتى بهم من انحاء الدولة وولاهم

المناصب فى الشرق والغرب، فأوقع به حساده ومنافسوه عند الخليفة واستعانوا بالشعراء لنيل بغيتهم، ومن هؤلاء الشعراء بشار بن برد إذ قال

بنى أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناى والعود

غضب الخليفة على يعقوب بعد أن فعلت الدسائس فعلها، وعزله وسجنه فى المطبق، وهو باستيل العباسيين، وظل به حتى افرج عنه فى خلافة الرشيد، واتخذ المهدى بعده الفيض بن ابى صالح وزيرا له واستمر فى منصبه حتى مات الخليفة

وفاة المهدى واخلاقه:

جاء فى كتاب الخضرى بك صحيفة ١٠٦ ما يأتى: «كان المهدى لا يشرب النبيذ وان كان سماره يشربون فى مجلسه، وكان يسمع الغناء، وكان من خلقه الحياء والعفو، وكان يتأثر بالقرآن، وكان ميالا للسنة وكان شديد الغيرة على النساء.» وجاء فى كتاب عصر المأمون نقلا عن السير موير: «ان المهدى كان فى ادارته لشئون رعيته كمن يعمل بوجه عام على رفاهية الامة واسعادها، وكان معينا ومعجلا للعصر الذهبي الذى تلا أيامه.»

خلع المهدى عيسى بن موسى من ولاية العهد، وعين ابنه موسى الهادى وليا لعهده وجعل بعده ابنه هرون وفى سنة ١٦٩ هـ خرج الى جرجان وفى طريقه مات فى ٢٢ المحرم فى ماسبذان، وصلى عليه ابنه هرون لانه كان فى صحبته، وكان المهدى فى الثالثة والاربعين من عمره عند وفاته

٢ — موسى الهادى

(١٦٩ — ١٧٠ هـ) (٧٨٥ — ٧٨٦ م)

كان الهادى فى ولاية جرجان عند ما توفى أبوه فأخذ له اخوه هارون البيعة على الجند، وارسل اليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة وكتب اليه يعزيه ويهنئه، وتولى عرش الخلافة وكان فى الرابعة والعشرين من عمره، وكانت مدة خلافته قصيرة، واشتهر بصلابة الرأى والشجاعة والكرم والميل الى الادب وتشجيع الشعراء وكان شديد البطش جرىء القلب «مجتمع الحس ذا اقدام وعزم وحزم»

الاحوال الداخلية فى عهده :

أولا : كانت الخيزران أمه تقابل وجوه الدولة ، وتتدخل فى إدارة الشئون فى أيام زوجها المهدى، وقوى نفوذها لدرجة كبيرة، فلما تولى الهادى الحكم أرادت الاستمرار فى طريقها ، وظنت الفرصة سانحة للأستئثار بجميع السلطة ، ولكن الخليفة أوقفها عند حدها وحرم عليها مقابلة الرجال وأمر قواده ورؤساء الدولة الا يحضروا مجلسها أو يدخلوا عليها ، وهدد من يخالف أمره بالأعدام ولذلك كرهته والدته وأخذت تدس الدسائس حوله ، ووجدت الاحزاب فى الدولة ، حزب يؤيد الخليفة ويناصره فى أغراضه السياسية ، وآخر يؤيد الملكة الأرملة ، واتسع الخرق بين الاثنين وظل كذلك حتى مات الهادى

ثانيا : حاول الهادى أن يجعل الخلافة لابنه جعفر من بعده متخطيا أخاه هرون مع أن هرون برهن على عظيم ولائه له اذ أخذ البيعة له على الجند الموالين له شخصيا عند وفاة أبيهما كما تقدم ، وكان هرون يميل الى اجابة رغبة الخليفة ، ولكن صديقه يحيى بن خالد نصح له بالخروج عن مقر

الخلافة ، وأخذ يسعى لدى الهادى مبينا له خطأ التغيير ، ولكن الخليفة مضى فى سياسته وأخذ البيعة لابنه ضاربا برأى يحيى عرض الحائط وسجنه وظل الرشيد بعيدا عن مقر الملك حتى مرض أخوه ومات

ثالثا : ثار الخوارج فى الجزيرة ، وثار العلويون فى مكة والمدينة ، ونهض الهادى متتبعا سياسة أبيه ، ونكل بالخوارج والزنادقة تنكيلا شديدا ، أما العلويون فقد خرج منهم بالمدينة الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ ه ، ويرجع سبب ذلك على ما رواه المؤرخون الى القسوة التى عامل بها والى المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة من أصدقائه متهما أياهم بشرب الخمر . اذ قبض عليهم الوالى وشهر بهم بين أهل المدينة ، وتوسط الحسين فى الامر ولكنه غضب من تصرفات عمر ، وعزم على الخروج ، وشجعه وجود بعض أهل الشيعة العلوية من الكوفة وكانوا قد أتوا للحج ، واقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج احد عشر يوما ثم تركها قاصدا مكة وفى طريقه اليها قابله جماعة من العباسيين من بينهم محمد بن سليمان بن على والعباس بن محمد وموسى بن عيسى وكان الهادى قد سمع بخبر الثورة فأمر محمد بن سليمان بمقابلة الحسين وقتاله . تقابل الطرفان ودارت رحى المعركة عند مكان يعرف بالفخ وانتهت بقتل الحسين ومن معه ، وكان من نتائج تلك الثورة أن فر يحيى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على الى بلاد الديلم وثار بها ، وظلت الثورة قائمة حتى أخمدها الرشيد فى أثناء حكمه سنة ١٧٥ ه وفر أخوه إدريس ابن عبد الله الى بلاد المغرب واستطاع أن يؤسس فى تلك البلاد دولة الادارسة التى كان لها شأن كبير فى تاريخ العرب فى الاندلس

موت الهادى واخلاقه

توفى الهادى بعيسا باذ فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ ، وقد اختلف المؤرخون فى سبب موته ومنهم من ينسب موته الى سم دسته له امه فى طعام أرسل اليه ، وورد فى وصف أخلاقه « أنه ورث عن أبيه كرمه وغيرته وحبه للأدب ، وورث عن جده المنصور حزمه وشيئا من ميله الى الغدر » وفى عصره اشتد نفوذ الفرس وانتشرت فى البلاد كثير من عاداتهم ظهر أثرها جليا فى عصر الرشيد

الباب الرابع

عصر الرشيد والأمين

١ — هرون الرشيد

(١٧٠ — ١٩٣هـ) (٧٨٦ — ٨٠٩م)

ولد الرشيد فى سنة ١٤٥ هـ بمدينة الرى . وولد قبله بسبعة أيام الفضل ابن يحيى البرمكى ، وتبادلا الرضاع من اميهما ، فكانا اخوين فى الرضاعة ، ولما مات الهادى تولى الرشيد العرش واسرع بالعودة الى بغداد ودخلها ، ووجد أن الأمر هيىء له ، وذلك أن خازم بن خزيمة أحد القواد سار فى عدد من الجند الى بيت جعفر بن الهادى وحاصره وهدد الامير بالقتل إن لم ينزل عن الخلافة لعمه ، واجتمع القوم حول البيت فأطل عليهم جعفر وقال « من كان لى بيعة فى عنقه فقد أحللته منها » وبذلك تم الأمر للرشيد وأصبح الخليفة لاينازعه فى أمر الخلافة منازع . ويعتبر المؤرخون عصره أزهى عصور حكم المسلمين فى آسيا ، ويعدونه من أشهر ولاة التاريخ ، اذ بلغت الخلافة الاسلامية فى عهده قمة المجد وذروة الفخامة ، ولقد كان ورعا متدينا محسنا محبا للفقراء ، وكان عسكريا مدربا شجاعا ، كثيرا ما قاد الجيوش بنفسه ، وكثيرا مااخترق مملكته الشاسعة لرد المظالم ومعاقبة المجرمين ودفع الاغارات عنها ، وكان حاكما مدبرا حازما عالما بدقائق الأمور ، وقد عم الأمن البلاد بفضل سهره وعنايته بمصالح الرعية ، وأن الجوامع والمدارس والكليات الكثيرة العدد ، والطرق والجسور والمستشفيات والملاجىء

ودور العجزة التى أسسها لخير دليل على مابلغته الدولة من العظمة وعلو الشان فى عصره الخالد الذكر، هذا وقد امتاز عصره برواج سوق الأدب وكثرة الشعراء والمفكرين، وعم الرخاء البلاد، وأصبح اسم الرشيد مضرب الأمثال بين الغربيين وعنوان الأبهة والفخامة بين الكتاب والمؤرخين، وكانت بغداد فى عصره نادرة الدنيا، فريدة فى حضارتها وعمارتها

الاحوال الداخلية فى عهده:

أولا: نقل مقر الخلافة من بغداد الى مدينة الرقة واتخذها مسكنا له حتى يشرف على سوريا، ويكون قريبا من حدود الدولة البوزنطية التى كانت تهدد أملاك المسلمين فى آسيا الصغرى من آونة الى أخرى، واتخذ يحيى البرمكى كبيراً لوزرائه، وعين أولاده حكاماً وولاة على مختلف أقاليم الدولة

ثانيا: جدد العلويون نشاطهم، وأصبح يحيى الذى فر الى بلاد الدّيلم فى عصر الهادى مصدر خطر كبير على الخلافة العباسية، اذا استطاع أن يوسع حدود إمارته حتى وصلت إلى بحر قزوين، واشتهر بلاطه شهرة طبقت الافاق، وهرع اليه العلماء من الشرق والغرب، فحقد الرشيد عليه وندب الفضل بين يحيى البرمكى لمقابلته وكان الفضل واليا على فارس وجرجان، ونجح الفضل فى استمالة يحيى العلوى بعد أن فاوضه فى أمر الصلح والتسليم الى الخليفة، وقبل العلوىّ طلب الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه، وكتب الخليفة الأمان، وأشهد عليه القضاة والفقهاء ورؤس بنى هاشم، وأرسله إليه ومعه الهدايا، فقدم يحيى على الرشيد واستقبله استقبالا شائقا وأكرم وفادته، ولكنه مالبث أن غضب عليه وتحركت عوامل الغيرة فى قلبه، فنقض عهده بعد أن حصل على فتوى

بنقضه من فريق من العلماء وسجن يحيى . أما إدريس فقد استطاع ان يصل إلى بلاد الغرب بمساعدة واضح عامل البريد على مصر ، ونزل بمدينة وليلى سنة ١٧٢ هـ ونشر دعوته وبايعه الناس بالأمارة ، والتف حوله الجند وعزم على غزو افريقية وانتزاعها من العباسيين ، ولما بلغ الرشيد خبره أرسل اليه سليمان بن جرير المعروف بالشماخ وطلب اليه أن يحتال على قتله ، فأدّعى الرجل الطب وانتهز مرض إدريس وسمه ، ولما مات بايع أنصاره ابناً له يسمى إدريس الثانى ، واستمرت دولة الادارسة قائمة ببلاد المغرب ولم يستطع الرشيد ارجاعها الى حظيرة الخلافة الأسلامية ، ولذلك اشتد غضبه على العلويين وأخذ يراقبهم مراقبة دقيقة

ثالثا : قامت الخوارج بفتن عديدة فى عصر الرشيد فى انحاء الدولة ، واشتهر منهم الوليد بن طريف الشيبانى وكان مقداما شجاعا ، واستطاع أن يستولى على نصيبين فى سنة ١٧٨ هـ وقتل حاكمها ، ولما اشتد ساعده وكبر شأنه اهتم الرشيد بأمر ثورته وأرسل اليه قائدا كبيرا وهو يزيد بن مزيد الشيبانى فتغلب عليه وقتله بمكان قريب من مدينة الانبار فى سنة ١٧٩ هـ ، ولما قتل تولت اخته ليلى قيادة أنصاره ، ويطلق عليها سيد أمير على « جان دارك المسلمين » لأنها أثارت حماسا عظيما بين الثوار ، وحاربت جند الرشيد حربا عوانا ، وظلت تقاتل حتى أغراها قائد الخليفة بترك القتال فتركته ، وكانت مشهورة بالجمال وكانت تقول الشعر ، ورثت أخاها بشعر رقيق بعد موته نذكر منه ما يلى :

فيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لايحبّ الزاد الا من التقى ... ولا المال الا من قنا وسيوف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى ... فان مات لايرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا ... فديناك من فتياننا بالوف

رابعا : الأحوال فى المشرق :

عين الرشيد علىّ بن عيسى بن ماهان واليا على خراسان ، وكان واليا ظالما ظلم الناس وجمع ثروة طائلة واستفحل أمره فى البلاد وأصبح ذا نفوذ يشبه نفوذ أبى مسلم ، فكتب أهل خراسان إلى الخليفة يتظلمون من قسوة واليه ، ويرفعون شكايتهم ، ورأى الرشيد أن الأمر يتطلب تحقيقا ، فخرج من الرّقة قاصدا مدينة الرى واستصحب معه ابنه المأمون ومكث فى المدينة أربعة شهور ، وبعث فى طلب علىّ بن عيسى فجاءه مثقلا بالأموال والهدايا والطرف وأهدى كل من كان مع الرشيد ، وكسب الخليفة ونفى عن نفسه ما وجه إليه من التهم ، وعاد إلى مقر حكمه فى مرو وأخذ ينتقم من وجوه خراسان ومن ظن فيهم أنهم مصدر الشكوى ، وفى تلك الأثناء ثار رافع بن ليث بن نصر بن سيار وعظم شأنه فى سمرقند ، وأرسل على بن عيسى لقتاله فتغلب عليه وقتله ، وكان قد قتل والى سمرقند قبل ذلك ، فرأى على بن عيسى أن يأخذ الأمر على عاتقه وتأهب لقتاله وأسرع بالرجوع من بلخ إلى مرو مخافة أن يسير اليها رافع فيستولى عليها ، وكان ابن على بن عيسى قد ترك ثروة طائلة بلغ أمرها الرشيد ، فغضب وتأكد من خيانة واليه على خراسان وظلمه للرعية وعزم على خلعه ، واختار أحد قواده وهو هرثمة بن أعين وعهد اليه بالقبض على الوالى وعينه واليا مكانه ، واستطاع هرثمة أن يقبض على علىّ بن عيسى وعلى أبنائه وأهل بيته ، وصادر أملاكه وأمواله وأرسله الى بغداد فى الأغلال وحمل ثروته على ١٥٠٠ بعير وارسلها الى الخليفة ، وفرح أهل خراسان فرحا عظيما ودعوا للخليفة بالنصر وحسن الجزاء لتخلصهم من شر علىّ ، أما رافع فقد ظل ثائرا حتى انقضى عصر الرشيد ثم خضع للدولة فى عصر المأمون

خامسا : الرشيد و البرامكة :

البرامكة أسرة فارسية كان مؤسسها ـ و يسمى برمك ـ من مجوس بلخ و كان يخدم هو و أولاده معبدا مجوسيا فيها وذلك فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، ولما دخل الأسلام بلاد فارس وانتشر بها أسلم بنو برمك ، وكان اكبرهم سنا يسمى خالدا ، ولما ظهرت الدعوة العباسية فى خراسان كان خالد هذا من اكبر أنصارها ودعاتها ، ولما استقر الأمر للسفاح استوزره بعد قتل أبى سلمة الخلال ، وظل وزيرا حتي مات السفاح وتولى المنصور فعينه واليا على فارس ثم الموصل ، فكان واليا قديرا حسن السيرة والتدبير ، ومات فى خلافة المهدى وكان قد أنجب يحي وربّاه خير تربية فاختاره المهدى ليكون مربيا ومؤدبا لابنه هرون فاحسن القيام بذلك ، وأخلص لأميره إخلاصا كاملا ، وظل بجانبه فى أيام الهادى يؤيده فى أمر ولاية العهد وكاد الهادى يفتك به لولا أن عاجلته المنية ، وتولى الرشيد مكانه فولاه الوزارة ، وفوض اليه تفويضا صريحا فى تصريف شئون الدولة قائلا له : « قد قلدتك أمر الرعية ، واخرجته من عنقى اليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » ، ولم يلبث أن دفع اليه خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان وأصبح بهما وبما عرف عنه من كرم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة كعبة القصاد ومنتجع الرواد ، وكان ليحي خمسة أنجال وهم الفضل وجعفر وموسى وخالد ومحمد ، وكان لهؤلاء اولاد وكانوا كلهم رؤساء بالدولة العباسية فى أثناء حكم الرشيد ، وكانوا يجمعون من الصفات المحمودة والخصال الممدوحة ما استحق ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد

وكان أكبر أفراد هذه الاسرة شأنا يحي وشأنه مع الرشيد قد مر بنا ذكره ثم ولداه الفضل وجعفر، فاما الفضل فقد كان توأم الرشيد رضاعا، شبّا معا كالأخويين، ولم يزالا كذلك الى أن ولد الامين للرشيد فألقى به فى حجر الفضل ليعنى بأمر تربيته، ولما خرجت خراسان على الرشيد أرسل الفضل واليا عليها وعلى ثغورها فأصلح حالها، وهدأ ثورتها، ونجح نجاحا باهرا فى غزواته فيما وراء نهر جيحون ولما عاد منها فى سنة ١٧٩ﻫ احسن الرشيد استقباله فى جمع من بنى هاشم وعلية القوم، وابقاه فى بغداد يساعد أباه فى ادارة الشئون ولقب بالوزير الصغير. وأما جعفر فقد كان سمح الاخلاق كثير العطاء، لا نظير له فى الفصاحة و البيان، وكان الرشيد أميل اليه من أخيه الفضل، أرسله إلى اخضاع فتنة قامت بين القبائل العربية بالشام، فأخضع الثوار، وأصلح الأمور، وعاد الى بغداد فاستقبله الخليفة استقبالا عظيما، وولاه مصر ه لكنه أبقاه بجانبه، وعهد بتربية المأمون اليه، ثم حدث أن تنازل يحي عن منصب الوزارة لابنه الفضل ولكن الرشيد طلب إلى يحي أن يطلب من الفضل التنازل عنها لأخيه جعفر، فكتب يحي إلى الفضل يقول: « قد أمر أمير المؤمنين، أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل: « قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى، وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه، ولاغربت عنى رتبة طلعت عليه »، تولى جعفر الوزارة وأخذ يعمل إلى خير الدولة وسعادتها « وضبط الأموال ورتب ديوان الأعمال والجبايات، واقتصد من النفقات فضلا يحتاط به، وأقام على السجلات مهرة الحسّاب لدقة المقارنة بين خرج الدولة ودخلها، وجعل لهذا الديوان شعوبا عدة تتشعب منه وترجع اليه، وأمر بحفظ الدفاتر القديمة للمراجعة. ثم نظر إلى ضبط المعاملات بين بعض الناس وبعض، فأقام جماعة يعرفون برجال العدالة فى

كل الجهات لمراقبة حركات البيع و الشراء ، ونظر الى بغداد ونظم شرطتها ، وأقام العسس بجميع دروبها ، وبث فيها العيون والارصاد لمراقبة حركة الاغراب فيها » الى غير ذلك من الاعمال التي ضاعفت ثقة الرشيد به حتى أنابه عنه فى القضاء برد المظالم الأمر الذى لا يباشره إلا الخلفاء ، وبذلك عظم شأن جعفر حتى أصبح يلقب بالملك ولا يفرق بينه وبين الخليفة فى نفوذه ، وارتفعت مكانة الاسرة ارتفاعا عظيما نتيجة لمكانة أفرادها ، وأثرت ثراء كبيرا ، وأصبح سلطانها لاحد له ، ولقد اشتهرت بالسخاء والكرم وبذل الأموال للسائلين ، فأحبها الناس حبا جما والتف الشعب حولها التفافا لم يسبق له نظير ، فأثاروا بذلك حسد الكثيرين من أمراء العرب خصوصا آل الربيع وآل مزيد الشيبانى ، فتضافروا حتي أوقعوا بينهم وبين الرشيد ففتك بهم فتكا ذريعا وصادر ممتلكاتهم ، واليك ما أورد بعض المؤرخين فى وصف النكبة وأسبابها

سقوط البرامكة :

حج الرشيد عام ١٨٦ هـ وانصرف إلى الحيرة ، وكانت عادته كل سنة يحج فيها أن يقيم فى ضيافة جعفر أياما ببيت له فى الحيرة ، فلم ينزل كعادته فى هذه السنة ، وسار إلى الأنبار فوصلها ليلة السبت آخر المحرم سنة ١٨٧ واعتذر لجعفر عن عدم منادمته تلك الليلة ، وقال إنه يريد الراحة فى بيته ، فانصرف جعفر وترك الرشيد فأرسل وراءه مسرورا خادمه وأمره أن يذهب لوقته إلى بيت جعفر ويخرجه إخراجا عنيفا ويأتى به ، فذهب مسرور وأخرجه وأتى به منزل الرشيد وأخبر الخليفة بمجيئه فأمره بضرب عنقه ونفذ مسرور الأمر ، ثم أرسل الرشيد فى الليلة عينها من أحاط بيحيى ابن خالد وجميع ولده ومواليه ومن كان منهم بالطريق فلم يفلت منهم أحد ،

وأودعهم السجون ، ثم فرق الكتب إلى جميع العمال والولاة أن يقبضوا أموالهم ، ووجه رجاء الخادم الى الرقة وأمره أن يقبض أموالهم ويأخذ رقيقهم ومواليهم ، ثم أمر السندى أن ينقل جثة جعفر إلى بغداد فنقلها وقطعها إلى نصفين وصلبها على دجلة نصفها على الجسر الأعلى والآخر على الجسر الأسفل ، وقد ظلت مصلوبة بضع سنين حتى مر بها الرشيد فأمر بأحراقها فأحرقت ، وحذر الناس من إيواء أى فرد من أفراد البرامكة مستثنيا محمد بن خالد بن برمك وولده وحشمه لما ظهر له من نصيحة محمد له ، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة

هذا وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا فى الاسباب التى أدت الى نكبة تلك الاسرة ، وذكروا منها :

أولا : إن الرشيد غضب غضبا شديدا عندما علم أن جعفرا أطلق سراح يحي العلوى وسهل له الهرب الى أفريقية ، وكان الرشيد يخشى بأس العلويين ، وقد فعل جعفر هذا من غير استئذان الرشيد ، ووجد الفضل بن الربيع أن الفرصة سانحة للأيقاع بجعفر ، وأبلغ الحادثة الى الخليفة فتظاهر الخليفة بالاستخفاف بالأمر ولكنه شك فى إخلاص البرامكة من يومها ، واتهمهم بأنهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته ، وكانت هذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدى ، وهى التهمة التى استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبى عبيد الله وزير المهدى حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة

ثانيا : نسب بعض المؤرخين سبب النكبة الى مجرد الملل والغيرة : سئل سعيد بن سالم عن خيانة البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم مايوجب بعض عمل الرشيد بهم ، ولكن طالت أيامهم

وكل طويل مملول ، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس ايام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وأمنا وسعة أموال وفتوح ، وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهما

ثالثا : علو المكانة والجاه والثروة التى وصل اليها البرامكة فى عهد الرشيد مما جعل الخليفة يوجس خيفة على مركزه ومركز أسرته ، وجعله يترقب الفرصة للخلاص منهم ، وكان الناس يتوقعون تلك النكبة لهم ، ودليلنا على ذلك ما يروى أن إبراهيم بن المهدى زار جعفر البرمكى فى قصر له ، فسأله جعفر ، « هل ترى فى دارى عيبا ؟ » فقال إبراهيم « الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحوا من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شيء لا آمنه عليك غدا بين يدى أمير المؤمنين » فقال « سأقول هذه نعم أمير المؤمنين علىّ وضعتها فوق تل عال ، وقلت ياقوم انظروا نعم الخليفة علىّ ، إن الناس يخفون نعمه ، وأنا اتحدث بها »

رابعا : أورد المؤرخون العرب ونقل عنهم مؤرخو الفرنج قصة عباسة بنت المهدى أخت الرشيد وما كان بينها وبين جعفر البرمكى من علاقات سرية ، ومن أنها كانت تحضر مجالس الشراب مع أخيها ونديمه جعفر ، وأنها تزوجت من جعفر سراً بعلم الرشيد ، وأنها حملت ووضعت وأرسلت مولودها مع حواضن له من مماليكها الى مكة ، وأن الرشيد عرف السر بعد ذلك من جارية لأخته وهو يحج فى سنة ١٨٧ هـ ، فغضب على جعفر وعزم على الفتك به ـ الخ القصة ، وهى قصة ظاهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها أخلاق الرشيد ، وما سار عليه بنو العباس من بداية عهدهم حتى زمن ضعفهم ، إذ ليس من المعقول أن يكون الرشيد مرن الخلق إلى هذا الحد ، وأن يأذن لأخته بالحضور إلى مجالس شربه وهو مع أصدقائه

ولقد أجمل ابن خلدون أسباب النكبة وعللها تعليلا أقرب الى التاريخ منه إلى الرواية والوصف، فقال فى صفحة ١٢ « إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم: من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ...... فتوجه الايثار من السلطان اليهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء، وتسربت الى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن، وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العانى، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة، واحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم »

حلل ابن خلدون أسباب النكبة وخالف المؤرخين فى روايتهم عن العباسة وترى من تحليله الأسباب الحقيقية التى أسقطت هذه الاسرة بعد أن خدمت الدولة العباسية خدمات جليلة نحو سبعة عشر عاما، ولم تكن نكبتهم حادثة فجائية بل هى حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضا

كان أفراد الاسرة يعاملون معاملة حسنة فى سجونهم حتى غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وسجنه فضيق عليهم، وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن على بن عبد الله بن عباس. وقد اتهم بأنه يعمل على نيل الخلافة وأن البرامكة كانوا يساعدونه، وحقق الرشيد التهمة ولما اقتنع بصحتها أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وأرسل يسأل يحيى البرمكى عما نسب الى عبد الملك وطلب اليه أن يصدقه حتى يعفو عنه ويعيده الى سابق حاله، ولما أجابه يحيى بأنه لايعرف من أمر التهمة شيئا غضب الرشيد وقسا فى معاملة البرامكة

ظل يحيى مسجونا حتى مات فى سجنه سنة ١٩٠ ﻫ ومات بعده ابنه الفضل فى سنة ١٩٣ ﻫ وظل عبد الملك مسجونا حتى عفا عنه الأمين وأخرجه من سجنه وولاه سوريا، ولما تولى المأمون العرش أرجع للأحياء من البرامكة ممتلكاتهم، ورفع منزلتهم، وأنك لو قرأت تاريخ البرامكة فى كتب مؤرخى العرب وما نالهم من الرشيد لذابت نفسك حسرات عليهم، وبكيتهم مع الباكين بين أطلالهم، ولقد كان الرشيد نفسه يبكى عليهم عند ذكرهم وقد رثاهم شاعره أبو نواس بأبيات رقيقة منها

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدى ومن كان يجتدى
فقل للمطايا قد أمنت من السرى وطى الفيافى فدفدا بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ولن تظفرى من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تفضلى وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفا برمكيا مهندا أصيب بسيف هاشمى مهند

ترك البرامكة فراغا كبيرا فى إدارة الشئون لم يسهل على الرشيد ملؤه بعد نكبتهم إذ استوزر الفضل بن الربيع ولكنه كان أقل من جعفر شأنا ومقدرة

الحوادث الداخلية الأخرى :

الاحوال فى أفريقية : ظل يزيد المهلبى حاكما على أفريقية حتى مات سنة ١٧٠ هـ ، وتولى بعده أخوه حكمها ، فسار سيرة أخيه وقمع كل الثورات والفتن التى قامت عقب موت يزيد ، ولكن البلاد ثارت مرة أخرى فى عهد ابنه ، فأرسل الرشيد قائده القدير هرثمة بن أعين فأخضع الثورة ، وأعاد الأمن الى نصابه ، وتولى الحكم لمدة ثلاث سنوات ، ثم استقال ورجع الى بغداد ، فتقدم إبراهيم بن الأغلب الى الرشيد . وطلب منه أن يوليه حكم أفريقية حكما وراثيا ، وتعهد بأن يرسل الى بيت المال فى بغداد أربعين الف دينار سنويا ، ولما كانت أفريقية تكلف خزينة الدولة مائة الف دينار ترسل اليها سنويا من مصر ، قبل توليته بناء على مشورة هرثمه ، وقصر الحكم عليه وعلى أفراد أسرته من بعده ، مشترطا موافقة الخليفة الجالس على العرش على من يتولى الحكم عند خلو المنصب ، وأصبحت أفريقية بذلك مستقلة استقلالا ذاتيا ، وتهيأ الامر بقيام دولة الاغالبة فى القيروان

أحوال الدولة الخارجية :

أولا : حروب الرشيد مع البوزنطيين (١٧٥ — ١٩٢ هـ)

خالف البوزنطيون شروط المعاهدة التى عقدتها ايرينى فى زمن المهدى ، وغزوا أراضى الدولة واعتدوا على حدودها ، ونهبوا وسلبوا وأسروا كثيرا من المسلمين ، فنهض الرشيد واتخذ مدينة طرسوس مركزا لاعماله الحربية ، وسير عليهم جيشا تحت أمرة قائد تركى فى سنه ١٧٥ هـ فردهم على أعقابهم ، واستولى على مدينتين من مدنهم ، وفى تلك السنة سارت سفن المسلمين واستولت على قبرص وكريت . وأسر أمير البحر الاغريقى

وعرض عليه الاسلام ، ولما رفض قتله المسلمون ، ثم رجع البوزنطيون الى اعتدائهم على حدود الدولة ، فخرج اليهم الرشيد بنفسه فى سنة ١٨١ ﻫ ومعه جيش قوى يقوده رجال مهرة ، فانتصر الرشيد وطلبت أيرينى الصلح على أن تدفع الجزية بطريقة منتظمة ، وتبادل الفريقان الأسرى وتهادنا لمدة أربع سنوات

انفردت أيرينى بأدارة الشئون فى الدولة البوزنطية بعد أن تغلبت على ابنها ولقبت نفسها أوغسطا ، ولكن الروم ثاروا عليها بعد أن حكمت بلادها خمس سنوات وخلعوها فى سنة ١٨٧ ﻫ ، وتولى زمام الأمور بعدها وزير ماليتها المسمى نايسفوراس (نقفور) وعزم على فسخ المعاهدة المعقودة وكتب الى الرشيد كتابا مهينا مهددا ومتوعدا ، إذ قال فيه « من نقفور ملك الروم الى هارون الرشيد ملك العرب . أما بعد فأن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا أن تحمل أضعافه اليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ؛ فأذا قرأت كتابى فاردد ماحصل لك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك . »

يقول ابن خلدون فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر اليه أو أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل منهم ، ولم يجرؤ أحد من وزرائه على إبداء الرأى ثم تناول الكتاب وكتب على ظهره : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ماتراه دون ما تسمعه والسلام »

تأهب الرشيد للقتال فى اليوم نفسه وخرج على جيش كبير وتابع السير

حتى وصل هرقلة احدى معاقل الروم . وهناك تقابل مع جيوش أعدائه فتغلب عليهم وانتصر نصرا مبينا ، واضطر نقفور الى عقد الصلح على أن يدفع جزية مضاعفة ورجع الخليفة المنتصر ، وما كاد يصل الرقة حتى نقض نقفور الصلح ظنا منه أن البرد قارص . وأن الخليفة لن يرجع اليه فى هـذا الوقت ، ولـكنه كما قال جبون المؤرخ الشهير أخطأ فهم الرشيد وحزمه ، فقد رجع الخليفة بسرعة أدهشت ملك الروم وتقابلت الجيوش وانتصر الرشيد بعد معركة دموية ، وطلب نقفور الصلح مرة أخرى ، فاجاب الرشيد طلبه ، ولـكن الروم نقضوا العهد مرارا عديدة ويقول موير « وفى كل مرة كان الرشيد ينتصر ثم يعفو » ، وفى سنة ١٨٩ هـ أرسل الرشيد ابنه القاسم لتأديب الروم فأدبهم ، وفى السنة التالية انتهز نقفور قيام ثورة فى المشرق وغزا بلاد المسلمين وارتـكب فضائح عديدة فلم يطق الرشيد صبرا وترك الأمور لابنه المأمون ، وسار على رأس جيش كبير لمعاقبة هؤلاء الأعداء الذين لا يعرفون عهدا ، ولا يحترمون وعدا ، وقد انتصر عليهم انتصارا كبيرا ، واستولى على المدائن المهمة فى آسيا الصغرى ، وأبلى قواده بلاء حسنا ، ففتح يزيد بن مخلد قونيه ويوفسيوس وليديا ، وفتح شرحبيل ابن معن بن زائدة أربع مدائن أخرى من أشهر مـدن الروم ، وفتحت هرقلة وهزم الاعـداء فى كل مكان فطلبوا الصلح وأجاب الرشيد طلبهم وفرض الجزية على نقفور وعلى أفراد اسرته وبطارقته وأهل بلده فدفع ٣٠٠ الف دينار .

جدد الروم القتال فى سنة ١٩٨ هـ وأغاروا على أطراف الدولة وأنزلوا بالمسلمين خسائر فادحة فى مرعش وطرسوس ولم يستطع الرشيد الرجوع اليهم بسبب ثورة رافع بن ليث فى خراسان وتأهبه للخروج الى محاربة هذا الثائر بنفسه

هذا وينتقد المؤرخون الرشيد مر الأنتقاد بسبب تساهله مع الروم وقعوده عن مطاردتهم والقضاء عليهم، إذ كان فى استطاعته طردهم جملة من آسيا الصغرى بل والاستيلاء على القسطنطينية عاصمة ملكهم

ثانيا : علاقة الرشيد بشرلمان :

أرسل شرلمان امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سفراء من قبله الى بغداد لاغراض مختلفة منها أنه طلب حماية المسيحيين الذين يخرجون الى بيت المقدس بقصد المتاجرة أو تأدية فريضة الحج، ومنها أن طلب شرلمان من الرشيد المعاونة لأسقاط نقفور والتغلب على الدولة البوزنطية، وقد هرع طلاب العلم من الفرنجة الى بغداد ينتهلون موارد العلم فيها ويعملون على نقل الثقافة العربية الى بلاد الغرب، وكان رسل شرلمان يحملون الهدايا الثمينة الى الرشيد، كما أن الرشيد أرسل له هدايا ردا على هداياه، منها ساعة وفيل وأقمشة شرقية، ويقول موير ولم تتعد الصداقة بينهما هذا الحد

أولياء عهد الرشيد :

ولد عبد الله المأمون بن الرشيد فى اليوم الذى تولى فيه أبوه عرش الخلافة وولد أخوه محمد الامين بعده بشهور من أم أخرى وهى زبيدة حفيدة المنصور فكان المأمون أكبر من أخيه الأمين وأحق منه بولاية العهد ولكن الرشيد عقد ولاية العهد لابنه الامين فى سنة ١٧٣ هـ وكان سنه لا يتجاوز ثلاث سنوات، ولما استوزر الرشيد جعفر البرمكى أشار عليه أن يعقد لأخيه المأمون أيضا ليكون ولى العهد بعد أخيه، ففعل الرشيد ذلك أيضا فى سنة ١٨٣ هـ ثم طلب عبد الملك بن صالح من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم ففعل الرشيد ذلك أيضا فى سنة ١٨٦ وسماه المؤتمن

ثم قسم البلاد بين أولاده الثلاثة « فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى الى همذان ، وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام ، وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم »

ولقد القى الرشيد بذلك بأسهم بينهم، ووضع بيده بذور الفتنةوالشر وفى هذا المعنى يقول أحد شعراء ذلك العصر أبياتا منها

رأى الملك المهذب شر رأى   لقسمته الخلافة والبلادا
فقد غرس العداوة غير آل   وأورث شمل الفتهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا   وسلّس لاجتنابهم القيادا
ستجرى من دمائهم بحور   زواخر لايرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبدا عليه   أغيا كان ذلك أم رشادا

وفى تلك السنة حج الرشيد ومعه الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته . وهناك كتب للمأمون كتابين اشهدالفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما احدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة . والشروط للمأمون على الأمين ، وجعل الكتابين فىالبيت الحرام ، وطلب من الأخوين القسم على احترام ماجاء بالكتابين ، والعمل بهما ، وفى الكعبة اقسم الأخوان (راجع نص القسم والكتابين فى ابن الأثير) ان يحترما رغبة الخليفة . ثم كتب الرشيد الى العمال والولاة بذلك . ويلاحظ أن زبيدة كانت من حجاج ذلك العام وشيدت على نفقتها الخاصة البئر المعروف باسمها حتى يومنا الحالى

وفاة الرشيد وأخلاقه :

خرج الرشيد من بغداد فى شهر شعبان سنة ١٩٢ هـ قاصدا خراسان

لأخماد ثورة رافع بن ليث كما تقدم . وترك ابنه القاسم فى الرقة ومعه قائد يسمى خزيمة بن حازم . وترك الأمين ببغداد . واستصحب المأمون وزحف على خراسان ولكنه عند ما وصل الى قرية تسمى سنباد بجوار طوس (مسقط رأس الفردوس الشاعر) مرض واشتد عليه المرض ومات فى ريعان شبابه فى السنة الثانية والاربعين من عمره فى يوم السبت رابع جمادى الثانية سنة ١٩٣ﻫ (٨٠٩م) بعد أن حكم حكما زاهرا لمدة ثلاث وعشرين سنة وستة شهور

يعد الرشيد من أكبر ملوك التاريخ وأبطاله . وكان شديد الانفعال إذا غضب ولكنه كان جامحا لنفسه متفانيا فى خدمة شعبه ، عاملا على رقيه وتقدمه ، ساهرا على أمور مملكته الواسعة ، عالما بدقائق أحوالها ، وقد حج تسع مرات وكان يصلى فى اليوم مائة ركعة فاشتهر بالورع والتقوى وكان بلاطه أفخم بلاط فى عصره ، أمه الشعراء والكتاب والمغنون من كل فج ليستفيدوا من عطاء الخليفة وسخائه ، وفى أيامه ازدهرت العلوم والآداب ، وارتقت الفنون الجميلة ارتقاء عظيما ، وكان يجل العلم والعلماء ويميل الى الأدب وأهله ، وكان يكره المراء فى الدين . وفى عصره قام الفقهاء وعلى رأسهم قاضى القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى ونظموا مذهب الحنفية ، وكتب أبو يوسف كتابا فى الخراج وهو من أجل الآثار التاريخية والاقتصادية للدولة الاسلامية . وقد شجع الرشيد حركة النقل والترجمة التى كانت قد ابتدأت فى عهد المنصور ، وفى أيامه عاش الاصمعى والشافعى وعبد الله بن ادريس وعيسى بن يونس وإبراهيم الموصلى وجبريل بن بختيشوع الطبيب وغيرهم ، ولهؤلاء مكانة فى عالم الأدب والفقه والنحو مما لايجهله العلماء . هذا وقد بلغت بغداد فى عهده من الحضارة وسعة العمران مالم تبلغه مدينة أخرى فى تلك العصور

٢ — محمـــد الأمين

(١٩٣ — ١٩٨ هـ) (٨٠٩ — ٨١٣ م)

ولد الأمين سنة ١٧٠ هـ بعد أخيه المأمون بستة شهور، وأمه هى زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، فكان هاشميا من أبيه وأمه، وهو أمر لم يتفق لخليفة عباسى غيره، ولما توفى الرشيد فى مدينة طوس كان الأمين فى بغداد، فحمل صاحب البريد خبر وفاة الخليفة الى العاصمة، وجاء صالح ابن الرشيد — وكان مع والده عند الوفاة — بالعباءة والسيف وسلمها الى الأمين، وانتقل من قصر الخلد الذى كان يسكنه الى قصر الخلافة، وفى اليوم التالى خرج الى الجامع الكبير، وصلى بالناس، واعتلى المنبر وخطب خطبة العرش، وبويع بالخلافة، وأرسل اليه المأمون — وكان فى مرو — بالهدايا الثمينة وهنأه بالخلافةوبايعه بها، وكذلك أسرع أخوه القاسم وكان فى قنسرين وبايعه بالخلافة، وأما زبيدة فكانت بالرقة، ولما بلغها خبر اعتلاء ابنها العرش رجعت الى بغداد، وخرج الأمين للقائها وقابلها عند مدينة الانبار، ودخلا بغداد فى موكب عظيم، وقد ظلت بجانب ولدها حتى مات

تربية الأمين وأخلاقه :

عهد الرشيد بتربية الأمين للفضل بن يحيى بن خالد البرمكى كما مر بنا وقام بتربية المأمون جعفر بن يحيى بن خالد، وقد نال الأخوان تربية عالية، وتهذيبا تاما، وتعليما بالغا، فتلقيا علوم البيان والبديع والمعانى والفقه والحديث، وكانا يجيدان الخطابة، غير أن التعليم أثمر ثمرته المطلوبة فى عقل المأمون، واقتصرت فائدته عند الأمين على ما كان من تهذيب خلقى، وذلك لما كان يظهره من انصراف عن الدرس، وميل الى السرور واللهو،

أما المأمون فقد حفظ القرآن وأجاد تفسيره ، واشتهر بالحكمة وبعد النظر وقد فطن الرشيد الى ما بين الأخوين من تفاوت فى الأخلاق والكفاية الشخصية ، فعهد بأمر الشرق وحربه ودفاعه وخراجه الى المأمون حتى لا يجد أعداء الدولة فرصة للايقاع بها

كان الأمين تنقصه الدربة السياسية ، « وأنت تعلم أن الدربة السياسية هى ناحية يؤبه لها كثيرا ، فى تنمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الادارية وتنظيم ملكات السلطان فى ولى العهد ، خصوصا ذلك العصر الذى لم تكن فيه وسائل الثقافة الملكية متوفرة توافرها اليوم : من سياحة لولى العهد الى الممالك المتمدينة ، ووقوف على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هى حال ولى عهد انجلترا ونظرائه مثلا ، مع أن الحاجة الى الثقافة السياسية فى ذلك العصر كانت أشد منها اليوم ، لأن الملك حينذاك كان صاحب سلطان فعلى مطلق غير مقيد بقانون أو دستور إلا ما يرجع الى دينه وورعه . » ، وقد أجمع المؤرخون على أنه كان مستهترا مسرفا ، « مع خور خلقى وعدم تبصر فى العواقب ، ولا ترو فى مهمات الأمور » ، ولا أدل على إسرافه مما رواه أحد المعاصرين له وهو سعيد بن حميد فأنه يقول : لما ملك محمد وجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ونافس فى ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر على خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحمل اليه ما كان فى الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمنتزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية ، وبستان موسى وغيرها ، وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة ، على خلقة الأسد

والفيل والعقاب والحية والفرس ، وانفق فى عملها مالا عظيما وقال ابونواس شعرا فى هذا المعنى يمدحه منه

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركابه سرن برا سار فى الماء راكبا ليث غاب

وذكر الحسين بن الضحاك ، وهو شاعر الأمين ، شيئا عن اسراف الخليفة ، قال : « ابتنى الامير سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف الف درهم ، واتخذ أخرى على خلقة شيء يكون فى البحر يقال له الدلفين » ، وقال أبو نواس فى ذلك شعرا أيضا . وقد روى المؤرخون روايات أخرى كلها تدل على تبذير الخليفة وعدم تقديره للمال . وقال المسعودى فى وصف أخلاق الأمين ما يأتى : « إن الأمين كان باسطا يده بالعطاء ، قبيح السيرة ، ضعيف الرأى ، سفاكا للدماء ، يركب هواه ، ويهمل أمره ، ويتكل فى جليلات الخطوب على غيره ، ويثق بمن لا ينصحه » ، وقال ابن الاثير « لم نجد للأمين شيئا من سيرته نستحسنه فنذكره » . ووصفه الفضل بن الربيع وزيره ووزير أبيه من قبله بقوله : « ينام نوم الظربان لا يفكر فى زوال نعمة ، ولا يتروى فى أمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه وشغله قدحه ، فهو يجرى فى لهوه ، والأيام تسرع فى هلاكه » ، وورد فى كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٠٣ المجلد الأول ما يأتى : « وهناك ظاهرة خلقية فى أخلاق الأمين ، وهى حبه للاستخارة واحتفاله بالبحث عن أمر طالعه ، وركونه حتى فى آخر لحظة من حياته ، وهى لحظة التقرير فى مصيره ، الى منام رآه . . . . . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفل فى مهام أموره بالاستخارة ووحى الاحلام . بل كان يجعل جل اعتماده على مشورة رجالاته وذوى النصيحة من أنصاره » ، « وكان طيب القلب ، يعفو حتى

عن الخارجين عليه ، والمسيئين إليه ، وأن موقفه مع حسين بن على بن ماهان لمعروف مشهور . »

أحوال الدولة الداخلية فى عهده :

أولا : التنافس بين الأمين والمأمون

جرى الرشيد على سنة تقسيم البلاد بين بنيه ، وسن لهم نظاما لولاية العهد كما تقدم ، فكان ذلك سببا فى قيام المشاكل والحروب بين الاخوين وذلك أن الرشيد أوصى وهو بطوس بالجيش الذى كان معه وبالمال والسلاح إلى ابنه المأمون ، وجدد له البيعة على القواد الذين كانوا معه ، وكان الأمين يتوقع وفاة أبيه ، فأرسل رسوله بكر بن المعتمر بخطابين يسلمان لصاحبيهما بعد وفاة الخليفة ، وكان أحد الخطابين للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ، ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة ، وللمأمون بولاية العهد ، وللقاسم المؤتمن بعده ، أما الخطاب الثانى فكان لصالح ابن الرشيد يأمره فيه بالاجتهاد ، وأن يأخذ له البيعة على من معه ، ثم للمأمون ثم للمؤتمن على الشريطة التى اشترطها الرشيد ، وطلب منه أن يسير اليه بجميع الجنود والذخائر والسلاح ، والا ينفذ رأيا أو يبرم أمرا إلا برأى الفضل بن الربيع ، فانتهز الفضل هذه الفرصة وأمر الناس بالرحيل ، ففعلوا ذلك ، « محبة منهم للحاق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون » ، ولما وصل الفضل إلى بغداد بايع الأمين بالخلافة وفرح به الأمين فرحا شديدا واستوزره ووكل اليه تدبير الملك ، وأمره بتوزيع مرتبات الجند لهم مدة سنتين مقدما

بلغ المأمون خبر عودة الجنـد إلى أوطانهم ، فلم ينزعج بل جمع ثقاة أصدقائه ومنهم الفضل بن سهل — وكان فارسى الأصل اشتهر بحصافة الرأى وإصالة الفكر — وشاورهم فى الأمر فرأى فريق أن يرسل المأمون ألفين من رجاله إثر الجيش ليردوه إليه ، ولكن الفضل رأى أن يكتفى بأرسال رسل يذكرون القوم بسابق عهدهم ، وأخذ المأمون برأى الفضل ابن سهل ، وارسل رسولين بكتاب إلى زعماء الجيش وقواده ، ووصل الرسولان وكان الجيش بنيسابور ، فلم يعر القواد طلب المأمون التفاتا وصمموا على العودة إلى بغداد وعلى رأسهم الفضل بن الربيع ، ولما وقف الفضل بن سهل على الخبر ، قال للمأمون « أعداء استرحت منهم »

وأخذ المأمون بعد ذلك يعزز مركزه فى خراسان ، فاتبع سياسة رسمها له مستشاره الأمين الفضل بن سهل ، وتقرب من ، ؤساءالعشائر وتحبب إلى رعيته وخفض الضرائب ، وبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء ، ودعاهم إلى الحق والعمل به ، وإحياء السنة وأخذ يقيم العدل بين الناس ويرد المظالم ، حتى سر به أهل خراسان سرورا عظيما ، وعاضدوه وناصروه ، وقالوا « ابن أختنا وابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم » اذ كانت أمه فارسية الأصل ، وأصبح مركزه فى تلك البلاد قويا ومع ذلك فقد ظل أمينا على عهده ، وتواترت كتبه الى أخيه محمد الأمين بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، ولم يكن فى نية الأمين أن يسير الى ابعد مما كان فيه نحو أخيه وكان فى عزمه الوفاء لاخويه المأمون والقاسم ولكن « البطانة لعبت دورا شنيعا ، فى إشعال جذوة الحقد والسخيمة بينهما ، وعملت على إضرام أوارها ، وسعت جهدها فى توسيع مسافة الخلف بين الأخويين »

أخذ الفضل بن الربيع ، بعد أن نكث بعهده للمأمون ، يزين للأمين خلع المأمون من ولاية العهد ، إذ علم أن الخلافة أن أفضت الى المأمون يوما وهو حى لم يبق عليه ، وكان يترقب فى ظفره به عطبه ، وخضع الأمين لمشورة وزيره الداهية ، وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وكتب الى جميع العمال فى الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالأمرة ، بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد ، وكان ذلك فى سنة ١٩٤ هـ ، ثم عزل أخاه القاسم عما كان ولاه أبوه من الاعمال ، وأقدمه بغداد ، فلما بلغ ذلك المأمون وعرف أن أخاه يدبر خطة لخلعه قطع البريد عنه ، وأسقط اسمه من الطرز ، ومن ثم ابتدأ بين الأخوين نوع من الصراع السياسى ، يديره الفضل بن الربيع من جانب الأمين ، والفضل بن سهل من جانب المأمون وقد اتصف هذان الوزيران بالحنكة السياسية والمكر والخداع ، وبذل كل منهما جهد طاقته للانتصار على منافسه ، ونشبت بين الطرفين حرب كلامية كانت بلا ريب مقدمة لوقوع الحرب العامة ، وأرسل الأمين فى السنة عينها وفدا سياسيا الى المأمون ، على رأسه العباس بن موسى بن عيسى ، ليطلب اليه تقديم موسى بن الأمين الذى سماه « الناطق بالحق » على نفسه فى ولاية العهد ، واستقبل المأمون الوفد وأكرمه اكراما كبيرا ، وامتنع عن اجابة طلب الخليفة ، ولما عاد الوفد واخبر الأمين بامتناع المأمون ، ألح عليه الفضل بن الربيع وعلى بن ماهان فى البيعة لابنه موسى وخلع المأمون ، فأجاب الأمين الى ذلك ، وورد فى كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٢٩ ما يأتى : « لم يكتف الفضل بهذا ولا بالكثير من أمثاله ، مما ينتظر من مثله فى مثل تلك الظروف ، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد ، وحظر الدعاء لهما على المنابر ، بل دس من ذكر المأمون بسوء ، وحط من قدره ، ولصق به أقبح النقائص والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب . ولم يكتف

الفضل بهذا ، بل وجه الى مكة كتابا مع محمد بن عبد الله ، أحد سدنة البيت الحرام ، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين ، وكان حظهما من الأمين لما صارا اليه حظ غيرهما من العهود فى ذلك العصر « والمعاهدات » و « قصاصات الورق » فى عصرنا الحاضر ، فمزقهما وأبطلهما ، وأجاز سارقهما . »

اشتدت الحرب الكلامية بين الأخوين اشتدادا عظيما ، وبالغ المأمون فى حذره ، وأخذ هو وحزبه الحيطة والاستعداد للطوارىء ، فوجهوا حراسا من قبلهم على الحدود ، حتى لا يتركوا للأمين أولرجاله فرصة للاتصال بأحد من اتباع المأمون ، ودس الفضل بن سهل قوما اختارهم ، ممن يثق بهم من القواد والوجوه ببغداد ، ليكاتبوه بأخبار الامين وجماعته يوما فيوما ، « وكان التجسس لذلك العهد فنا منظما متقدما »

ازداد الخلاف بين الأخوين زيادة أدت بالخليفة أن يعمد الى استعمال القوة الحربية لأخضاع المأمون ، وأعلن المأمون نفسه خليفة ، وجعل ابن سهل وزيره ، وأسند اليه الأعمال الحربية والادارية ، وتلقب بذى الرياستين وامتد ملك المأمون من حمدان إلى تبت ، ومن بحر قزوين الى الخليج الفارسى ، ولما علم رافع بن ليث بعدل المأمون سلم ودخل فى طاعته ، ثم أخذت العداوة تتعاظم بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة ، وبقدر ما كان عند المأمون من اليقظة والحزم ، كان عند الأمين من الاهمال والتفريط والغفلة ، واستمر فى ملذاته بين الجوارى ، يدير الكؤوس ويسمع الموسيقى والغناء ، ويشهد الرقص من مائة جارية ، يرقصن معا ثم يختفين ويعدن فى عشرات كل تحمل أوراق النخيل أو الزيتون حتى هزمت جيوشه فى الميادين ، وظفر به أعداؤه فى النهاية

ثانيا : الحرب بين الأمين والمأمون (١٩٥-١٩٨ هـ)

رفض المأمون مطالب الأمين ، فعمد إلى استعمال القوة لاخضاعه ، وعقد لعلى بن عيسى بن ماهان على نهاوند وهمذان وغيرهما من البلدان ، وضم اليه جماعة من القواد ، وأمر له بمائتى الف دينار وسيوف محلاة وخلع وثياب ، وفى ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ خرج القائد ومعه أربعون الف مقاتل من بغداد لمقاتلة المأمون ، وحمل معه قيدا من الفضة ليقيد به المأمون عند ما يقبض عليه ، وتابع سيره حتى نزل همذان ، ومنها زحف حتى وصل مدينة الرى ، وكان المأمون قد أرسل طاهر بن الحسين ليدافع عن الحدود ، وكان معه نحو أربعة آلاف من الجنود ، فخرج لملاقاة جند الأمين ، ووقع القتال بين الطرفين وانتصر طاهر نصرا مبينا ، وقتل قائد الأمين ، وكتب طاهر إلى الفضل بن سهل يبشره بالنصر كتابا قصيرا جاء فيه : « أطال الله بقاءك ، وكبت اعداءك ، وجعل من يشناك فداك ، كتبت اليك ورأس على بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى ، والحمد لله رب العالمين » ، فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون بأمير المؤمنين ، وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمنين وصاحب حبل الدين ، وكان من نتائج هذه الهزيمة أن ثار الجند ببغداد وطلبوا الأرزاق لاعتقادهم أن محمدا أصبح فى حاجة اليهم ، فأجاب الأمين مطلبهم ، وأعطاهم أرزاق أربعة أشهر ، ثم وجه قائدا من قواده يسمى عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى فى عشرين الف رجل إلى همذان لقتال طاهر ، ووصل عبدالرحمن إلى همذان وحصنها ، واستعد للقتال وخرج اليه طاهر ، واقتتل الفريقان

قتالا عنيفا انتهى بخذلان عبد الرحمن وقتله ، وانتصر طاهر ثم زحف على قزوين ودخلها بعد أن فر عاملها من قبل الأمين ، وجعل فيها جندا كثيفا وولاها رجلا من أصحابه

اضطربت الأحوال فى بغداد ، ورأى الفضل بن الربيع أن يسند قيادة الجند إلى قائد قدير ، وهو اسد بن يزيد بن مزيد ، فقبل القيادة على شروط لم يوافق عليها الأمين ، وغضب عليه وسجنه ، واسند القيادة إلى أحمد بن مزيد ، وأمر الفضل أن يدفع اليه ذخائر اسد ، وأن يضم اليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والاعراب ، وبلغ عددهم نحو عشرين الفا ، ثم ضم اليه قائدا آخر هو عبدالله بن حميد بن قحطبة فى عشرين الفا أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهرا عنها ، فتوجها حتى نزلا قريبا من حلوان ، فدس طاهر الجواسيس إلى عسكريهما ، فاوقعوا الخلاف بين القائدين فتقاتلا ورجعا من حيث أتيا ، فتقدم طاهر ودخل حلوان فى سنة ١٩٦ هـ ،

أرسل المأمون هرثمة بن أعين ، ومعه كتاب إلى طاهر يأمره فيه أن يسلم له الكور والمدن ويتوجه إلى الاهواز ، فسلم ذلك اليه ، و أقام هرثمة بحلوان فحصنها ، ووضع مسالحه ومراصده فى طرقها وجبالها . وتوجه طاهر إلى الاهواز ليستعد للهجوم على بغداد من الجهة الآخرى ، وبذلك استعد القائدان هرثمة وطاهر للزحف على عاصمة الخلافة من الشرق والغرب

ازدادت الحالة سوءا فى دار الخلافة ، وضعف مركز الخليفة لاهماله واستمراره فى غيه ، وثارت الشام فى وجهه بقيادة السفيانى على بن عبد الله ابن خالد بن يزيد بن معاوية ، الذى طلب الخلافة لنفسه ، ودخل دمشق

وطرد عاملها من قبل الأمين ، وأخضع ما حول الشام ، ولم يستطع الخليفة إخماد تلك الثورة بسبب ضعف السلطة المركزية فى بغداد ، وظلت تلك الثورة قائمة ثلاث سنين ، وكاد الثائر ينجح ، لولا ما كان من شقاق بين مضر وحمير ، وفى تلك الاثناء خرج داود بين عيسى بن موسى عامل الأمين على مكة والمدينة على الخليفة ، عند ما علم بخلع الأمين للمأمون ، وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما ، وأعلن خروجه على الأمين ، وبايع المأمون ، وأجابه الى ذلك أهل مكة ، وفى رجب سنة ١٩٦ ﻫ نادى فى البيت الحرام بخلع الأمين وبيعة المأمون ، ثم كتب الى ابنه سليمان ، وكان فى المدينة ، يأمره أن يفعل بها ما فعل بمكة ، ثم سار الى مرو وقابل المأمون وأخبره بما تم فى الحجاز ، فسر المأمون سرورا عظيما ، وأقر داود على ولاية الحجاز ، وكان الأمين قد أرسل الحسين بن على بن عيسى الى الشام لاخماد الثورة بها ، ولكنه أساء جند الشام بتفضيل الخراسانيين عليهم ، وعاد فجأة الى بغداد فوصلها ليلا ، وأرسل الأمين فى طلبه فاجابه بقوله : « الوقت ليل ، ولما لم أكن نديما ولا مضحكا ولا مغنيا ، فموعدنا الصبح » ، وكان قد عزم على خلع الأمين ، فاذا كان الصبح هيج القوم ببغداد ، وأبان لهم ما سيكون من نصر قريب للمأمون ، وطلب اليهم أن يعلنوا انضمامهم إليه ، وسار يقودهم حتى عبر دجله ، وشتت حرس الأمين ، وقبض عليه وعلى أمه زبيدة وسجنهما فى قصره ببغداد ، وأعلن الخلافة للمأمون ، ولكن القوم فى بغداد ما لبثوا أن ثاروا فى وجه الحسين وقبضوا عليه ، وأعادوا الأمين الى عرشه ، وقدموا اليه الحسين فعفا عنه ، وأنعم عليه وولاه قيادة الجند ثانية ، ولكنه ما كاد يخرج من المدينة حتى سخر منه جنده ، وصاحوا به فهرب ، وجد

الجنـد فى اللحاق به فأدركوه وقتلوه ، وعلى أثر ذلك الحادث اعتزل الفضل ابن الربيـع العمل ، لأنه كان من المشجعين لخطة الحسين فى الخروج على الأمين

ثالثاً : الاستيلاء على بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ ﻫ

سلم طاهر القيادة الى هرثمة فى حلوان ، وذهب الى فارس فاستولى عليها بعد أن قتل عاملها محمـد بن يزيد المهلبى ، ثم خرج من فارس بعـد أن نظمها ، متوجها الى واسـط ودخلها ، ومنها وجـه قائداً الى الكوفة وكان عليها العباس بن موسى الهادى من قبل الأمين ، فبادر الى خلعه ومبايعة المأمون وبذلك تم لطاهر مابين واسط والكوفة ، وبايع أمير البصرة المأمون ، وكان ذلك كله فى رجب سنة ١٩٦ﻫ ، ثم سار طاهر الى المدائن واستولى عليها من غير قتال ، ثم تقدم نحو بغداد ، وعسكر بجنده على الجهة الغربية المقابلة لها وحاصرها ، وكان هرثمه قد وصل بجيشه من الجهة الشرقية ، وحاصرها من جهته كذلك ، واستمر الحصار سنة لاقت فيها المدينة كل ضروب الشدة ، وعمت فيها الفوضى ، وفتحت السجون وفر السجناء ، ودافع أهل بغداد عنها دفاعا قويا ، ومات من الطرفين خلق كثير ، ثم دخل طاهر المدينة ، ودار القتال فى شوارعها ، وخرب طاهر أحياء كاملة ، ومنع القوت عن القوم فزادت مصائبهم ، وكان منظر الأطفال والنساء وهم يموتون جوعا يذيب القلوب ، وهدمت القصور الفخمة ، وأصبحت بغداد فى حالة يرثى لها

عندئذ أخذ قواد الأمين ينضمون الى طاهر ، ولما خلت خزانته من الأموال ، اذاب ما عنده من أنية ذهبية وفضية ، ليستعين بها على الدفاع عن نفسه ، بتوزيعها على الرجال ، فوقف أهل المدينة الى جانبه ، واستمر القتال

حتى سنة ١٩٧ هـ ، وأخيرا صمم طاهر على أخذ المدينة عنوة ، واتفق مع هرثمة على الهجوم ، وقاما معا بذلك ، ولما وجد الأمين أن الأمر قد أفلت من يده ، ودع أهل بيته وداعا مؤثرا ، وخرج من قصر الخلد الى قصر القرار حيث أقام ثلاثة أيام كانت الباقية له من حياته ، وكان يقيم معه عمه ابراهيم ابن المهدى ، ولم يكن للأمين إذ ذاك سوى أحد أمرين ، إما أن يسلم نفسه وأما أن يهرب ، ففكر فى الهروب الى الشام ، وكان طاهر يعلم بما يدور فى نفس الامين ، فهدد من تبقى من رجال الأمين بشديد العقاب إن لم يجبروه على التسليم ، فاغروه بذلك ولكنه رفض أن يسلم نفسه لطاهر ، وقبل أن يكون ذلك لهرثمة ، فعارض طاهر فى ذلك مخافة أن ينسب النصر لزميله ، وأخيرا اتفقا على أن يسلم الأمين نفسه لهرثمة ، ويتسلم طاهر خاتم الملك وعباءة الخلافة وسيف الخليفة

سار هرثمة بالامين الى شط النهر لنقله الى معسكره ، وكان قد أعد قاربا لذلك ، وعامله بكل أدب واحترام ، ولكن ما كاد القارب يبتعد عن الشاطىء قليلا حتى رجمه جند طاهر من الفرس بالحجارة ، وأمطروه وابلا من السهام ، فانقلب الزورق بمن فيه وكاد هرثمة يغرق لولا أن انتشله أحد القوم من شعر رأسه ، وعبر الأمين النهر سباحة حتى خرج ، وكاد يموت بردا وقبض عليه الجند وقادوه الى منزل صغير ، فاذا كان الليل هاجمه جماعة من الفرس وقتلوه ، وفصلوا رأسه وأرسلوها الى طاهر فعرضها على أسوار بغداد ، ثم أرسلها الى المأمون مع بقية شارات الملك ، وكان موت الامين ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ — سبتمبر سنة ٨١٣ م

يقول موير « إن انتصار المأمون على الامين كان يماثل انتصار العباسيين على الأمويين ، إذ كان انتصارا للفرس على العرب »

الباب الخامس

عصر المأمون

١ — عبد الله المأمون

(١٩٨-٢١٨ هـ) — (٨١٣-٨٣٣ م)

ولد المأمون فى اليوم الذى تولى فيه أبوه الخلافة ، وكان ذلك فى سنة ١٧٠ هـ . وكانت أمه فارسية الاصل تسمى مراجل ، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره عين وليا للعهد بعد أخيه الأمين ، و تولى عرش الدولة بعد قتل أخيه وكان إذ ذاك فى الثامنة والعشرين ، ودخل الناس فى بيعته عامة واعترف الجميع بخلافته اعترافا جليا صريحا ، ولكنه ظل فى مدينة مرو عاصمة خراسان ولم يتركها إلى بغداد عاصمة الخلافة كما كان يفعل الخلفاء الذين سبقوه ، ووثق بالفضل بن سهل وثوقا تاما ، وأجاز له تصريف شئون الدولة وفق ما اراد ، واشتغل هو بالمسائل العلمية والفلسفية ، وصرف وقته فى المجادلات والمناظرات الكلامية بين جمهور العلماء الذين هرعوا اليه وأموا بلاطة فى مرو من كل حدب وصوب ، فنشأ عن ذلك أن قامت الفتن فى أنحاء العراق وفى بلاد العرب ومصر ، ونشط العلويون نشاطا كبيرا ورأوا ، هم وشيعتهم ، أن الظرف مؤاتى لاسترداد كرسى الخلافة والقضاء على الحكم العباسى ، واليك بيان تلك الحوادث

أحوال الدولة الداخلية فى عهده :

أولا : الفترة الاولى (١٩٨ - ٢٠٤ هـ)

أقام المأمون فى مدينة مرو حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ هـ ، وفى

أثناء تلك المدة كان الفضل بن سهل وزيره الأكبر مطلق اليد فى إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها ، واستأثر بالنفوذ والسلطان وعصب عينى الخليفة عما كان يجرى فى أنحاء الامبراطوية ، وبذل جهد طاقته حتى أقام أقاربه وأصهاره وأعوانه حكاما وولاة ، وأطلق لهم العنان فى جميع الشئون ، ورأى أن الامر لايتم له إلا إذا أبعد عن العراق كلا من هرثمة إبن أعين وطاهر بن الحسين ، وهما القائدان القديران اللذان انتزعا الخلافة من الأمين بحد سيوفهما وحسن بلائهما فى الحروب ، وأقاما مكانه أخاه المأمون كما مر بنا

استصدر الفضل أمرين من المأمون ، أولهما بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن ، وطلب الى طاهر أن يسلم الوالى الجديد جميع مابيده من الأعمال ، وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث العقيلى الذى ثار فى سنة ١٩٨ هـ مطالبا بثأر الأمين صديقه ، وكان الامر يتضمن تولية طاهر الموصل والجزيرة والشام والمغرب ، وقد أطاع طاهر أمر الخليفة وخرج من العراق غاضبا لملاقاة الثائر ، ولكنه لم يجد فى مقاتلته لما كان فى نفسه من غضب وألم ، وانتصر نصر وظل ثائرا حتى سنة ٢١٠ هـ ، فتغلب عليه المأمون وانتصر عليه قائده عبد الله بن طاهر ، وسلم نصر بعد أن طلب الأمان وأجيب إلى طلبه وتوجه إلى العاصمة حيث وكل به من يقوم بحراسته

أما الأمر الثانى فكان الى هرثمة بن أعين يكلفه به أن يشخص إلى خراسان فصدع بالامر ، وخرج من العراق قاصدا خراسان ، « وبذلك خلا العراق من أسديه ـ كما ورد فى كتاب الخضرى بك صحيفة ١٩٦ ـ وأهل العراق

من قديم عبيد القوة ، ولاسيما أنهم خارجون من ثورة وهياج ، فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدى المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا . »

غضب بنو هاشم ومن كان بالعراق من وجوه القوم لاستسلام المأمون لوزيره الأكبر ، واستخفوا بالحسن بن سهل ، فانفرط عقد النظام والأمن وتحركت الفتن والثورات فى البلاد والأمصار . فخرج محمد بن ابراهيم ابن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن على بالكوفة وعاضده أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى ، وكان سابقا من رجال هرثمة المخلصين ، واستطاع محمد ويعرف بابن طباطبا بمعاونة صديقه أن يستولى على البصرة ومعظم بلاد العراق . وضرب نقودا باسمه وكتب عليها : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » ، وانتصر على جيش أرسله اليه الحسن ابن سهل بقيادة زهير بن المسيب ، وأرسل رسله الى مختلف بلاد العرب ينشرون دعوته ، ولكنه مات فجأة فى أول رجب سنة ١٩٩ ، فاقام ابو السرايا مكانه علويا آخر وهو محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين ، وكان غلاما أمرد ، فأرسل الحسن بن سهل جيشا ثانيا ، فانتصر عليه أبو السرايا انتصارا باهراً فى رجب من السنة عينها ، وقتل قائده ، واستباح عسكره ، وكبر شأن أبى السرايا نتيجة لهذه الانتصارات ، واشتد ساعد العلويين ، وخاف الحسن ابن سهل عواقب انتشار الفتن ، ورأى أن هرثمة هو القائد الذى يستطيع أن يقضى على تلك الثورة ، فأرسل اليه يسأله العودة الى بغداد ، وكان قد وصل الى حلوان ، فأبى العودة ، ولكن الحسن ألح عليه راجيا ، فعاد وجهز نفسه للزحف على الكوفة . وبعد أن اختار جنده خرج بهم ، واستولى على المدائن ، وطرد منها عمال أبى السرايا ، وعند قصر ابن هبيرة تقابل مع قوات الثائر وتغلب عليها ، وفر أبو السرايا الى القادسية فى المحرم سنة ٢٠٠ هـ

ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ، ثم خرج أبو السرايا من القادسية الى مدينة السوس من بلاد فارس ، وهناك قابله الحسن بن على المأمونى وقاتله قتالا شديداً ، وتغلب عليه ، وجرحه جرحا بليغا ، وفر من الميدان طالبا منزله برأس العين ، ولكنه وقع فى يد رجال ابن سهل ، وكان مقيما بالنهروان فأحضروه اليه فضرب عنقه ، وأرسل رأسه الى المأمون فى مرو ، وبعث بجسده فصلب على جسر بغداد ، واستراح المامون من شر ثائر قوى دامت ثورته عشرة أشهر ، أما غلامه العلوى فقد عفا عنه المأمون وأدخله فى حاشيته

استرجع جيش المأمون البصرة ، وأخذ عاملها من قبل أبى السرايا أسيرا وكان رجلا ظالما عرف بالحراق ، لكثرة من أحرق من العباسيين بالنار ، وما أحرقه من دور البصرة ، ثم استمرت قوات الخليفة تعمل على استرجاع البلدان فى الحجاز واليمن من العمال العلويين الذين كان أبو السرايا قد اقامهم يحكمون باسم خليفته ، وكان هؤلاء الولاة قد ساءت سيرتهم ، وكثرت شرورهم ، وبخاصة فى مكة والمدينة ، مما أدى الى إثارة الرأى العام ضدهم . وانتشرت الفوضى فى سنة ٢٠٠ هـ فى موسم الحج ، اذ تولاه اكثر من شخص لتتعدد السلطات ، « فندب المأمون أبا اسحاق بن هارون الرشيد ، ووجه ابراهيم بن موسى الطالبى الذى خرج باليمن رجلا من ولد عقيل ابن أبى طالب ، كما وجه غيره من يمثله ، مما يدل على الفرقة والانقسام ، وعلى الفوضى والاضطراب » ، ولكن هرثمة ورجاله تمكنوا من إعادة تلك البلاد الى حظيرة الدولة العباسية بعد أن تغلبوا على العلويين والطالبيين الواحد بعد الآخر ، وكان آخرهم محمد بن جعفر الصادق فان أهل مكة بايعوه بالخلافة بعد قتل أبى السرايا وقبلها بعد تردد ، وقد اشتهر بالورع والتقوى والعلم ، وبعد أن تلقب بأمير المؤمنين ومكث خليفة بضعة أشهر طلب الأمان

من ورقاء بن جميل رئيس القوة التى أرسلها هرثمة لأخضاع مكة فاجيب الى طلبه ، وعفا عنه المأمون ، وعامله بالحسنى

سقوط هرثمة وقتله :

نجح هرثمة نجاحا عظيما فى اخماد الثورات التى قامت بالعراق والحجاز واليمن وبعد أن تم عمله سار إلى النهروان ولم يذهب الى بغداد لمقابلة الحسن ابن سهل ، وهناك أتاه أمر الخليفة بتوليته سوريا والحجاز ، ولكنه عزم على السير الى مرو ليقابل المأمون ، ويطلعه على حقيقة الحال فى انحاء الاجزاء الغربية للدولة العباسية ، ويبين له ما وصلت اليه الاقطار بسبب استئثار الفضل بالسلطان فى الدولة ، وما يحيق بالخلافة العباسية من الاخطار بسبب بقاء الخليفة فى مرو والابتعاد عن بغداد ، فلما أحس الفضل بن سهل بما ينويه هرثمة أخذ يدس له عند المأمون بمختلف الوسائل وشتى الأساليب ، حتى تغير قلب الخليفة على قائده الكبير ، ولما وصل هرثمه الى مرو دق الطبول عند دخوله المدينة ، حتى يعلم المأمون خبر وصوله خشية أن يكتم الفضل هذا الخبر عن سيده ، ولكن قيل للخليفة عند ما سأل عن سبب دق الطبول أن هرثمة جاء يبرق ويرعد ، فازداد غضب المأمون واستدعاه ، ولما مثل بين يديه أغلظ له القول ، وعنفه تعنيفا شديدا ، ناسبا له ثورة أبى السرايا لأنه كان من جنده ، وكذلك مخالفته أوامر الخليفة لانه لم يذهب لاستلام منصبه عند ما جاءه الأمر بذلك ، ولما هم القائد بالكلام ليشرح لمولاه الحالة هجم عليه الحرس ، وانهالوا عليه ضربا ولكما على وجهه وجسمه ، ثم سحبوه بسرعة الى السجن حيث مات بعد زمن قصير متأثرا بجروحه ، ولقد نسب بعض المؤرخين موته الى أناس بعث بهم الفضل اليه فى سجنه فاماتوه ، وقد ورد فى كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٦٤ ما يأتى :

« وهكذا انطوت صحيفة هـذا القائد العظيم الذى ذب عن ملك المامون، وكافح فى توطيد دعائم الدولة من أفريقية الى خراسان، والذى يرجع اليه الفضل الأكبر فى انتصار المأمون على أخيه الأمين. ومات هذا القائد ضحية للسعاية ونكران الجميل، كما مات أمثاله من قبل من صناديد هذه الدولة من جراء السعاية والمنافسة، ومن جراء أعمال البطانة ودسائس الحاشية. »

كان من نتائج سقوط هرثمة أن ثار الجنود فى بغداد، وطردوا الحسن ابن سهل، وطردوا عماله منها، فخرج الحسن إلى المدائن، وارتد منها إلى واسط، وعمت الفتن والقلاقل المدينة، واستمرت فيها عدة شهور وسارت بغداد بسبب تلك الحروب مسرحا للنهب والسلب والتقتيل، وأصبح الامر فيها للغوغاء والفساق واللصوص، وأسرفوا فى غيهم إسرافا عظيما، مما فزع له أعيان المدينة ووجهاؤها، فاتفق رأيهم، وجمعوا جموعهم، وأخضعوا الغوغاء، وأعادوا الأمن والسكينة، وطلبوا الى المنصور بن المهدى أن يقبل الخلافة، فأبى ذلك، وقبل أن يكون أميرا على المدينة يحكمها باسم المأمون، ولكنهم ما لبثوا أن رأوا مصالحة الحسن بن سهل على أن يعود الى بغداد فعاد الى المدينة فى آخر سنة ٢٠٠ هـ وأصدر عفوا عاما، ووزع الأرزاق على الجند، ودفع لذوى المرتبات رواتبهم، فهدأت الأحوال ولكنها عادت الى سيرتها الأولى من الاضطراب بسبب بيعة المأمون لعلى الرضا بالخلافة من بعده

بيعة المأمون لعلى الرضا :

سبق أن قدمنا أن الفضل فى نصرة المأمون على الأمين يرجع الى أهل خراسان ووجوه القوم فيها بسبب تفضيله الفرس على العرب، واتخاذه

حاشيته وبطانته منهم مقدما أياهم على العرب ، وكان الفرس وعلى رأسهم ذو الرياستين يعجبهم أن يكون أمام المسلمين علويا ، وكثيرا ما قاتلوا فى سبيل رجوع السلطان الى بنى علىّ ، وكان المأمون متشبعا بالروح الشيعية يفضل الامام عليا على غيره من الخلفاء الراشدين ، اذ تربى فى أحضان جعفر البرمكى ، وهو فارسى من أهل الشيعة ، ولما كبر استوزر الفضل بن سهل ، وهو شيعى آخر ، ولذلك أراد المأمون أن يختار للخلافة من بعده علويا ، إرضاء لعقيدته أولا ، وترضية للعلويين ثانيا ، حتى يريح الدولة من شر خروجهم المتكرر ، ولكن فات المأمون ومستشاره أن زمن الصلح مع العلويين كان قد فات أوانه ، وأن العهد بالخلافة فى ذلك الوقت كان بمثابة طعنة نجلاء وجهت الى صدور العباسيين ، « اذ كان الشر قد استطار بين الفريقين ، وصار أمر الوفاق بينهم حلما ، وعاد الاقدام عليه سخفا وحماقة مهلكة . »

اختار المأمون فى شهر رمضان سنة ٢٠١ ﻫ لولاية عهده ، وللخلافة من بعده على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية ، وأمر الجند أن يطرحوا السواد لباس العباسيين الرسمى ويلبسوا اللون الاخضر وهو اللباس الرسمى للعلويين ، وأعلن للملاء أنه بحث بين العباسيين بحثا دقيقا فلم يجد من بينهم لائقا للخلافة من بعده ، ولذلك بايع على الرضا ، وأرسل أمرا لولاته فى مختلف الامصار بأخذ البيعة لولى عهده ، وطلب الفضل بن سهل من أخيه الحسن أن يعلن الامر فى بغداد ويأخذ البيعة على أهلها لعلى الرضا ، ولما هم بتنفيذ الامر غضب أهل بغداد غضبا شديدا ، وثار العباسيون منهم إذ شعروا أن الضربة موجهة الى خلافتهم وأجمعوا رأيهم على خلع المأمون

وانتخبوا فى أواخر شهر ذى الحجة من السنة عينها ابراهيم بن المهدى، وكان صديقا حميما للأمين، خليفة بدلا من المأمون. وكان ابراهيم تعوزه الكفاية والمقدرة الشخصية، فلم يستطع القيام بأعمال الدولة، واضطربت الأحوال ونشب القتال بين جند المأمون وجند الخليفة الجديد، واضطر الحسن ابن سهل أن يخرج من بغداد، ويرتد الى واسط مرة أخرى، ثم امتدت الثورة الى باقى المدن، فثارت الكوفة وثار غيرها، وغرق الغرب فى لجج الفوضى وسقطت هيبة الحكومة، وتألمت البلاد والنواحى من جراء هذه الفوضى فأسرع على الرضا ودخل على المأمون وأخبره بحقيقة الحال فى امبراطوريته، وبين له ما جره سوء تصرف وزيره الفضل من البلاء على البلاد والعباد، وسرد له الحوادث المشئومة التى انتابت الدولة بعد قتل الأمين، وكاشفه بحقيقة شأن الفضل بن سهل وكيف أنه يخفى عنه أمور الدولة، فغضب المأمون غضبا شديدا لما سمع، وأخذ يسأل القواد ورؤس القوم عن حقيقة ما سمع، فأيدوا الحقائق التى سردها له على الرضا بعد أن أمنهم من غضب الوزير الداهية، ونصحوا اليه بأن خير علاج للتغلب على الازمة أن يعجل بالعودة الى دار السلام حتى يعيد الأمن الى نصابه، ويشرف عل محاربة المنافسين والخارجين عليه

عمل المأمون بنصيحة أصدقائه وترك مقره فى مرو عائدا الى بغداد وَصحبه وزيره، ولما وصل الى سرخس وهى مكان يبعد عن مرو بمسافة سفر يوم وقف قليلا للاستراحة، وفيها قتل الفضل بن سهل قتله جماعة بالسيوف وهو فى الحمام فى ٢ شعبان سنة ٢٠٢هـ، ولما بلغ الخبر المأمون غضب لقتل وزيره، وأمر بالقبض على القتلة، ولما قبض عليهم أمر بضرب أعناقهم، وأرسلها الى أخيه الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة واسترضاه بأن

عينه مكان أخيه وخطب ابنته بوران مع أنها كانت لاتزال اذ ذاك فى العاشرة من عمرها لنفسه ولم تزف اليه الا بعد ذلك بثمان سنوات ، وفى الوقت عينه زوج إحدى بناته لعلىّ الرضا ، وزوج بنتا أخرى لابنه محمد بن على الرضا ولقد كان حكيما فى هذه التصرفات ، اذ أرضى بتلك المصاهرات طرفى العلويين والفرس بعد أن تخلص من وزير منافق اشتهر بالمكر والخديعة استطاع بأساليبه الفارسية أن يسيطر على الدولة العباسية مدة أربع سنوات كاد فى نهايتها يجرها الى الخراب ومعها سيده ومولاه

تابع المأمون سيره ولما وصل طوس حيث كان قبر أبيه أقام فيها أياما طلبا للراحة ، وفى صفر ٢٠٣ ﻫ مات على الرضا فجأة ، وقد روى بعض المؤرخين أن سبب موته أنه أكثر من أكل العنب فمرض بالحمى ومات ، وروى آخرون أن المأمون دس له السم فى العنب ، ولكنها روايات تبعد عن الحقيقة ولا تدل ظواهر الروابط التى كانت بينهما على صحتها أذ أن المأمون حزن حزنا عميقا لموت صديقه ، وأمر بدفنه وبناء ضريح جميل له يعرف الآن بالمشهد ، وهو مزار للشيعة فى كل أنحاء المعمورة ، وقد خلفه فى الامامة ابنه محمد الملقب بالجواد وبالتقى

تخلص المأمون من مأزق حرج بموت على الرضا ، وأرسل الى بغداد يخبر أهلها بموته ، وطلب منهم العودة إلى طاعته ، إذ قد زال سبب خروجهم عليه ، فلاقت دعوته أذناً صاغية ، وصادفت هوى فى نفوس البغداديين لما كان عليه إبراهيم بن المهدى من ضعف وسوء إدارة ، وزحف المأمون نحو بغداد ، ولما قرب من المدائن خرج منها ابراهيم مرتداً إلى بغداد ، فدخلها المأمون ، ومنها خرج طالباً بغداد ، فلما قرب منها أخذ قواد ابراهيم وجنده يتركون الصفوف ، وينضمون إلى جند المأمون ، ولما رأى ابراهيم

أن مركزه أصبح لا يمكنه من الاستمرار فى القتال ترك المدينة وهرب بعد أن حكم نحو سنتين ، وظل مختفيا فى إحدى دور المدينة ، حتى سنة ٢١٠ ﻫ ثم خرج متنكرا فى زِىِّ إمرأة فى ساعة مبكرة إلى الطريق ، فاشتبه فى أمره رجال الشرطة ، وقبضوا عليه وساقوه إلى المأمون على الحالة التى كان عليها . فطلب العفو من الخليفة ، وعفا عنه المأمون وهو يقول «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »

دخل المأمون بغداد فى شهر صفر سنة ٢٠٤ ﻫ اغسطس سنة ٨١٩م فى موكب حافل ، واستقبل فيها استقبالا عظيما وعقد مجمعا من رجال الدولة ، وسألهم حاجاتهم ، فطلب طاهر وكان قد حضر من الرقة إعادة السَّوَاد شعار العباسيين وترك اللون الاخضر ، فأمر المأمون بذلك ففرح العباسيون بذلك فرحا شديداً

ثانيا : المأمون فى بغداد :

ابتدأ ملك المأمون الحقيقى عندما اتخذ حاضرة آبائه مقرا لحكومته وتجلت قدرته العالية ومزاياه العظيمة ، «وسَاسَ الامة سياسة لين لا يشوبه ضعف ، وقوة لا يشوبها عنف ، وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التى كانت لها فى عهد أبيه ، وعظمت بها الحركة العلمية » . وخلع المأمون الخلع السنية على القوّاد واشراف الدولة ورجالاتها ، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير أخيه ، وكان قد ظهر بعد اختفائه وساعد ابراهيم بن المهدى فى ثورته ، وعفا عن غيره من الذين كانوا مصدر الاضطراب والقلاقل ، فدل على تسامح وكرم عظيمين ، ثم ولى طاهرا حاكما على بغداد ، وأقام ابنه عبد الله واليا على الرَّقة ، ولكنه ما لبث أن أظهر كراهية لطاهر ، اختلف الناس فى أسبابها وأبعده عن جواره ، وعينه حاكما على خراسان ، وقد انتهز طاهر

تلك الفرصة وأدار البلاد بحزم وسداد رأى فتقوّى مركزه فيها ، وسولت له نفسه أن يخرج على المأمون ، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة ، وكان المأمون قد أرسل وراءه العيون والجواسيس ليكون دائم الاتصال بأخبار قائده الكبير ، فلما خطا طاهر خطوته الجريئة وصلت أخبارها فورا إلى الخليفة ، وما لبث أن ذاع خبر موت طاهر وهو فى فراشه وكان ذلك سنة ٢٠٧ ﻫ ٨٢٢ م ، وقد اختلف المؤرخون فى كيفية الموت ، ولكن المشهور أنه مات مسموما على يد عين من عيون المأمون . ولقد كان طاهر من رجالات الدولة المبرزين ، خبيرا بأمور الحرب وشئون السياسة ، وشغوفا بالعلم والأدب ، ومن آثاره فى ذلك تلك الوصية التى كتبها لابنه عبد الله حينما اختاره المأمون واليا على مصر وأرسله لمحاربة نصر بن شبث ، وتعد هذه الوصية ، « من الوثائق التاريخية التى لها قيمتها العلمية والادبية والاجتماعية والسياسية » ، وقد أعجب ببلاغتها المأمون إعجابا شديداً واستنسخها وأرسلها إلى عماله فى الولايات ، وقد أورد نصها الدكتور الرفاعى فى باب المنثور من كتابه الثالث فى المجلد الثالث فراجعه فى « عصر المأمون »

ولى المأمون أمر خراسان بعد وفاة طاهر ابنه طلحة وقد استمر ملك البيت الطاهرى بخراسان حتى سنة ٢٥٩ ﻫ ، وكانت تلك الولاية فى أثناء هذه المدة حسنة العلاقة بدولة الخلافة ، « والسبب فى دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ، ومن أجل ذلك كان الاتصال دائما بين مَرو وبغداد »

الحوادث الداخلية الأخرى:

أولا : علاقة المأمون بالعلويين:

ظل المأمون يعامل العلويين معاملة حسنة تتناسب مع اعتقاده فى فضل أبيهم إلى أن خرج عليه أحدهم ببلاد اليمن فى سنة ٢٠٧ ﻫ وهو عبد الرحمن بن أحمد ، فوجه إليــه المأمون أحد قواده المسمى دينار ابن عبد الله فتغلب عليــه ، ومن ذلك الوقت غضب المأمون على العلويين ومنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد ، ولـكنه أوصى بهم خيرا عنــد وفاته ، إذ جاء فى وصيته لأخيه المعتصم قوله : « وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فاحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأقبــل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها ، فأن حقوقهم تجب من وجوه شتى »

ثانيا : ثورة نصر بن شبث ومؤامرة أبن عائشة :

ثار نصر بن شبث على المأمون كما مرَّ بنا ، وأرسل الحسن بن سهل طاهرا لمحاربته ، ولـكنه لم يحاربه بيأس شديد بسبب الصدمة التى صدمه بها آل سهل حين حرموه من ثمار فتوحه فى العراق ، وظل نصر ثائرا حتى أرسل عبدالله بن طاهر لاخضاعه، فحاربه مدة خمس سنوات وضيَّق عليه، وقتل رؤساء من معه واضطره إلى طلب الأمان ، وسلم نصر نفسه إلى رجال المأمون بعد أن أقاق الدولة بثورته إقلاقا عظيما، وقد احتفل الخليفة بقدومه إلى بغداد فى سنة ٢١٠ خاضعا مستسلما احتفالا عظيما . وفى تلك الأثناء دَبَّر نفر مؤامرة لتكدير صفاء السرور الذى عم رجال الدولة بتسليم نصر وذلك بأن يقطعوا جسر الذوارق المقام فى عرض دجلة لمرور نصر عليه

عند اقترابه بموكبه الحافل ، وكان زعيم تلك المؤامرة إبراهيم بن محمد بن عبدالوهاب بن إبراهيم الامام المعروف بابن عائشة ، وكان يرمى بذلك إلى إثارة الخواطر وخلق القلاقل والعمل على اعادة إبراهيم بن المهدى للخلافة، ولكن رجال المأمون اكتشفوا خبر المؤامرة ، وقبض على زعيمها ، وعذبه المأمون عذابا اليما وحبسه فى المطبق ، ثم أمر بعد ذلك بأخراجه وقتله ، وقتل معه ثلاثة من رؤس المتآمرين وكان ذلك فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ٢١٠ ﻫ

ثورة الزط :

ورد فى كتاب الخضرى بك صحيفة ٢١٨ : « الزط معرب (جت) قال عنهم أبن خلدون هم قوم من اخلاط الناس ، غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد . وهم المعروفون بالنور اصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطىء الخليج الفارسى ، تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التى كانت بين الأمين والمأمون ، ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودى لحربهم سنة ٢٠٥ ﻫ ويظهر أنهم كانوا إذا أخرجتهم الجنود تفرقوا فى تلك الفيافى » . وقد استمر هؤلاء الثوار يعيثون فى الارض فسادا فى أيام المأمون ، ولم تخضع ثورتهم إلا فى أيام المعتصم مما سنبينه عند الكلام عليه

رابعا : الثورة فى مصر (٢٠٠ — ٢١٠ ﻫ)

انتهز عبيد الله بن السرى بن الحكم اشتغال عبد الله بن طاهر بأخماد الثورة التى قام بها نصر بن شبث وأثار بمصر فتنة ، وأصبحت هذه البلاد مسرحا للاضطراب ، وساء النظام فيها ، واختل الأمن بسبب قدوم جماعة

كبيرة من الاندلس ، فأن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل طرد عددا كبيرا من العرب من أسبانيا ، فجاءوا إلى الاسكندرية ونزلوا بالبلاد وهددوا الناس، وسلبوا الأموال وهتكوا الاعراض وظلموا العباد ، وبلغ الامر المأمون فأمر عبدالله بن طاهر بالاسراع لأخماد تلك الفتنة ، وكان قد فرغ من ثورة نصر ، فجاء عبدالله إلى مصر وطارد الثائرين مطاردة عنيفة وشتت شملهم ، وطلب الاندلسيون الأمان فأمنهم على أن يرتحلوا عن البلاد فرحلوا إلى جزيرة كريت واستوطنوها وأقاموا بها ، وكذلك تغلب على ابن السرى وأخمد ثورته ، وفرح المأمون فرحا عظيما لاخبار النصر وكتب يهنىء قائده بالفوز ، كما كتب إليه وزيره أحمد بن يوسف كتابا بليغا يهنئه فيه أيضا ، ولكن الفتنة عادت ثانية واندلع لهيبها

ورد فى كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٨٠ : « وقد خرج المأمون الى مصر فى ١٦ ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ ، إثر شخوصه إلى دمشق للمرة الثانية وكان خروجه الى مصر . فيما يقول الرواة ، لاخماد ما قام فيها من فتن واضطرابات ، وذلك إن اهالى الوجه البحرى خرجوا وفيهم أقباط البلاد على عيسى بن منصور عامل مصر ، لسوء سيرته فيهم ، ولقبح صنيعه معهم سنة ٢٢٠ ، فجاء المأمون إلى مصر ونظر فى أسباب الثورة وسمع ما نسب إلى سوء تصرف عامله فعمل على انصاف الناس ، واستعمل الحزم والقوة حتى أخمدت الثورة وأعاد الأمن والنظام إلى البلاد »

هذا ويقول المؤرخون إنه لبث فى مصر أربعين يوما انتقل فى أثنائها فى طول البلاد وعرضها، وقام ببعض اصلاحات فيها وعمر مقياس النيل بالروضة

خامسا : ثورة بابك الخُرَّمى (٢٠١ — ٢٢١ هـ) :

خرج بابك وهو من كورة فى شمال فارس تسمى البذ ثائرا على الدولة العباسية فى سنة ٢٠١هـ داعيا الناس الى اعتناق مذهبة الأباحى، وكان هو

وطائفته يدينون بما يريدون ويشتهون، وأباحوا المحرمات من الخمر وسائر اللذات ، ونكاح ذوات المحارم ويقال لهم الخرمدينية ، وجاء فى فهرست ابن النديم عن مذهب الخرّمية : «الخرمية صنفان : الخرمية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم . فأما الخرمية البابكية فان صاحبهم بابك الخرمى ، وكان يقول لمن اتبعوه : انه إله ، وأحدث فى مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك» وقد نشأ بابك بن بهرام بقربة تدعى بلاد أباد ، ثم اتصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية ، ولما مات جاويدان تزوج بابك بامرأته وخلفه فى نفوذه وولايته ، وأخذ يعيث ومن معه فى الارض فسادا ، ونشر مذهبه الأباحى ، وعرف المأمون خبره وكان لا يزال بمرو فشمر عن ساعد الجد فى مطاردته ، ولم تكن غايته اخضاع الثائر لسلطان الخلافة الاسلامية بل كان يرمى إلى القضاء عليه وعلى مذهبه وتعاليمه الضارة بنظم الحياة والاجتماع . ولما رجع الخليفة إلى بغداد عين أحد قواده المسمى يحى بن معاذ لحربه ، فتوجه اليه ولكنه لم يستطع التغلب عليه ، فأختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن ابى خالد ، وولاه أرمينية وأزربيجان وأمره بمحاربة بابك ، ولكنه نكب وفشل أيضا ، وأرسل الخليفة قائدا ثالثا فتغلب عليه بابك وأسره ، وفى سنة ٢١٤ هـ قتل بابك قائدا رابعا هو محمد ابن حميد الطوسى ، وفرق شمل عسكره وقتل عددا كبيرا منهم ، واستفحل أمر الثائر بعد ذلك ودخل فى مذهبه خلق كثير من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان وغيرها ، ولم يستطع المأمون ورجاله التغلب على بابك لأن الخليفه اشتغل بأمر الدولة البوزنطية . وظل بابك متحصنا فى ربوعه

ثائرا على الدولة حتى مات المأمون ، وكتب قبل موته يوصى أخاه المعتصم بشأنه يقول: « والخرمية فاغزهم ذا خرامة وصرامة وجلد ، واكنفه بالاموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة ، فأن طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، وأعمل فى ذلك مقدم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه . »

سادسا : زواج المأمون من بوران ابنة الحسن بن سهل فى سنة ٢١٠ ﻫ

تزوج المأمون فى شهر رمضان سنة ٢١٠ ﻫ خديجة المعروفة ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل، وكان قد خطبها بمرو كما تقدم لنا، وقد دلت حفلة عرسه لها على ما وصلت اليه الدولة العباسية من الغنى والجاه ، وكان الاحتفال بعرس الزواج بمدينة واسط احتفالا عظيما بلغت تكاليفه خمسين الف الف درهم ، وأنفقت أم جعفر « زبيدة » زوج الرشيد مبلغا كبيرا من المال فى حفلات العرس ، ولما سئلت عما أنفقت قالت : ما صنعت شيئا قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف الف درهم الى سبعة وثلاثين الف الف درهم . وقد احتفل أبوها بأمرها ، وعمل من الولائم والافراح ما لم يعهد مثله فى مصر من الامصار . « وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقوّاد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت فى يد الرجل فتحها ، وقرأ ما فيها ، ثم يمضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ، ويتسلم ما فيها ، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره ، فلم يكن فى العسكر من يشترى شيئا لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوما »

هذا وقد اشتهرت بوران شهرة كبيرة فى التاريخ، وجاء ذكرها على ألسنة الشعراء والمادحين، وذلك لنفوذها الكبير فى أيام الخليفة المأمون، ولكثرة ما بذلته من احسان وجود ، وقد عاشت نحو خمسين سنة بعد المأمون فرأت العصرين : عصر الفخامة والمجد فى الدولة العباسية ، وعصر اضمحلالها وانحلالها. وماتت سنة ٨٨٣ م

أحوال الدولة الخارجية فى عهد المأمون:

كانت سياسة الدولة العباسية فى عهد المأمون تتجه نحو سياسة التوسع وبسط النفوذ على الدول الاسلامية الأخرى المستقلة، ولطالما حاول المأمون إخضاع الدولة الأموية بالأندلس، وشجع دولة الأغالبة فى إفريقية — وكانت تخضع لسلطانه — على أن تعمل على إضعاف الأمويين، وفى سنة ٢٠٨ هـ ٨٢٣ م غزا زيادة الله بن الاغلب جزيرة صقلية، وأخضعها وضمها إلى الخلافة العباسية ، أما سياسته فكانت سياسة مهادنة ومصالحة فى أول أمرها نحو الدولة البوزنطية ، إذ لم تقع حروب بينه وبين الروم حتى سنة ٢١٥ هـ ، ولكن حدث بعد ذلك أن التجأ بابك الخرمىّ الى حدود الدولة البوزنطية وحرك الروم ضد المسلمين، وكان يجلس على عرش الدولة إذ ذاك ، توفيل بن ميخائيل الثانى الملقب بالتمتام. وأغار الروم على أملاك الدولة العباسية واستولوا على عدد من القرى ، وسلبوا الناس واعتدوا على أملاكهم وأعراضهم كما كانت عادتهم ، وعرف المأمون أمرهم فعزم على الخروج اليهم بنفسه . وفى مارس سنة ٨٣٠ م ترك بغداد بعد أن استخلف عليها اسحاق بن ابراهيم بن مصعب، وسلك طريق الموصل وسار حتى وصل إلى أنطاكيه ثم المصيصة ، ومنها خرج الى طرسوس وكانت الثغر الاسلامى

ومنها دخل بلاد الروم فى شهر يوليه من السنة عينها . وفتح عدة حصون ومعاقل ، وأرسل قواده يفتحون ويغزون . ثم جاء المأمون الى الشام ، ولما وصل دمشق علم بخروج ملك الروم وقتله بعض أهل طرسوس والمصيصة فرجع المامون لملاقاة الاعداء وانتصر عليهم وأجلاهم عن البلاد والثغور الاسلامية ، ففتح أخوه اسحاق المعتصم ثلاثين حصنا ، وغنم يحيي بن اكثم غنيمة كبرى من الأعداء . ثم سار المأمون بعد ذلك إلى كيسوم ثم الى دمشق ومنها خرج الى مصر فى ذى الحجة سنة ٢١٦ ﻫ وعاد الى دمشق فى السنة التالية

ودخل أرض الروم لثالث مرة بسبب انتصار توفيل على قواد الخليفة ثم عزم على أن يقيم سدّا منيعا فى وجه الروم فى مدينة طوانة وهى تبعد عن طرسوس بنحو سبعين ميلا وتقع فى شمالها واخذ يحصنها تحصينا قويا ، وفى هذه الغزوة كتب إليه أمبراطور الروم كتابا رد عليه الخليفة بكتاب آخر . وقد ورد نص الخطابين فى كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٩١

وفاة المأمون وأخلاقه :

كان المأمون يعسكر فى مكان يسمى « البدندون » بين مدينتى لؤلؤة وطرسوس . وكان يجلس مع أخيه المعتصم فى يوم حر من أيام الخريف على شاطئ نهر المدينة وخلعا حذاءهما ووضعا أرجلهما فى ماء النهر البارد ، فمرض الاثنان بالحمى ، ومات المأمون فى شهر رجب سنة ٢١٨ ﻫ اغسطس سنة ٨٣٣م وكانت سنه ٤٨ سنة وأربعة شهور ، وحمل الى طرسوس ودفن بها

وكان المأمون يميل إلى العفو ويكره الانتقام . وقد عرفنا أنه عفا عن الفضل بن الربيع وزير أخيه ، مع أنه عمل جهد طاقته على خلعه ونقل

الخلافة إلى غيره . وعفا عن إبراهيم بن المهدى مع أنه خرج عليه وأقام نفسه خليفة فى بغداد . ومما روى عنه إنه فى الغزوة الثانية ضد الروم اشترى سبى الروم بماله وأطلقهم ، وأعطى كل واحد دينارا دينارا ، ومن مزاياه إنه كان ميالا إلى الاقناع ، فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة ، « وله فى ذلك مجالس مأثورة مشهورة » ، وله فى الجدل حجج قوية ناصعة « مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره فى المناقشة » ، وكان عالما بدقائق الشئون فى دولته ، يعلم ما كان عليه رؤساء الجند وباقى رجال الدولة ، وكان فوق هذا أديبا يعرف جيد الشعر ورديئه ويحب الأدباء والشعراء . ولقد كان كريما سارت بكرمه الأمثال فكان يعطى عطاء من لا يخاف فقرا ولا يخشى إقلالا

هذا وجاء فى كتاب « السير موير » وصف لأخلاق المأمون نذكر ملخصه قال : « فمما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفا بالعدل والحلم ، وإنما يؤخذ عليه بأنه كان متقلبا فى أرائه وشعوره سواء أكان ذلك فى المسائل السياسية أم الدينية . ويرجع السبب فى ذلك إلى نزعته الفارسية التى ورثها عن أمه ، والبيئة التى ربى فيها من جهة ، وإلى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أننا مع اعترافنا بعدله ، لانستطيع أن ننزهه عن الجنوح فى بعض الأحايين إلى الجور واستعمال القسوة من غير مسوغ ، فأنه قد تصرف فى بعض الحوادث تصرف الجبابرة والقسوة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ماسودوا به صحائف تاريخهم .... ولو أغضينا عن الشبهات التى حامت حول مقتل الفضل ، وموت على الرضا غدرا وغيلة فأننا لانستطيع أن نغضى عن معاملته الجائرة لابن عائشة ، وما لقيه هرثمة وطاهر مع تفانيهما فى نصرته وتوطيد حكمه ، واضطهاده لكثير من

أجلاء المفكرين وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه فى بعض مسائل الدين فى مجلس المناظرة مما يدل على قسوته ، إلا اننا إذا راعينا طول مدة حكمه وموقفه النبيل فى عفوه عن الخارجين عليه فى بغداد ، نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جوره وقسوته ، وقصارى القول إن عصر خلافته كان بوجه الاجمال من أزهى عصور التاريخ الاسلامى . »

وجاء فى كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٣١ المجلد الاول عن شخصية المأمون فصل ممتع فراجعه

٢ — حضارة الدولة العباسية فى عهد المامون :

نتناول فى بحثنا هذا وصفا موجزا عن حالة الدولة السياسية فى عهد المأمون ، وعن كيفية ادارة الشئون فيها ، وعن حالتها العلمية ونهضتها الفكرية من وجهتها البشرية والدينية

أولا : وزراء المأمون :

جرى الخلفاء العباسيون على سنة الاستعانة فى إدارة شئون الدولة بافراد مبرزين فى الامور السياسية والحربية ، وذلك بسبب اتساع اطراف الدولة وتشعب نواحيها ، وكثرة شعوبها واجناسها ، وعظم علاقاتها الداخلية والخارجية ، ومن ثم نشأت ادارة حكومية مدنية ، تنظر فى الأمور وتصريفها بارشاد الخليفة وتحت اشرافه ، فكان الخليفة مصدر السلطان فى الدولة ومنبع القوة فيها ، ومنه تصدر الأوامر الادارية لمختلف الولاة والعمال ، وعنه يتلقى القواد ورؤساء الجند أوامرهم . وكان على رأس هذه الاداة الحكومية الوزير ، وكان عضد الخليفة وساعده الأيمن فى ادارة الشئون

وكان المسئول من الوجهة العملية عن حسن سياسة الدولة فى الداخل والخارج وكثيرا ما ترك الخلفاء لوزرائهم المسئولية الحكومية ، واطلقو أيديهم فى إدارة الامبراطورية ، فكان الوزير يولى ويعزل الموظفين ، ويسيطر على إيرادات الدولة ومصروفاتها ، ويشرف على مراسلاتها البريدية ، وجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية ، وكان فوق ذلك مستشارا للخليفة . وقد وصفنا فيما مر بنا نفوذ الوزراء فى عهد المهدى والهادى والرشيد والامين ، وقرأنا شيئا عن سيرة يعقوب بن داود ، والبرامكة ، والفضل بن الربيع ، والآن نذكر بعض وزراء المأمون ونصف مكانتهم فى عصره

اشتهر من وزراء المأمون الفضل بن سهل واخوه الحسن ، وكان الفضل أول وزراء المأمون ومن رجال جعفر البرمكى ، وكان سخيا كريما حليما بليغا ، عالما بآداب الملوك ، وكان يقال له الوزير الأمير ، وكان يميل الى الشيعة كباقى الفرس ، وكان له نفوذ كبير فى الدولة العباسية فى العصر المأمونى واليه يرجع الفضل فى انتصار المأمون على اخيه الأمين ، وهو الذى أشار على الخليفة بأقامة على الرضا ولى عهد للدولة بعده ، وحسن له الاقامة بمرو وأوقع بينه وبين القائد القدير هرثمه ، ولم يتمتع المأمون بمركز الخلافة تمتعا حقيقيا إلا بعد أن قتل الفضل . أما الحسن بن سهل فيقول عنه ابن طباطبا إنه كان اعظم الناس منزلة عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته فكان اذا حضر عنده طاوله فى الحديث ، وكلما أراد الانصراف منعه ، وهو ثانى وزراء المأمون بعد اخيه ، وقد جاء فى كتاب الاغانى إنه هو الذى توسط عند المأمون فى العفو عن ابراهيم بن المهدى . ثم اشتهر من الوزراء بعدهما أحمد ابن ابى خالد ، وكان كفئا قديرا ، بصيرا بالامور ، مقتصدا فى مكانته وسلطانه ويقال إن المأمون دعاه اليه عند ما أراد أن يستوزره وقال له : إنى كنت

عزمت ألا استوزر أحدا ، ثم عرض عليه الوزارة ، فتنصل منها وقال : « يا أمير المؤمنين : أعفني من التسمى بالوزارة ، وطالبنى بالواجب فيها و اجعل بينى وبين العامة منزلة يرجونى لها صديقى ، ويخافنى لها عدوى ، فما بعد الغايات إلا الآفات » ، ولذلك كان المأمون يحبه حبا عظيما ، وحزن عليه عند موته وحضر جنازته وصلاته بنفسه ، ورثاه بعد دفنه

واشتهر أيضا من وزراء المأمون أحمدبن يوسف ويحى بن اكثم التميمى وكان احمد بن يوسف معروفا بين أهل عصره بسمو المكانة فى العلم والادب والكتابة والشعر ، « وكان بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ذكيا سريع الخاطر ذا مروءة وكرم ، وكان لظرفه وفطنته ، وبصره بالأمور موضعا لرضا المأمون وعطفه عليه » ، اما يحى بن اكثم « فقد انخرط فى سلك القضاة صغيرا لنجابته ، ثم درج فى مناصب القضاء حتى تبوأ أسمى مناصب الدولة ، تبوأ منصب قاضى القضاة ، ومنصب الوزارة للمأمون منظورا اليه فى كل ما تولاه من المناصب بالتجلة والاكبار من الخاصة والعامة »

ثانيا : الجيش والقواد العظام فى عهد المأمون :

كان لأهل خراسان شأن كبير فى قيام الدولة العباسية ، ولذلك أصبح لهم مقام فى الامور العسكرية لايقل عما كان لقواد العرب فيها ، ولما جاء عصر المأمون واتخذ مدينة مرو مقرا لحكومته ، ازداد نفوذ الخراسانيين زيادة كبيرة ، وكان لهؤلاء عند الخليفة حظوة ، لأنهم هم الذين ناصروه وعاضدوه فى الخلاف الذى شجر بينه وبين أخيه الأمين ، وبفضل معاونتهم اعتلى عرش الخلافة ، ولذلك قدمهم على العرب ، واتخذ منهم الجند والقواد ، واعتمد عليهم اعتمادا كبيرا فى إدارة الشئون الحربية ، وفى الادارة

الحكومية الأخرى ، ونقص شأن العرب فى عهده ، ولم يظهر منهم فى عهده قائد معروف ، بل ظهر قواد آخرون من الاتراك وغيرهم . وقد روى الطيفورى أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان . قال اكثرت علىّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ، ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى ، خروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا ، إعزب فعل الله بك . »

يقول الخضرى بك : « وهذا تصريح عظيم من المأمون ، وهو يدل على أن تلك القوة العربية التى كان العالم الإسلامى يحس بوجودها ، وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت ، فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس ، ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها ، وكان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة ، أما العصبية العربية للعنصر العربى فقد اشرفت على الامحاء »

هذا وقد اشتهر من قواد الجيش طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، وإليه يرجع الفضل فى انتصار المأمون على جيوش أخيه الأمين كما تقدم لنا ، وقد عينه المأمون واليا على خراسان ، ويقال إنه اراد الاستقلال بتلك الولاية عن الدولة العباسية . وصعد المنبر فى سنة ٢٠٧ ﻫ فحمد الله وأثنى عليه ، ولم يدع للمأمون ، فكتب والى البريد الى الخليفة بذلك ، وفى تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتا ، واشتهر بعده ابنه عبد الله وهو الذى ضيق الخناق على نصر بن شبث ، ورده إلى طاعة المأمون، ثم سار إلى مصر بعد أن فرغ من محاربة نصر ، وكانت ثائرة ، وكان عرب

الاندلس يعيثون فيها فسادا ، فانتصر عبد الله انتصارا باهرا ، « وأصلح الدنيا وأمن البرىء ، وأخاف السقيم ، واستوثقت له الرعية بالطاعة »

وكتب اليه أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئه بذلك الفوز ، ثم ولاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان ، وطلب اليه محاربة بابك الخرّمى ، ولكن والى مصر مات فى سنة ٢١٢ هـ ، فولاه المأمون ولاية هذه الديار ، واستمر بها حتى مات فى عهد الواثق سنة ٢٣٠ هـ

ثالثا : الحركة العلمية فى عهد المأمون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم فى العصر العباسى ، وكانت خلافته أزهى عصور التاريخ العربى من الناحية الفكرية ، « وإن حكمه الذى دام نحو عشرين عاما قد ترك اثرا خالدا فى التقدم الفكرى للمسلمين فى جميع نواحيه ، ولم يقتصر تقدمهم هذا على فرع خاص من فروع العلوم والآداب ، بل تناول كل مظاهر الحركة الفكرية ، فتقدمت الفلسفة ، وخطت علوم الأدب خطوات واسعة ، كما خطت الرياضيات والفلك وعلم الطب وغيرها ايضا خطوات واسعة ، وانتقلت هذه العلوم وتلك الحضارة الى اسبانيا الاسلامية والقسطنطينية المسيحية ومنهما نقلت الى أوربا الحديثة ، ولقد رأى المأمون ان السعادة الحقيقة لشعبه لا تأتى الا عن طريق التربية والتهذيب ، ونشر العلم ، وتشجيع القائمين بامره ، ولذلك رفع مرتبة العلماء والمشتغلين بالعلم ، وربط لهم المرتبات والمعاشات ، ولم يشأ أن يكونوا عيالا على هبات أمراء الدولة واشرافها ، وفتح المدارس والكليات فى جميع النواحى والاقاليم ، واجزل لها المنح والهبات ، فنهضت البلاد نهضة علمية مباركة ، وأطلق للفكر حريته ، وأرخى لها عنانها ، وفتح صدره وبابه للعلماء والمتكلمين على اختلاف

مذاهبهم وعقائدهم الدينية ، وتسامح مع غير المسلمين تسامحا دينيا عجيبا ، وشجع البحوث العلمية والأدبية تشجيعا كبيرا ، وبذل جهد طاقته فى أثناء السنين الأخيرة من حكمه فى إنهاض البلاد علميا ، وعمل على إدخال العلوم العقلية ، وعلى تحرير العقل البشرى من قيود المشترعين وفقهاء الدين

ويقول القاضى صاعد بن أحمد الاندلسى — نقلا عن كتاب عصر المأمون — « إن العرب فى صدر الاسلام لم تعن بشىء من العلوم ، إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب . فأنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكرة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طرا اليها . فهذه كانت حالة العرب فى الدولة الأموية . فلما أدال الله تعالى للهاشمية ، وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها ، وهبت الفطن من موتها ، فكان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته فى الفقه ، كلفا بالفلسفة وعلم النجوم . ثم لما أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ، تمم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه ، وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وابقراط وجالينوس واوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعليمها . وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله فى خلقه ونخبة من عباده ، وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس فى دقة الصناعة العملية ، والتباهى باخلاق النفس والتفاخر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتفضلهم فى كثير منها ، فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى ، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم »

وكان المأمون يميل إلى الفاسفة والمنطق فدفعه هذا الميل إلى نقل كتب الفلسفة والمنطق من الامم المجاورة التى سبقت العرب فى الحضارة إلى اللغة العربية ، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة

ومن الكتب التى نقلت وترجمت فى عصر المأمون عن اليونانية كتب أفلاطون مثل كتاب السياسة ، وكتاب المناسبات . وكتاب الحس واللذة ، وكتاب أصول الهندسة وغيرها . وكتب أرسطوطاليس مثل كتاب البرهان ، وكتاب الجدل ، وكتاب الحس والمحسوس ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب النفس، وغيرها . ونقل من كتب أبقراط كتاب الامراض الحادة ، وكتاب الماء والهواء ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب الأخلاط وغيرها، وكذلك نقلت كتب جالينوس الستة عشر المشهورة ، ونقلت باقى كتبه الطبية مثل كتاب التشريح الكبير ، وكتاب منافع الأعضاء ، وكتاب تركيب الأدوية ، وكتاب مداواة الأمراض وغير ذلك . هذا ولم تقتصر حركة النقل والترجمة على نقل كتب الفلسفة والطب بل نقلت أيضا كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم مثل كتاب أصول الهندسة لاقليدس ، وكتاب المجسطى الشهير لبطليموس الفلوذى

وقد نقلت الكتب عن الفارسية مثل كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك ، وكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير نقلها عبدالله بن المقفع ونقلت كتب أخرى عن اللغة الهندية فى الطب والنجوم والرياضيات والحساب، وكانت هذه الكتب تنقل أولا الى الفارسية ثم تنقل الى اللغة العربية . وكذلك نقلت الكتب عن اللغة النبطية مثل كتاب الفلاحة النبطية وهو فريد فى بابه ، ونقلت كتب أخرى عن العبرانية واللاتينية والقبطية

«كان لنقل هذه الكتب آثار ونتائج فى العقلية العربية أولا ، وفى المدينة العربية ثانيا ، حتي أصبحنا نرى المأمون يضرب به المثل فى عظم الحركة العلمية . . . . . . والحق ان المأمون وعصر المأمون كانا متقدمين عن زمنهما ، اذا كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية فى ذلك الحين ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوربا وممالك أوربا . »

ونختم كلمتنا هذه عن الحالة العلمية فى زمن المأمون بما ورد فى كتاب الخلافة للسير موير كما ترجمه الدكتور الرفاعى فى كتابه صحيفة ٣٩٩ قال : «كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بانواع العلوم والفنون والفلسفة ، وكان أديبا مولعا بالشعر متمكنا منه ، ولقد حدث أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما انشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر وحار فى سرعة بديهته وكان مجلسه حافلا بالعلماء والادباء والشعراء والفلاسفة ، اذ كان يقربهم اليه ، ويجزل لهم العطاء . وكما كان عصره عامرا بالعلماء والادباء والنحاة فانه كان كذلك حافلا بجماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء كالبخارى ، والواقدى الذى نحن مدينون له باوثق السير عن حياة النبى والشافعى وابن حنبل ، وكان المأمون يجل علماء اليهود والنصارى ، ويحتفى بهم فى مجلسه لا لعلمهم فحسب بل لثقافتهم فى لغة العرب وحذقهم فى معرفة لغة اليونان وآدابها ، ولقد اخرجوا من اديرة سوريا وأسيا الصغرى ، سواحل الشام وفلسطين كتبا خطية فى الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلسفتهم ثم ترجموها

وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب إلى العالم الاسلامى ، ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة إلى اللغة العربية ، بل توسعوا وأضافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم . وأقاموا

مرصدا فى « سهل تدمر » مجهزا بجميع الآلات التى تمكنهم من النجاح فى دراسة علمى الفلك والهندسة والتوسع فيهما. وقد صنفوا كتبا فى الرحلات والتاريخ ، ولا سيما كتب الطب ، وعنوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهة ، إلا أنها كانت أكثر ذيوعا وانتشارا ، كالتنجيم والكيمياء . وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر فى نهضة أوربا التى كانت غارقة فى بحار الجهالة فى العصور الوسطى ، حيث أيقظتهم من غفلتهم ، وأنارت لهم سبل علومهم التى كانوا أغفلوها ، وهى علوم اليونان وفلسفتها . »

رابعا : الحركة المذهبية فى عهد المأمون :

ظهر فى عصر المأمون جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا فى البحث فى أصول الدين والعقائد ، وحكموا فى البحث عقولهم مستندين على أصول المنطق ونظريات الفلسفة التى تعلموها واتقنوا فهمها فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين باهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف . ودارت بين الفريقين رحى معركة كلامية ، وفتح المامون باب المناظرات بينهما ، واشترك فيها اشتراكا فعليا ، وأراد أن يخرج من هذا الجدل ومن تلك المناظرة بنتيجة حاسمة لتحرير العقل البشرى من القيود الدينية التى فرضها على الانسان فريق من العلماء يتجمدون على القديم ، ويتمسكون بحرفية النصوص الواردة فى الكتاب والأحاديث الشريفة . وقبل أن نصف ما دار فى تلك المسائل المذهبية يحسن بنا أن نثبت كلمة موجزة عن مذهب القدرية أو المعتزلة نقلا عما جاء بكتاب فجر الاسلام صحيفة ٣٣٨

القدرية أو المعتزلة

يدلنا تاريخ الفكر البشرى على أن من أولى المسائل التى تعرض للعقل عند ما يبدأ التعمق فى البحث مسالة الجبر والاختيار ، هل ارادتنا حرة تعمل ما تشاء وتترك ما تشاء ، وتشكل عملها كما تشاء . أو انا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ، وأن ارادتنا معلولة بعلل فاذا حصلت العلل حصل المعلول لامحالة ؟ وهى مسالة شغلت الفلاسفة ورجال الدين جميعا فى العصور المختلفة ، تعترضك فى الأخلاق ، وفى القانون ، وفى فلسفة التاريخ ، وفى علم الكلام ، وفى الفلسفة على العموم — وقد نشأت الأبحاث الدينية فى هذا الموضوع لما نظر الانسان فرأى أنه — من ناحية يشعر بأنه حر الارادة يعمل ما يشاء ، وأنه مسئول عن عمله ، وهذه المسئولية تقتضى الحرية ، فلا معنى لأن يعذب ويثاب اذا كان كالريشة فى مهب الريح لابد أن تتحرك بحركته وتسكن بسكونه — ومن ناحية أخرى رأى أن الله عالم بكل شىء ، أحاط علمه بما كان وما سيكون ، فعلم ما سيصدر عن كل فرد من خير أو شر ، وظن أن هذا يستلزم حتما أنه لا يستطيع أن يعمل إلا على وفق ما علم الله ، لحار فى ذلك بين الجبر والاختيار ، وأخذ يفكر هل هو مجبر أو مختار

وقد وردت آيات فى القرآن قد تشعر بالجبر ، ووردت أخرى تشعر بالاختيار ، ووردت أحاديث كثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم إن صحت تدل على تعرضه عليه السلام لمسألة القدر تصريحا أو تلميحا ، ولما انتهى المسلمون من الفتح وهدءوا وأخذوا يفكرون ظهرت هذه المسألة وكان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريانيون ، وتكلم

فيها الزرادشتيون كما بحث فيها النصارى ، فظهر فى الاسلام قوم يقولون بحرية الارادة معارضين فى ذلك الفكرة الشائعة بأن الانسان مسير لامخير ، وقد سمى هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة وبعبارة أخرى أن الانسان له قدرة على أعماله « بالقدرية » . وقد ذكروا أن من اسبق الناس قولا بالقدر مَعْبَد الجُهنى وغيلان الدمشقى . أما معبد فقد قتله الحجاج صبرا لخروجه مع ابن الأشعث ، وكان يجالس الحسن البصرى أولا وقد سلك سبيله كثير من أهل البصرة . أما غيلان الدمشقى فقد أمر هشام بن عبد الملك بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه لأن الناس اكثروا الوقيعة فيه والسعاية بسبب رأيه فى القدر

انتشر القول فى القضاء والقدر فى العصر الأموى واشتد الجدل فى هذا الأمر بين المتخاصمين، وقد اختلف الباحثون فى منبع هذه الحركة هل هو العراق أو الشام ؟ فيذهب بعضهم إلى أن العراق منبع ذلك ، بدليل أن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصرى وهو يسكن البصرة ، وأن منشأ الاعتزال كذلك كان فيها ، ويؤيد ذلك مارواه ابن نباته من أن منشأ هذا القول فى ذلك نصرانى من العراق اسلم وأخذ عنه معبد وغيلان، ويذهب آخرون إلى أن الحركة ظهرت فى دمشق متأثرة بمن كان يخدم من النصارى فى بيت الخلفاء . وقد قال ابن تَيْمِيَة أن اكثر الخوض فى القدر كان بالبصرة والشام وبعضه فى المدينة

وعلى العكس من هؤلاء القدرية طائفة الجبرية وكان أولهم جهم بن صفوان ، ولذلك تسمى هذا الفرقة الجهمية ، وكان يقول أن الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالا لابد أن تصدر منه ، وأن الله يخلق فيه الأفعال

كما يخلق فى الجماد . وكان الجهم من أهل خراسان من الموالى وأقام بالكوفة وكان فصيحا خطيبا يدعو الناس فيجذبهم الى قوله . ولم يشتهر بمسألة الجبر فحسب بل تعرض لشىء آخر لايقل عنه خطرا وهو القول بنفى صفات الله ، ونفى أن يكون لله صفات غير ذاته ، وقال إن ما ورد فى القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله فيجب تأويل ذلك ، وقال لايصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقضى التشبيه ، وقال إن القرآن مخلوق خلقه الله وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات ،فاذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم الاعلى التأويل ، وانما خلقه الله

وقد نهض كثير من العلماء لمقاومة هذه الحركة ، ونشطوا للرد على الجهمية نشاطا عظيما . هذا وقد ذابت القدرية والجهمية فى غيرها من المذاهب ولم يعد لهما وجود مستقل ، وظهر على أثرهما مذهب المعتزلة ، وكثيرا ما يُسمى المعتزلة بالقدرية لأنهم وافقوا القدرية فى قولهم « إن للأنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى » ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه — وأحيانا يلقب المعتزلة بالجهمية لأنهم وافقوهم فى نفى الصفات عن الله وفى خلق القرآن، وقولهم إن الله لا يرى يوم القيامة . ويذهب بعضهم الى أن اسم المعتزلة أتى من « ان واصل ابن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون و فسقوا بالكبائر ، خرج واصل بن عطاء على الفريقين، وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولأتباعهما معتزلون »

ويفهم من قول المسعودى فى مروج الذهب انهم سموا بالمعتزلة لقولهم بان صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة

كان كثير من المعتزلة لا يرضون عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون انفسهم أهل العدل والتوحيد ، وأشتهر من أوائل الداعين الى الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، وكان واصل من الموالى ولد فى المدينة سنة ٨٠ ه ثم انتقل الى البصره وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى سنة ١٣١ ه ، وكان خطيبا بليغا مقتدرا على الكلام سهل الالفاظ ، وأما عمرو بن عبيد فمولى كذلك تتلمذ للحسن البصرى ، واعتنق رأى واصل ابن عطاء فى الاعتزال ، واشتهر بالزهد والورع ، وقد مدحه أبو جعفر المنصور وتوفى سنة ١٤٥ ه وتتخلص تعاليم المعتزلة فى الاصول الآتية :

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين أى ان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار لفسقه . وكانت الخوارج تقول بكفر مرتكبى الذنوب ، والمرجئة يقولون بأنه مؤمن ، وقال الحسن البصرى إنه منافق ، فقال واصل إنه فاسق وله منزلة بين الكفر والايمان ، وقال إنه يخلد فى النار

(٢) القول بالقدر وأن الله لا يخلق افعال الناس ، وانما هم الذين يخلقون أعمالهم ، وانهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، ولهذا وحده يستحق ان يوصف الله بالعدل

(٣) القول بالتوحيد ، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات ازلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، والقول بوجود صفات قديمة

قول بالتعدد ، والله واحد لا شريك له من أى جهة كان ، ولا كثرة فى ذاته البتة

(٤) قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولولم يرد بها شرع ، وللشيء صفة فيه جعلته حسنا أو قبيحا ، فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسنا ، والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحا . والشرع لم يجعل الشيء حسنا بأمره به ، ولا القبيح قبيحا بنهيه عنه ، بل الشرع إنما أمر بالشيء لحسنه ، ونهى عن الآخر لقبحه ، ولا يستطيع الشرع أن يعكس لأن أمره ونهيه تابعان لما فى الشيء ذاته من حسن وقبح

كان علماء الحديث من أشد خلق الله كرها للمعتزلة والعكس ، ولما كانت الدولة للمعتزلة فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا بأهل الحديث تنكيلا فى فتنة خلق القرآن ، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون

هذا وقد نشأ الاعتزال فى البصرة وسرعان ما انتشر فى العراق ، وفى العصر العباسى تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان : مدرسة بالبصرة ومدرسة ببغداد . وكان المعتزلة أسرع الفرق الاسلامية للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم ، وهم الذين خلقوا علم الكلام فى الاسلام ، وأول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين ، وجادلوهم جدالا علميا ، وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله ، وما أثار اليهود والنصارى والمجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطا بديعا ، ويقول المرتضى عن واصل بن عطاء « إنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم فى فصاحة من القول

كان المعتزلة على الرغم من مجهودهم فى خدمة الاسلام والمسلمين

مكروهين من كثير من المسلمين لأسباب أهمها : أنهم خالفوا اهل الحديث فى كثير من أرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة ، ومنها أنهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة ، ومنها أنهم فى أيام سلطتهم فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا بالناس فى القول بخلق القرآن ولم يسيروا سيرة فلسفية فى الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة ، بل حملوا الناس على القول برأيهم بالسيف

دار النزاع فى زمن المأمون بين المعتزلة وفقهاء العامة ولم يكن لاصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة قبل زمنه حرية البحث ، واظهار الآراء ، بل كانوا يخشون بأس العامة ، مالم تكن له قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة ، لأن القوة فيها ، فلما جاء المأمون وكان تلميذا ليحى بن المبارك الزيدى المتهم بالاعتزال ، ومتصلا بثمامة بن اشرس زعيم المذهب الثمامى فى الاعتزال ، فنشأ معتزل النزعة ، ورأى أن يجمع اليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ، ويجعل لهم مجالس للمناظرة ، ويظهر أنه كان يرمى الى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى ، وتتفق كلمة الامة ولاسيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الامامة ، ولقد ورد فى تاريخ بغداد للطيفورى : « قال الثعلبى سمعت يحى بن اكثم يقول أمرنى المامون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا واحضرتهم ، وجلس لهم المامون فسال عن مسائل ، وافاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المامون يا أبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل اهوائهم ، وتزكية ارائهم ، فطائفة

عابوا علينا ما نقول فى تفضيل على بن ابى طالب رضى الله عنه ، وظنوا انه لا يجوز تفضيل على الا بانتقاص غيره من السلف ، — وبعد كلام طويل — قال : وانى لارجو أن يكون مجلسنا هـذا بتوفيق الله وتاييده ومعونته على اتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ماهو أرضى وأصلح للدين ، إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها . »

أباح المامون الكلام بين المتناظرين لدرجة كبيرة ، فقد تناظر فى مجلسه أثنان فى الامامة ، ونصر أحدهما الامامية ، ونصر الثانى الزيدية ، وهذان المذهبان كلاهما أن صحا يذهبان بما فى أيدى آل العباس . قال بشر المريسى « حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد بن أبى العباس وعلى بن الهيثم فتناظروا فى التشيع ، فنصر محمد بن ابى العباس الامامية ، ونصر على بن الهيثم الزيدية ، وجرى الكلام بينهما ، الى أن قال محمد لعلى يا نبطى ما أنت والكلام ؟ فقال المأمون — وكان متكئا فجلس — الشتم عىّ والبذاءة لؤم ، إنا قد أبحنا الكلام ، وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه ، ومن جهل الامرين حكمنا فيه بما يجب ، فاجعل بينكما أصلا فأن الكلام فروع ، فاذا افترعتم شيئا رجعتم الى الاصول . »

يقول الخضرى بك « كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى ، لأن العامة كانت تجلهم وتحترم أراءهم ، كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها »

لم يعتنق المأمون جميع آراء المعتزلة لأن لم يتفق معهم فى القول بالقدر وانما قال بخلق القرآن ، وأظهر رأيه فى ذلك سنة ٢١٢ هـ ، فغضب جمهور العلماء والفقهاء ، وقالوا إنه مبتدع ، وغلا بعضهم فى ذلك وقال بكفر من رأى خلق القرآن ، واتسع الخرق بين الفريقين ، وحاول المأمون أن يستعمل نفوذه

بصفته خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ليرد جماعة الفقهاء الى رأيه ، فكتب الى عامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم كتابا فى سنة ٢١٨ يأمره فيه أن يجمع الفقهاء والعلماء ، ويسألهم رأيهم فى خلق القرآن ، ويكتب اليه بأجوبتهم ومما جاء فى كتابه هذا ، ما يأتى : « فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن واحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فاذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، ولم يره والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم ، وتفقد آثارهم ، حتى لا تنفذ أحكام الله الا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والاخلاص للتوحيد ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك انشاء الله » ، ثم طلب منه أن يشخص اليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور وكان إذ ذاك يحارب الروم ولما مثلوا بين يديه امتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فاجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم الى بغداد وأمر اسحاق أن يعلن أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، ففعل ذلك اسحاق ثم أخلى سبيلهم . وكتب المأمون الى اسحاق كتابا ثانيا قال فيه : « وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الايمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهاد

ولا صدق فى قول ولا حكاية ، ولا تولية شىء من أمر الرعية »

جمع اسحاق نحو ثلاثين رجلا من العلماء منهم بشر بن الوليد وعلى بن أبى مقاتل وأبى حسان الزيادى وامتحنهم جميعا وارسل الى المأمون نتيجة الامتحان ، ولقد كان هؤلاء العلماء يجيبون أجوبة غير صريحة ، فاغتاظ المأمون وغضب غضبا شديدا ، وكتب الى اسحاق كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع ، وطلب اليه أن يحمل من لم يقل منهم بخلق القرآن موثقا الى عسكر أمير المؤمنين ، فاحضرهم اسحاق مرة ثانية وسألهم فاجابوا جميعا أن القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم، فامر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليوم الثانى أعاد عليهم المحنة فاجابه واحد من الأربعة فاطلقه ، وفى اليوم الثالث فعل كذلك فاجابه ثان، وبقى اثنان صمما على عدم الاجابة ، وهما أحمد ابن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما اسحاق الى طرسوس حيث كان المأمون وأرسل فريقا آخر بعدهما ، ولكنهم عند ما وصلوا مدينة الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم الوالى بها ثم أعيدوا الى بغداد. وقد استمرت هذه المحنة قائمة فى الدولة العباسية فى أثناء حكم المعتصم وابنه الواثق ولكن جاء المتوكل بعدهما فامر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون

وقبل أن نختم تاريخ هذه المجادلات المذهبية والمناظرات الدينية نرى أن ننقل لك كلمة موير فى هذا الموضوع كما ترجمها الدكتور الرفاعى صحيفة ٣٩٦ قال : « وفى الحق أن المأمون كان متعصبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديد الميل الى العلويين ، ونشأ عن ذلك فى السنوات الأخيرة من حكمه مزيج من حرية الافكار والتعصب . وكان المأمون فى بعض هذه المسائل واسع الحرية حقا لدرجة مدهشة . وقد الغى من بضع سنوات

مضت، الأمر الذى كان أسلافه قد أصدروه ، يحرمون فيه ذكر معاوية او أحد الأمويين بخير ، وأباح للمسيحيين حرية المناقشة فى أى الدينين أفضل : الأسلام أم المسيحية . غير أن ميوله الفارسية التى كان يجنح اليها دائما ، دفعته أخيرا أن يتناقش بحماسة فى نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة ، وأباح لهم المناقشة فى حضرته فى نظريات كان البحث ممنوعا فيها كعلاقة الانسان بخالقه ، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وأخيرا أعلن تحوله الى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر ، وأن القرآن وإن كان وحيا إلا أنه مخلوق ، بدلا من العقيدة التى كانت لا تنازع وهى ان القرآن أزلىّ غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليا اشرف الخلق بعد النبى ، وعلى هذه النظرية بنيت نظرية الأمامة المقدسة او الزعامة الدينية التى كانت تنتقل من عضو الى آخر من بيت علىّ ، وبدأ فى تلقين الناس أنه يوجد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها فى مسائل الدين ، وفسر القرآن تفسيرا من غير تقييد بلفظه ، وبذلك ذللت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو تقف عثرة فى تقدم العمران . . . وعلى مر السنين تحولت فكرة المأمون فى خلق القرآن من مجرد رأى الى اعلانه المشئوم الذى حمل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدة لهم . وقد ارسل الى والى بغداد وهو فى حملته الأخيرة على الروم امرا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم فى هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجابتهم ، وقد تأثر كثير من العلماء فى مجلس المناظرة الذى كان أشبه بمحكمة التفتيش ، حتى أظهروا القول

خلق القرآن ، إلا أن البعض بقى ثابتا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلى ، الذى حملوه مكبلا بالحديد الى معسكر الخليفة . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هددا بالقتل (وهما بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدى) ، وارسل عشرون منهم تحت خفارة حراس لينتظروا فى طرسوس عودة الخليفة من حروبه ، ولكن جاءتهم الانباء فى أثناء سيرهم فى الطريق بموت المأمون . ولقد سودت أمثال هذه الفظائع سمعة المأمون فى سنوات كثيرة . »

الباب السادس

عصر المعتصم والواثق

١ — أبو اسحاق محمـــد المعتصم

(٢١٨ — ٢٢٧ هـ) (٨٣٣ — ٨٤٢ م)

ولد أبو اسحاق محمد بن الرشيد فى سنة ١٧٩ هـ فكان أصغر من أخيه المأمون بتسع سنوات وقد شب شجاعا فأحبه المأمون وقدمه على ابنه وولاه عهده ، ولم يخبرنا المؤرخون عن الأسباب الحقيقية التى حالت بين المأمون وبين وصايته بالخلافة لابنه العباس مع أنه كان محبوبا من الجند ومن القبائل العربية حبا جما. وكل ما قيل فى هذا الصدد أن المأمون رأى أخاه المعتصم خير وسيط لاتباع السياسة التى رسمها للخلافة العربية لمـا اشتهر به من الحزم وبعد النظر فى تصريف الامور

لما علم الجند بوفاة المأمون ثاروا وانتخبوا ابنه العباس خليفة ، ولـكن العباس احتراما لوصية ابيه اعتذر لقواد الجند وسارع وأقسم يمين الطاعة لعمه ، فبايع الجميع الخليفة الجديد وتلقب بالمعتصم ، وأسرع عائدا الى بغداد فدخلها فى أول رمضان سنة ٢١٨ هـ بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة ، وحمل ما كان بها من السلاح والعدد وأحرق ما لم يقدر على حمله ، وأمر سكانها بالرجوع إلى بلادهم الاصلية

أحوال الدولة الداخليــة فى عهده :

يقول موير : « وسار المعتصم على خطة أخيه المأمون فى تعضيده لمذهب المعتزلة وتقديم الجند الاتراك على العرب ، وسمح للناس بحرية الرأى والـكلام فى مختلف الامور إلى درجة لم تـكن فى الحسبان قبل عصر المأمون ، ولـكنه

شدد النكير على من خالف مذهب المعتزلة ، وفرضه على الناس فرضا وطلب إلى العلماء والفقهاء الاعتراف بخلق القرآن ، وبأن الله لا يرى بذاته يوم القيامة ، وعاقب من خالف رأيه بالتعذيب والقتل ، وأعاد القبض على أحمد بن حنبل وناقشه فى آرائه الدينية ، ولما خالفه ضربه ضربا مبرحا وأمر بسجنه ، ومع ذلك كان عصره زاهيا بالحركة العلمية والفلسفية ، وفى عصره كتب الكندى الفيلسوف العربى مؤلفاته التى اشتهرت فى أوربا شهرة كبيرة»

ولقد اكثر المعتصم من جند الترك حتى ملأوا بغداد وما حولها واعتدوا على أهل المدينة وعلى نسائهم ، فهب البغداديون ودافعوا عن أعراضهم وأولادهم ، واشتبكوا فى معارك دامية مع أولئك الجند

كان الغرض من الاكثار من هؤلاء الأتراك أن يوجد الخليفة سنداً يستند عليه فى تنفيذ سياسته ، وعنصرا جديدا فى الجيش ليحفظ التوازن بين فرقه المختلفة ، إذ كان الخراسانيون يكونون معظمه ، وقامت الدولة العباسية على سواعدهم وكواهلهم ، فكانوا مصدر خطر يهدد الخلافة إذا انحرف الخليفة عن رؤسائهم

تألف جيش الترك من المماليك الذين استقدمهم الخليفة من أواسط آسيا ومن اليمن ومصر ، وكان مثلهم فى الدولة العباسية مثل الحرس البريتورى فى الأمبراطورية الرومانية وحرس الاسترلدزى فى الامبراطورية الروسية ، والحرس السويسرى فى عهد ملوك البربون فى فرنسا ، وكان لهؤلاء الأتراك شأن كبير فى تصريف أمور الدولة وبلغوا من الجاه وعلو المكانة مبلغا عظيما، واحتقروا العرب والفرس احتقارا شديدا : فانصرف العرب عن الحواضر الى البادية وبعد أن كانوا عماد الخلافة وسندها انقلبوا مصدر خطر يهدد كيانها

غضب أهل بغداد من تصرفات جيش المعتصم الأجنبى وارتفعت أصواتهم بالشكوى إلى الخليفة ، ولما رأى أن الفتنة على الأبواب تجنبها وقر رأيه على الرحيل من بغداد إلى مدينة سامرا وهى تقع فى الشمال الغربى للعاصمة ، وتبعد عنها بنحو ستين ميلا ، وفى سنة ٨٣٦ م رحل اليها هو وجنده من الترك . وبنى لنفسه فيها قصرا فخما وثكنات لجنوده الذين بلغوا إذ ذاك نحو ٢٥٠ الفا وبنى الاماكن لخيوله التى بلغ عددها ١٦٠ الفا وابتنى قواد الاتراك لانفسهم وحاشيتهم قصورا لا تقل فى فخامتها عن قصر الخليفة ، وعمرت هذه المدينة بانتقال مقر الحكم اليها ، وغير المتعصم اسمها إلى « سر من رأى » ، وظلت عاصمة للخلافة العباسية نحو خمسين عاما من سنة ٨٣٦ م إلى ٨٩٤ م وكانت مقرا الخلافة سبعة من الخلفاء

تنفست بغداد الصعداء بخروج جند الاتراك منها ، وتخلصت من شرورهم ، ولكن الخليفة وقع تحت تأثيرهم . فعظم امرهم واصبحوا شرا مستطيرا على الدولة العباسية فيما جاء بعد ذلك من عصور كما سيتبين لنا

ثورة الزُّط :

سبق ان تكلمنا عن ثورة تلك القبائل الهندية فى تاريخ المأمون ، ولكن المأمون مات وكانت لا تزال تلك القبائل ثائرة على الخلافة العباسية ، وعاثت فى البلاد فسادا ، وسدت طريق البصرة وحملت الاقوات وروعت الاهلين واخافت السبيل ، فاهتم المعتصم بأمر هؤلاء الثوار وارسل اليهم فى سنة ٢١٩ هـ أحد قواده الاكفاء المسمى عجيف بن عنبسة فخرج اليهم ، وعسكر فى مدينة واسط وسد الأنهار التى كان الزط يدخلون منها ويخرجون وحاصرهم وحاربهم حربا عوانا لمدة تسعة أشهر ، وقتل منهم خلقا كثيرين واضطرهم الى التسليم وأمنهم ثم حملهم فى اواخر سنة ٢١٩ هـ الى دار الخلافة على

سفن ، « واقبل بهم وكان عددهم ٢٧ الف انسان بين رجل وامراة وصبى حتى نزل الزعفرانية، وأقام بها يوما، وعبأهم فى زوارقهم على هيئتهم فى الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ ﻫ فمروا على المعتصم بتعبئتهم ثم عبر بهم الى الجانب الشرقى، فدفعوا الى بشر بن السميدع فذهب بهم الى خانقين ثم نقلوا الى الثغر الى عين زربة » وقد هاجمها البوزنطيون فى خلافة المتوكل سنة ٢٤١ ﻫ وذبحوا افرادها وشتتوا شمل من بقى حيا ، فتفرقوا فى أنحاء اوربا ومنهم تناسلت طوائف الاغجار التى تتجول فى سهول وممالك اوربا فى الوقت الحاضر ويعرفون بالنورة

القضاء على بابك الخرمى

أوصى المأمون أخاه المعتصم بمحاربة بابك والقضاء عليه ، وكان هذا الثائر قد استفحل أمره فى ازربيجان ، ونشر نفوذه حتي همذان ، ودخل فى بيعته خلق كثيرون واعتنقوا مذهبه ، فشمر المعتصم عن ساعد الجد وعزم على الخلاص من شره بكل ما اوتى من قوة ، فاختار أحد قواده الاتراك الذين اشتهروا بالبسالة والأقدام، وسيره اليه فى سنة ٢٢٠ ﻫ ، خرج القائد التركى ويسمى حيدر بن كاوس المعروف « بالافشين » لمحاربة الثائر على رأس جيش منظم ، وعسكر فى مدينة برزند ، ورم الحصون فيما بين برزند واردبيل ، واستعد للقتال استعدادا كبيرا . ووزع قواده على الحصون والمعاقل لحراسة القوافل والسابلة ، واطلق عيونه وجواسيسه حتي يعرف خطوات الثائر وحركاته ، واشتبك معه فى القتال ، واستمر يحاربه لمدة سنتين وانتصر عليه فى النهاية فى الربيع من سنة ٢٢٢ ﻫ ٨٣٧ م وفر بابك الى ارمينيا فقبض عليه احد امرائها وسلمه الى الافشين ، فرجع به الى

الخليفة ومعه أخوه عبد الله ، وكان رجوعه الى سامرا فوزا مبينا له ، إذ أراح المسلمين من شر ثائر روع البلاد و العباد مدة عشرين عاما، ولما قرب من المدينة كان فرح الخليفة شديدا حتى أنه كان يرسل اليه فى صبيحة كل يوم حلة شرف ومعها الهدايا الثمينة ، وخرج اليه هو واشراف الدولة واستقبله استقبالا باهرا ، وبعد أن رأى الخليفة الثائر أمر بقتله ، وصلب جسمه ، وقطع رأسه وأرسلها الى مدن خراسان ، أما عبد الله فقد أرسل الى بغداد حيث قتل وصلب بعد القتل على شاطىء النهر . ويقال إن بابك قد تغلب على ستة من القواد العباسيين ، وأنه ذبح ٢٥٥ الفا وحمل ٣٣٠٠ رجلا و ٧٦٠٠ امرأة أسراء ، وظلوا فى قبضته حتي خلصهم الافشين من الأسر

العلويون فى عهده :

توفى محمد الجواد بن على الرضا فى أول خلافة المعتصم فتولى إمامة الفرقة الاثنى عشرية بعده ابنه أبو الحسن على الهادى ، وفى هذا العهد خرج من الزيدية محمد بن أبى القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين ، وكان مقيما بالكوفة ثم خرج منها الى خراسان ، ودعا الناس الى بيعته ، فاجتمع اليه ناس كثيرون ، فاهتم بأمره عبدالله بن طاهر أمير خراسان وحاربه وقبض عليه ، وأرسله الى المعتصم فى سنة ٢١٩ هـ فسجنه بسامرا ، ولكنه تمكن من الهرب بعد قليل ولم يعرف له خبر بعد ذلك ، وقد انقاد إلى أمامته كثيرون من الزيدية « ومنهم خلق كثير يزعمون أنه لم يمت ، وأنه حى يرزق ، وأنه يخرج فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا ، وأنه مهدى هذه الامة »

مؤامرة عجيف بن عنبسة :

كان عجيف من قواد العرب الذين اشتهروا بالقوة والحزم ، وقد أدى للدولة خدمات جليلة الشأن وانتصر على الزط ، وأبلى بلاء حسنا فى الحروب ضد الروم ، ولكنه غضب على الخليفة لتقديمه قواد الترك عليه ، وأراد أن يثأر لنفسه ولجنده ، من هؤلاء الدخلاء الذين احتقروه وأساءوا إليه وإلى جنده ، فاغرى العباس بن المأمون على التطلع إلى عرش الخلافة الذى كان قد رفضه قبل ذلك ، ولما قبل العباس الفكرة انضم إليه قواد كثيرون من العرب وبعض الأتراك الناقمين على بنى جنسهم ، واتفق الجميع على الخروج على الخليفة يوم تسقط عمورية إحدى مدن الروم الذين كان الخليفة يحاربهم إذ ذاك ، واتفقوا أن يغتالوا المعتصم وهو يوزع الغنائم والأسلاب بين الجند ، ويغتالوا معه قائديه الافشين وأشناس

عرف الخليفة خبر المؤامرة ، وهاجم المتآمرين بنفسه ، وشتت شملهم ، وقبض على عجيف وقتل هو ومن معه . أما العباس فقد سلمه الخليفة إلى الافشين بعد أن اعترف له بكل دقائق المؤامرة وتفصيلاتها وقتله الافشين . « وكان من نتائج تلك المؤامرة كما يقول موير أن ارتمى الخليفة فى أحضان القواد الأتراك لحمايته، وأبعد عنه بالتدريج قواد الفرس والعرب . » فارتكب بذلك خطأ جسيما ظهرت عواقبه بعد ذلك

خيانة الأفشين وسقوطه ٢٢٥ هـ :

خرج على الخلافة أمير من أمراء طبرستان يسمى مازيار بسبب تنافسه مع عبد الله بن طاهر أمير خراسان . فانتهز الافشين تلك الفرصة وكان يحقد على عبد الله بن طاهر ، ويرغب فى حرمانه من ولاية المشرق ليحل محله ،

وشجع الثائر بمختلف الوسائل ، وكان يتطلع إلى قيادة الجيوش لمحاربة الثائر ، حتى اذا ما انتصر عليه ، أعجب به الخليفة وولاه خراسان ، ولكن الخليفة ترك لعبد الله أمر محاربة الثائر ، ونهض عبد الله لمحاربة مازيار وأرسل اليه جيشا قويا بقيادة عمه الحسن بن الحسين بن مصعب فاستطاع بمساعدة الجيوش الأخرى التى أرسلها المعتصم أن يضيق الخناق على الثائر ، وحاصر طبرستان من كل جانب فرأى مازيار بعد ذلك أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فأمنه وسلمه إلى محمد بن إبراهيم بن مصعب قائد الخليفة ليسير به إلى المعتصم ، ولما مثل بين يدى الخليفة اعترف بتحريض الأفشين له ، واطلع الخليفة على الكتب التى أرسلت اليه من قبله . فغضب المعتصم وأمر بالقبض على القائد الخائن وسجنه ، ثم أخرج من السجن واتهم بالكفر والكيد للاسلام . وطلب إلى وزيره محمد بن عبد الملك الزيات للتحقيق معه ومناظرته وسؤاله عن التماثيل التى كان يجمعها فى منزله ، وقد أرسل إلى بعض الامراء من صغد للشهادة على ما ارتكبه الأفشين من المخالفات وعلى ما كان يكنه من العداء نحو المسلمين والاسلام ، وبعد محاكمة طويلة أعيد الأفشين إلى سجنه ومات فى سجنه سنة ٢٢٦ ﻫ على أثر أكلة فاكهة أرسلت اليه من قبل الخليفة ، فاخرج جسمه من السجن وصلب ثم أحرق ، أما مازيار فقد ضرب ضربا أليما مات بسببه

يقول موير « إن محاكمة الافشين أضاءت أمام الخليفة وحاشيته الطريق ، وأظهرت له ما كان هؤلاء المجوس يضمرون نحو الاسلام ، وأن غالبية الفرس كانت تعتنق هذا الدين ظاهريا ، وكانت تترقب الفرصة للرجوع إلى دينهم ، وما ثورة بابك والمبرقع الخراسانى وغيرهما إلا دليل واضح على هذا الميل . »

ثورة أبى حرب المبرقع اليمانى بفلسطين

كان جند الأتراك لا يحترمون حقوق الأفراد ولا يراعون حرمة المنازل، فنشأ عن ذلك أن خرج على الدولة أبو حرب المبرقع اليمانى، وسبب ذلك أن دخل أحد جند الترك منزله وهو غائب فمنعته زوجه، فضربها بسوط على يدها، فلما جاء زوجها وعرف الخبر حمل سيفه وذهب إلى الجندى وقتله، ثم فر إلى جبل من جبال الأردن، وألبس وجهه برقعا كيلا يعرف وكان يظهر بالنهار ويدعو الناس إليه، ونشر أمره بينهم، فالتف حوله جماعة من رؤساء اليمانية وكبر شأنه، وعلم المعتصم بخبره، فارسل اليه رجاء بن أيوب الحضارى أحد قواده، فتغلب عليه، وشتت شمل أنصاره، وقبض عليه، وحمله إلى المعتصم أسيرا

أحوال الدولة الخارجية فى عهده :

انتهز البوزنطيون فرصة اشتغال الدولة بمحاربة بابك، وأغار توفيل أمبراطورهم على أملاك المسلمين، ودخل زبطرة وملطية، وأحرق المنازل وقتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية، وعذب الأهلين عذابا أليما، ومثل بهم أفظع تمثيل، وتقدم حتى دخل سوريا، ووصلت أخبار تلك الفظائع إلى مسامع الخليفة، ويقال إنه أخبر بنداء سيدة هاشمية تستنجد به من ظلم الروم وقسوتهم، فهب من فوره يستعد للقتال، واستعد استعدادا كبيرا وفى الربيع من سنة ٢٢٣ ﻫ خرج بجيشه إلى طرسوس. وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق على رأسها قواد من الأتراك، فكان على المقدمة اشناس ويتلوه محمد بن إبراهيم المصعبي، وعلى الميمنة ايتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار، وأمر الأفشين أن يمضى فيدخل بلاد الررم، وحدد له

يوما أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة ، وسار الأفشين والتقى بجيش الأمبراطور وهزمه بعد حرب ضروس ، وكان المعتصم قد دخل هو واشناس أنقرة من غير أن يلقيا حربا لتفرق الجنود التى كانت قد جمعت لمحاربة الخليفة ، وعند ذلك عزم المعتصم على الزحف على مدينة عمورية وهى مسقط رأس الأمبراطور ، وزحف عليها بجيشه وكانت المدينة محصنة تحصينا قويا فقاومت جيوش الخليفة مدة ٥٥ يوما ، واخيرا ضيق عليها المعتصم الحصار وأمطر أسوارها وابلا من الحجارة فاتلفها ، واستطاع جنده الدخول إلى المدينة ، وانتقم الخليفة من أهل المدينة انتقاما مرا وثأر لضحايا زبطرة وملطية وأسر وغنم ، ثم أحرق المدينة وعاد إلى طرسوس واضطر توفيل إلى طلب الهدنة فهادنه الخليفة فى سنة ٨٤١ م ورجع إلى سامرا منتصرا ، وكان رجوعه بعد ذلك الظفر يوما مشهودا ، وامتدحه الشعراء ومنهم أبو تمام حبيب بن أوس فقد قال إذ ذاك قصيدته المشهورة التى أولها

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الارض فى اثوابها القشب

الوزارة فى عهد المعتصم :

كان الفضل بن مروان هو أول وزير استوزره المعتصم ، وهو الذى أخذ له البيعة على الناس فى بغداد عندما بلغه خبر وفاة المأمون ، وظل وزيرا نحو سنتين استبد فى أثنائهما بالأمور ، واستقل بادارة الشئون دون الخليفة ، فكثر حساده وأوقعوا به عند الخليفة فغضب عليه ، وعزله

وأمر بسجنه ، ثم استوزر بعده الفضل أحمد بن عمار الخراسانى وكان وزيرا أميا ، لايحسن القراءة والكتابة ، فعزله الخليفة ، واتخذ مكانه محمد ابن عبدالملك المعروف بابن الزيات . فقام بأمر الوزارة خير القيام ، واستمر وزيرا حتى توفى المعتصم ، وكان عالما أديبا يجيد خدمة الملوك وكان يقول الشعر ولكنه كان شديدا فى معاملة الولاة ، الذين يصادرهم لارتكابهم الخيانة فى شئون وظائفهم ، وقد اشتهر فى هذا العهد أحمد بن أبى دؤاد الايادى وكان من المعتصم ، كيحيى بن أكثم من المأمون ، ولاه قضاء القضاة ، واختص به ، حتى كان لايفعل فعلا باطنا ولاظاهرا إلا برأيه . « فكان له فى حياة المعتصم مركز لايدانيه فيه أحد » وكان ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربى حتى عرف بالمروءة وكان يحمل فى سبيلها مالا يحمله أحد . « وكان وجود ابن أبى دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لأنه شجاع شديد عجول ، فكان إذا أسرع اليه الغضب هدأ ابن أبى داود حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير فى سبيلهما ، وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه . »

وفاة المعتصم وأخلاقه :

مات المعتصم يوم الخميس لثمان ليال مضت من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ وترك ولاية العهد لابنه هارون ، ولقد امتاز بالشجاعة والاقدام ، وشدة الناس ، وكان رحيما ، طيب القلب غيورا على الاسلام والمسلمين ، ولكنه لم يكن بعيد النظر فى العواقب ، وعليه وحده تقع تبعة ما حل بالعباسيين بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلاطينهم وما حل بالأمة العربية من تغلب العنصر التركى على أمورها

٢ ـ هارون الواثق بالله

(٢٢٧ — ٢٣٢) هـ (٨٤٢—٨٤٧) م

ولد ابو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم فى سنة ١٨٦ هـ ، وكانت أمه من سبايا الروم تسمى قراطيس ، وبايعه الناس بالخلافة عقب وفاة أبيه ، واعتلى عرش الدولة فى شهر ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ ، وقد ورث عن والده ميوله الفارسية ، وسار على خطته فى المسائل الدينية ، وأجبر القوم على اعتناق مذهب المعتزلة ، وكان مستبدا ضعيفا فى أدارة الشئون ، ولكنه كان شجاعا فى الأمور الحربية ، وكثيرا ما قاد الجيوش بنفسه فى ميادين القتال ، وقد اشتهر بحبه للعلويين ، فانه أكرمهم وأحسن اليهم ، وأجرى على أهل الحرمين أرزاقا كثيرة . وقد اختلف الكتاب فى تقدير صفاته اختلافا كبيرا ، فبينما نرى الكتاب الذين يناوئون الحركة الفكرية والنهضة المذهبية يحملون عليه حملات شديدة ، ويصفونه بالاستبداد والعجز ، وضعف الارادة ، وسوء الادارة ، نرى الفريق الآخر يمجده ، ويعلى من شأن حكومته ، ويصف عصره بعصر الحزم والعرفان ، وأنه كان محبا للأدب وأهله ، ميالا للشعر والموسيقى ، وكان محسنا لدرجة تفوق حد الوصف ، ويستشهد كتاب الفريق الأول على استبداده ، بالنكبة التي نكب بها الكتاب والعمال متهما إياهم بالخيانة وأخذ منهم الأموال التى ظن انهم اختانوه فيها ، ويروى عن سبب ذلك أنه كان يجلس ذات ليلة بين فريق من سمّاره فسأل عن اسباب نكبة الرشيد للبرامكة ، فأجابه أحد الجلساء ان سبب النكبة يرجع الى أن هؤلاء البرامكة ، استهلكوا الاموال ، وتعللوا فى انفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها فلما علم الرشيد بذلك وثب عليهم ، وأزال نعمتهم متمثلا بقول القائل « إنما العاجز من لا يستبد »

فقال الواثق صدق والله جدى ، انما العاجز من لا يستبد وأخذ يتهم كتابه بالخيانة ، وحصل منهم على مبالغ كبيرة من المال ، بلغت نحو مليونين من الدنانير ، ودل ذلك على ما وصلت اليه الدولة من سوء الادارة المالية ، وانتشار الرشوة بين طبقات الموظفين والعمال ، وجشع الوزراء والولاة

حالة الدولة الداخلية فى عهده :

اولا : الحركة المذهبية

اتبع الواثق سياسة المأمون والمعتصم الدينية . ومال إلى الاعتزال وعمل على نشره ، فقاومه فريق الفقهاء وأهل السنة ، واشتدت حركة المعارضة . وغضب أهل بغداد ، وتآمروا على الحكومة ورأس المعارضين احمد بن نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعى ، وكان فقيها اشتهر بالورع والتقوى ، وكان أبوه نقيبا من نقباء الدولة العباسية . والتف حول احمد خلق كثير وكبر شأنه واتفق الجميع على ان يتظاهروا بالأعلام والطبول محتجين على تصرفات الخليفة الدينية معلنين سقوطه . وضربوا لهذا الخروج يوما معينا . ولكن خبر المؤامرة اكتشف قبل نفاذها بيوم ، وقبض رجال الشرطة على أحمد بن نصر وزعماء المتآمرين ، وحملوهم إلى الواثق بسامرا « فجلس لهم الواثق مجلسا عاما لامتحانهم ، ولما حضروا إليه لم يناظر الواثق احمد بن نصر فى الشغب ، ولا فيما رفع اليه من ارادة الخروج عليه لكنه سأله ما تقول فى القرآن ؟ قال هو كلام الله ، ولم يزد على ذلك . وبعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله ، فقام الواثق إليه بنفسه وقتله ، وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه الى بغداد فنصب بها فى الجانب الشرقى ، وجعل فى اذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو احمد بن نصر بن مالك ، ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الامام الواثق بالله امير المؤمنين ، بعد ان أقام عليه الحجة

فى خلق القرآن ونفى التشبيه ، وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع الى الحق ، فأبى الا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذى عجل به الى ناره وأليم عقابه . وأن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه ، وتكلم بالكفر ، فاستحل امير المؤمنين دمه ولعنه . »

وقد اشتهر ايضا ابو يعقوب بن يوسف بن يحيي من علماء مصر وكان من اصدقاء الامام الشافعى ، وعلم بخبره الواثق فأرسل الى عامله ان يمتحنه فامتحنه فلم يجب . وامتنع ، فأرسل الى الواثق فأمر بسجنه ، وسجن ببغداد وظل مسجونا حتى مات فى سجنه سنة ٢٣١ هـ

هذا وقد استمرت هذه الاضطهادات الدينية طوال حكم الواثق ، ولكنها ابطلت فى عهد المتوكل الذى حكم بعد الواثق فأنه امر برفع المحنة ، وأن يترك الناس و شأنهم فيما يعتقدون ، وقد حمد الناس له هذه المكرمة وذلك التسامح وأثنوا عليه ثناء عظيما ، وتجاوزا له عما كان من هفواته

ثانيا : قامت الثورات عمت بلاد الخلافة ، فقام الخوارج بثورة فى بلاد الموصل ، وثارت جموع الكرد فى فارس ، وساءت الحال فى الشام وبلاد العرب ، وكانت الثورة فى تلك الأصقاع مما يهدد سلامة الدولة وينذر بسوء العاقبة ولذلك يحسن ان نورد شيئا عن أسبابها وسيرها ونتائجها

ثارت بلاد العرب بين سنتى ٢٣٠ و ٢٣٢ هـ وترجع أسباب تلك الثورة الى الاعتداءات التى قام بها بنو سليم من قيس عيلان فى المدينة المنورة وغيرها من مدن الحجاز ، وكانوا يسلبون الناس أشياءها وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة ، فوجه اليهم حاكم المدينة محمد بن صالح بن العباس قوة بقيادة حماد بن جرير الطبرى ، فقاتلهم بالقرب من المدينة فهزموه وقتلوه ، وعظم أمرهم بعد ذلك ، فوجه اليهم الواثق أحد قواده المسمى بغا الكبير ، فسار اليهم حتى وصل الى حرة بنى سليم وهناك قاتلهم قتالا عنيفا ، وتغلب

على قواتهم وشتت شملهم ، فطلب رؤساؤهم الأمان فأمن بعضهم ، وقبض على من اشتهر منهم بالشر والفساد ، وحملهم الى المدينـة فى شهر ذى القعدة سنة ٢٣٠ ﻫ وحبسهم فيها ثم سار الى مكة وأدى فريضة الحج ، وخرج بعد ذلك لمقاتلة عرب بنى هلال ، وبعد قتال طلبوا اليه أن يؤمنهم كما أمن اخوانهم من بنى سليم ففعل ، ولكنه أيضا قبض على أهل الشر منهم ورحل بهم الى المدينة وضمهم الى باقى المسجونين ، وبلغ عددهم جميعا نحو ١٣٠٠ رجل ، وسار هو الى محاربة بنى مرة ، وانتهز المسجونون هذه الفرصة ونقبوا جدار السجن وحاولوا الهروب فقاومهم أهل المدينة ، واجتمعوا عليهم ومنعوهم الخروج ، وقام عبيد الاشراف وذبحوا المسجونين جميعا ، ولما علم بغا بخبر ذبحهم حزن لذلك حزناً شديداً

استمر بغا يطارد الثوار والخارجين على الدولة من بنى مرة وفزارة وبنى كلاب ، واستطاع أن يشتت شملهم ويفرق جموعهم بعد أن قبض على كثيرين منهم ، ورجع بهم الى المدينة فى شهر رمضان سنة ٢٣١ ﻫ وحبسهم أيضا بها ثم خرج حاجا . وفى السنة التالية أرسل اليه الخليفة أن يخرج إلى غزو بنى نمير ويقضى على شرورهم . فمضى نحو اليمامة والتقى بجماعة منهم بموضع يقال له الشريف وحاربهم ، وقتل منهم عددا وأسر عـددا آخر ، ثم تقدم يطارد باقى الثوار حتى اجتمع بهم فى مكان يقال له روضة الأبان وبطن السر وطلب اليهم الخضوع والدخول فى طاعة الخليفة فامتنعوا فقاتلهم وانتصر عليهم فى النهاية ، وأمن الباقى من جموعهم ولما جاءوا اليه قبض عليهم وحملهم ورجع بهم الى البصرة ، فوصلها فى شهر ذى العقدة سنة ٢٣٢ ﻫ ، وطلب الى صالح بن العباس أمير المدينة أن يسير اليه بالمسجونين بالمدينة ، وتقابل الاثنان فى بغداد وسارا بمن معهما من الأسرى الى سامرا ، وهدأت الاحوال بعد ذلك فى سوريا وبلاد العرب وغيرها من أقاليم الدولة

حالة الدولة الخارجية فى عهده :

كانت الحروب لاتنقطع بين الدولة العباسية والدولة البوزنطية وقد سبق أن وصفنا تلك الحروب فى عصور الخلفاء العباسيين التى مرت علينا وكان المسلمون يأسرون من البوزنطيين، وهؤلاء يأخذون من المسلمين عددا كبيرا من الأسرى، ولما كانت تقف رحى القتال وتعقد الهدنة بين الطرفين «كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص اسراها حذرا من الاسترقاق» فكانتا تتفقان على المفاداة، كل أسير بمثله. وقد وقع هـذا الفداء فى زمن هارون الرشيد، ولما جاء زمن الواثق أرسل اليه أمبراطور الروم رسلا يسألونه أن يفادى بمن فى يده من أسارى المسلمين. فقبل الواثق الطلب، وقامت عملية الفداء فى يوم عاشوراء سنة ٢٣١ ﻫ على نهر اللامس قريبا من طرسوس وكان عدد من فودى به من المسلمين ٤٦٠٠

« ومن غريب ما حصل فى هذا الفداء أن احمد بن ابى داود القاضى أرسل مندوبا من قبله يمتحن الاسرى فى ميولهم الدينية حتى لايفدى منهم من لايقول بخلق القرآن، وهذا غلو قد وصل الى نهايته. »

وفاة الواثق وأخلاقه :

مات الواثق بعد حكم قصير دام خمس سنين وتسعة أشهر واياما فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣٢ ﻫ. وبموته انقضى عصر الدولة العباسية الذهبى ودخلت فى دور اضمحلالها وانحلالها، ولقد كان الواثق آخر من قاد الجيوش العسكرية فى ميادين القتال من الخلفاء العباسيين. وكان « واسع المعروف متعطفا على أهل بيته، متفقدا لرعيته مكرما لاهله مبغضا للتقليد وأهله. » ولكنه كان متعصبا لمذهبه، فأخذت مسألة خلق القرآن فى عهده شكلا حادا مما أدى الى الاضطهادات الدينية التى مر ذكرها

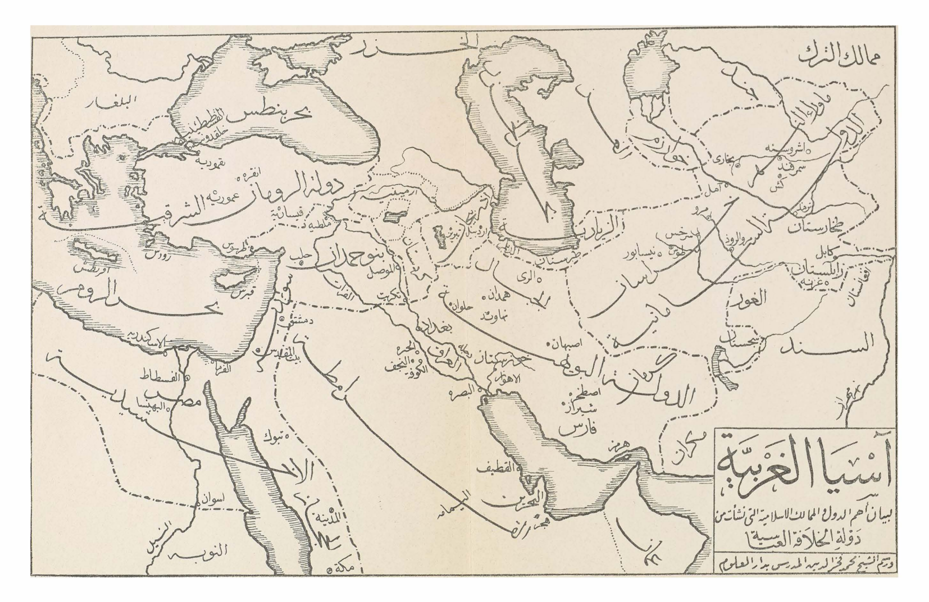
ولم يستوزر غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه، وكانت له الكلمة العليا فى ادارة الشئون، واشتهر من قواده بغا واشناس، وفى عصره ثبت قدم الاتراك واصبحوا أصحاب نفوذ ورأى فى أمور الدولة

الباب السابع

عصر نفوذ الاتراك

(٢٣٢ – ٣٣٤) هـ (٨٤٧ – ٩٤٦) م

امتاز هذا العصر بأزدياد نفوذ الاتراك وقوادهم ورؤساء جندهم ، واصبحوا اصحاب الحول والطول فى الدولة وشئونها : يولون من الخلفاء من شاءوا ويعزلون من شاءوا . ويسيطرون على الادارة الحكومية فى الداخل والخارج ، ويدبرون الشئون العسكرية ويقومون بتدبير المسائل المالية يساعدهم فى ذلك رؤساء الكتاب ووزراء السوء ، وضعف الخلفاء أمامهم ضعفا جعلهم يستأثرون بالنفوذ والسلطان فى الدولة ، واستعان بهم أعضاء البيت المالك للوصول إلى عرش الخلافة ، والتغلب على منافسيهم ، فكانوا مصدرا للقلاقل ومنبعا للفتن والدسائس ، وبدل أن يكونوا عونا للدولة ، وسياجا يصد عنها غارات المغيرين انقلبوا اعداء لها وجروها الى الاضمحلال والانحلال . فكان مثلهم فيها كمثل الانكشارية فى الدولة العثمانية ، إذ كانوا سببا فى قيامها ونهضتها وسببا فى اضمحلالها وسقوطها ، ولذلك أطلق المؤرخون على هذا العصر اسم العصر التركى تمييزا له عن العصر الفارسى الذى سبقه والذى كان فى أثنائه نفوذ الفرس كبيرا . وفى أثناء ذلك العصر تولى عرش الخلافة أثنا عشر خليفة ، كان أولهم جعفر المتوكل على الله بن المعتصم ، وآخرهم ابراهيم المتقى لله بن المعتمد ، وقد قتل منهم أثنان وخلع خمسة وتوفى الباقون . وفى أيام خلافتهم عمت البلاد



آسيا الغربية
بيان أهم الدول والممالك الاسلامية التي نشأت من دولة الخلافة العباسية
ورسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
ممالك الترك
البلغار
بحر بنطس
القسطنطينية
خلقدونية
دولة الروم الشرقية
أنقرة
عمورية
ملطية
رودس
قبرس
بحر الروم
الاسكندرية
الفسطاط
مصر
البهنسا
أسوان
النيل
النوبة
تبوك
المدينة
مكة
دمشق
بيت المقدس
حلب
بنو حمدان
الموصل
تكريت
بغداد
الكوفة
النجف
البصرة
الأهواز
اصبهان
همذان
نهاوند
حلوان
الري
طبرستان
خوارزم
بخارى
سمرقند
كش
اشروسنة
آمل
مرو
سرخس
طوس
نيسابور
طخارستان
كابل
زابلستان
غزنة
افغانستان
الغور
سجستان
السند
مكران
هرمز
اصطخر
شيراز
فارس
القطيف
البحرين
اليمامة
الدولة البويهية
خراسان

الفتن والاضطرابات ، وتناثرت عنها بعض اجزائها وظهرت فيها دويلات كان لها شأن كبير فى التاريخ واليك البيان

١ — المتوكل

(٢٣٢ — ٢٤٧) هـ (٨٤٧ — ٨٦١) م

ولد جعفر المتوكل على الله فى شوال سنة ٢٠٦ هـ بفم الصلح ، و تولى عرش الدولة فى اليوم الذى توفى فيه أخوه الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، ولقد كان الواثق غير راض عنه فى أيام خلافته ، وابعده عنه ، ووكل بمراقبته رجلين يحصيان عليه حركاته وسكناته ، ويخبران الخليفة عنها فى كل وقت ، ولما توفى الواثق فجأة ولم يكن قد عهد بأمر الخلافة إلى أحد ، اجتمع رجال الدولة الكبار ومعهم قواد الاتراك العظام ، وتباحثوا فى أمر الخليفة ، فاقترح فريق منهم أن يولى العرش ابن الواثق ، ولكن قواد الترك لم يوافقوا عليه لصغر سنه فأقترح ابن إبى دواد اسم جعفر بن المعتصم ليكون الخليفة بعد الواثق ، فاتفق رأيهم عليه واحضروه وسلموا عليه بأمارة المؤمنين ، وبايعه الناس ، ولقد كان قاسى القلب ظالما حتى أطلق عليه المؤرخون اسم نيرون المسلمين ، وفى عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية ، إذ ترك امور الدولة لقواده وكتابه ، وانغمس فى اللذات والشراب . وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين ، وساءت الأحوال ، وفى عهده أبطلت المناظرات الدينية ، وأعاد إلى الفقهاء وأهل السنة نفوذهم ومقامهم ، وطرد أهل الاعتزال من الوظائف العامة ، وأوقف القاء المحاضرات العلمية والفلسفية ، واضطهد الطوائف الأخرى ، وابعدهم عن وظائف الدولة ، وطاردهم مطاردة عنيفة ، والزمهم فى ٢٣٥ هـ أن يلبسوا لباسا خاصا بهم ومن كان عندهم من العبيد ، وحرم عليهم ركوب الخيل ، وأن يضعوا على

وجهات منازلهم صورة لأبليس، والا ترتفع قبورهم عن سطح الارض، والا يرسلوا أولادهم الى مدارس المسلمين ، وأمر بهدم الكنائس التى كانت قد بنيت حديثا فى انحاء الدولة ، وحرم على المسلمين أن يعلموا أولاد النصارى أو اليهود ، وكتب بذلك منشورا عاما أرسله إلى عماله فى الآفاق وكان ذلك بين سنتى ٢٣٥ و ٢٣٩ هـ

أحوال الدولة الداخلية فى عهده :

أولا : وزراء الدولة

بقى محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الاول فى الدولة فى بدء حكم المتوكل ، ولكنه كان يحقد عليه لما فعله معه فى حياة أخيه ، وترقب الفرصة للخلاص منه ، وبعد شهرين من اعتلائه العرش أمر فقبض عليه فى شهر صفر سنة ٢٣٣هـ ، وصادر جميع ماله من عقار ومنقول ، وصادر ضياع أهل بيته حيث كانت ، وعذبه عذابا أليما ، وظل هذا الوزير البائس يعذب حتى مات موتة شنيعة ، وبعد ذلك بخمسة أشهر أمر الخليفة بالقبض على عمر بن فرج وأخيه محمد بن فرج ، وصادر أملاكهما وامتعتهما وضياعهما وحصل منهما على مبالغ طائلة من الأموال ثم استوزر احمد بن خالد ، ولكنه غضب عليه بعد قليل وأمر بمحاسبته وأخذ منه مبلغا كبيرا من المال ، وحبس بسببه جماعة من الكتاب ، وأغرموا من المال قدرا كثيرا ، واتخذ بعده محمد بن الفضل الجرجرائى وزيرا له فظل فى وزارته الى سنة ٢٣٦ هـ . وفيها صرفه عن العمل لكبر سنه واختار بعده عبيد الله ابن يحى بن خاقان ، وقد بقى وزيرا له الى أن مات ، وكان مشهورا بالكرم وحسن الخلق وكان الجند يحبونه لذلك . أما احمد بن دواد فقد ظل يشغل

وظيفة قاضى القضاة حتى سنة ٢٣٣ التى مرض فيها ، وعجز عن العمل فأناب ابنه عنه فى القضاء وولاية المظالم ، ولكن المتوكل غضب عليهما وعزلهما ، وولى مكانهما يحي بن اكثم . وفى سنة ٢٣٧ هـ أمر الخليفة بحبسهما ومصادرة أملاكهما وأملاك باقى الأسرة ، وقد مات احمد فى السجن هو وابنه فى سنة ٢٣٩ هـ ويقال أن أحد أبناء القاضى الكبير اشترى حريته من الخليفة بدفع ستة عشر الف الف درهم

ثانيا : سقوط ايتاخ القائد التركى :

كان ايتاخ من قواد الدولة العظام ، وقد أبلى بلاء حسنا فى الحرب ضد الروم فى حصار عمورية فى زمن المعتصم ، وكان له فضل كبير فى مطاردة بابك الخرمى ، والقضاء عليه وكان له سلطان واسع فى الدولة ونفوذ كبير فحقد عليه المتوكل ، وأراد الخلاص منه ، ويقال إنه غضب عليه بسبب تطاوله عليه فى مجلس شراب ، ورأى أن الفتك به فى سامرا وهو بين جنده وقومه قد يؤدى الى نتائج لاتحمد عقباها ، فدس اليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ، ففعل وأذن له الخليفة ، وولاه امارة كل بلد يدخله وخلع عليه خلع الشرف ، وركب معه جميع القواد حتى اطمأن القائد التركى الى جانب المتوكل وأدى فريضة الحج ورجع الى العراق ، فأمر الخليفة اسحاق ابن ابراهيم المصعبى رئيس الشرطة ببغداد أن يلقى القائد ويخبره بأن أمير المؤمنين أراد أن يدخل بغداد ، ويستقبل بنى هاشم ووجوه القوم ويأمر لهم بالجوائز فدخل ايتاخ دار خزيمة بن خازم لينفذ أمر الخليفة وحجز رئيس الشرطة عنه غلمانه وقبض عليه وحمله الى داره ، وهناك قيده وأثقل بالحديد فى عنقه ورجليه ورماه فى السجن . فظل به بضعة اشهر ومنع عنه

الماء فمات عطشا فى سنة ٢٣٥ ﻫ وأمر الخليفة بالقبض على أبنائه وكتابه وسجنهم وظلوا بالسجون حتى مات المتوكل

ثالثا : العلويون :

كان المتوكل يكره على بن أبى طالب هو وآل بيته كراهية شديدة ، وكان جلساؤه وندماؤه يحقرون من شأن علىّ وذريته . ويحسنون له الوقيعة فى أسلافهم ، ويشيرون عليه بابعاد العلويين والاعراض عنهم والاساءة اليهم وازدادت تلك الكراهية حتى أنه أمر فى سنة ٢٣٧ ﻫ بهدم قبر الحسين ابن على بكربلاء ، وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من زيارة ذلك الموضع ، وهدد من خالف أمر الخليفة بالسجن ، فخاف الناس بطش الخليفة وعماله ، وامتنعوا عن التبرك بالقبر وموضعه ، وقد غضب الناس لذلك غضباً شديدا

ويقول المؤرخون إن تلك المعاملة القاسية كانت سببا من الاسباب التى دفعت ابنه المنتصر على قتله فيما بعد . وكان أبو الحسن على الهادى ابن محمد الجواد بن الرضا اماما للأمامية فى عهده ، وكان يقيم بالمدينة فوشى به الواشون فأمر الخليفة باستقدامه الى سامرا وأمره بالاقامة فيها ، فأقام ولكن السعايات لم تنقطع وأمر المتوكل بمهاجمة منزله ليلا . فلما هوجم المنزل وجد الأمام منفردا يصلى ويدعو الله ، ووجد المنزل خاليا من كل مابلغ الخليفة ، وحمل الامام الى المتوكل فى جوف الليل ، وادخل عليه وهو يشرب فأجلسه المتوكل الى جنبه وعرض اليه الكأس فاستعفى فأعفاه ، ثم طلب اليه أن ينشده شعرا فأنشده

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعدعز عن معاقلهم ... فأودعوا حفرا يابئسما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا   أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة   من دونها تقرب الاستار والكلل

إلى أن قال

وطالما كنزوا الأموال وادخروا   فخلفوها على الاعداء وارتحلوا
اضحت منازلهم قفرا معطلة   وساكنوها الى الاجداث قد رحلوا

فبكى الخليفة حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له باربعة آلاف دينار يقضى بها دينه ورده الى منزله مكرما

رابعا : الاضطرابات والفتن فى الدولة :

اضطربت أحوال الدولة فى عهد المتوكل، وانتشرت الفتن فى انحائها، فقامت الثورات فى سجستان وفى اذربيجان ولم تخمد تلك الثورات إلا بعد أن كلفت الدولة رجالا وأموالا طائلة، وكان رأس الفتنة فى اذربيجان محمد بن البعيث بن حلبس، ثم اختل النظام وفسد الأمن بالديار المصرية، وأغار الروم على الوجه البحرى ودخلوا الاسكندرية واحتلوها زمنا كبيرا، وسائت الأحوال فى الوجه القبلى، واعتدى المعتدون على قراه ومدنه، وأرسل المتوكل الجيوش والقواد لاخماد تلك الفتن، فاستطاعت اخمادها بعد عناء فى سنة ٢٤١ﻫ وحمل الجيش المنتصر زعيم الثوار فى القطر المصرى ويسمى على بابا إلى دار الخلافة. وهناك استقبل استقبالا عظيما وعفا عنه الخليفة وعهد اليه بالمحافظة على طريق الحج بين مصر ومكة

قامت الثورة فى أرمينية بين سنتى ٢٣٧ و ٢٣٨ ﻫ بسبب هياج البطارقة فيها وخروجهم على والى الخليفة وهو يوسف بن محمد فقد خرجوا عليه فى ٢٣٧ﻫ وقاتلوه وقتلوه وقتلوا معه عددا كبيرا من أصحابه، ولما بلغ

الخبر المتوكل أرسل اليهم بغا الشرابي وهو من قواد الترك مطالبا بالثأر فأخمد الثورة وقتل من الاهلين نحو ثلاثين الفا ، وسبي منهم خلقا كثيرا ثم سار محدقا بلاد أرمينية لارهاب عصاتها . وزحف على تفليس لاخضاع اسحاق ابن اسماعيل مولى الامويين ، وكان قد ثار على الخلافة العباسية ، وأقام نفسه أميرا مستقلا فى تلك الجهة ، وحاصر بغا المدينة فى سنة ٢٣٨ ، واحرقها واحرق من سكانها ما يقرب من الخمسين الفا وقبض على الثائر وضرب عنقه ، ثم زحف بعد ذلك على شواطىء بحر قزوين والبحر الاسود لاخضاع باقى امراء ارمينية الذين ثاروا على الدولة ، ورجع الى سامرا يحمل معه كثيرا من بطارقة اذربيجان واران وبعضا من أمراء أرمينية ، ويقال إن الخليفة أمر بضرب أعناقهم عند ما رفضوا اعتناق الاسلام

ثارت البلاد فى شمال سوريا بين سنتى ٢٤٠ و ٢٤١ ﻫ وقامت الفتنة فى حمص ، وطرد الثوار حاكمها فأمر الخليفة الجنود المرابطة فى دمشق والرملة بالزحف لاخضاع الثوار وقمع الفتنة ، ونجحت الجيوش فى اخماد الفتن وعاقبت المسيحيين الذين اشتركوا فى الثورة عقابا صارما ، وهدمت كنائسهم وأخرجتهم من المدينة

نقل عاصمة الخلافة الى دمشق :

أراد المتوكل أن يتقرب الى السوريين فعزم على ترك سامرا بعد أن مكث بها اثنى عشر عاما ، وخرج الى عاصمة الأمويين ليتخذها مقرا لحكومته حتى يتخلص من شر الاتراك وقوادهم . وفى شهر صفر سنة ٢٤٤ﻫ وصل إلى دمشق وابتدأ يشيد الاماكن والدور للمصالح الحكومية المختلفة ، ولكنه وجد أن حالة الطقس فى دمشق لا تناسب صحته ، فعدل عن رأيه ورجع الى سامرا ، وفى ضواحيها ابتنى ضاحية جديدة سماها الجعفرية ،

وبنى له قصرا فيها سماه «اللؤلؤة»، وانفق على تلك العمارة مبالغ طائلة واحاط قصره بالبساتين والحدائق، وأجرى اليه الجداول وملأه بكل أنواع الترف والنعيم

قيام الدولة اليعفرية :

اضطرب أمر اليمن فى خلافة المأمون اضطرابا شديداً فأرسل اليها محمد بن ابراهيم بن عبيد الله بن زياد بن ابيه فأخضع الثورة فيها وملكها، وفى سنة ٢٠٤ هـ بنى مدينة زبيد. وولى مولاه جعفر أعلى الجبال فعرفت بمخلاف جعفر. وملك اليمن بعده إبنه ابراهيم بن محمد، ثم زياد بن ابراهيم وتولى غيره أمر تلك البلاد التى خضعت لآل زياد حتى أوائل القرن الخامس الهجرى، وبعد ذلك انتقل ملك البلاد الى ملوك الأسرة الزيادية، وبقى الأمر لهم حتي سنة ٥٣١ هـ، واستولى على البلاد بنو مهدى وحكموها حتي انتزعها منهم توران شاه أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر فى سنة ٥٦٩ هـ، وقد قام فى تلك البلاد فى أواخر حكم المتوكل حكم جديد وهو حكم الدولة اليعفرية التى قامت بصنعاء ومؤسسها هو يعفر بن عبدالرحيم بن ابراهيم الحوالى، ولقد كان يعفر فى بدء أمره نائبا لآل زياد فى صنعاء، وكان يهابهم ويدفع لهم الخراج ولكنه استقل بالأمر فى سنة ٢٤٧ هـ وخلفه أعقابه فى صنعاء يملكونها ويستقلون بأمرها وظلوا كذلك حتى سنة ٣٨٧ هـ.

أحوال الدولة الخارجية فى عهد المتوكل :

كانت الحرب بين المسلمين والروم متصلة فى تلك العصور، وكانت الاغارات على الحدود من الجانبين لاتنقطع، وكان كل فريق ينتهز الفرصة

السانحة حتى يعتدى على الآخر ، فقد أغار الروم فى سنة ٢٣٨ ﻫ على مصر بطريق البحر ، ودخلوا دمياط وأحرقوا دورها ومساجدها وسبوا كثيرا من نسائها ، ونهبوا وسلبوا ثم رجعوا الى بلادهم سالمين ، وقام المسلمون وثأروا لنفسهم ، وأغاروا على أملاك الروم فى آسيا الصغرى ، وفى سنة ٢٤١ﻫ حصل فداء بين الطرفين على نهر اللامس ، وأطلق سراح الأسرى من الجانبين ، ولكن الروم اعتدوا على أملاك الدولة فى السنة التالية ، ونهبوا عدة قرى وأسروا عددا عظيما من الأهلين ، ووجه اليهم المتوكل قائده بغا فى سنة ٢٤٤ ﻫ ، فخرج من دمشق فى شهر ربيع الآخر وغزا الصائفة وافتتح صملة . ورجع الروم إلى غزوهم وأغاروا على سميساط . وقتلوا ونهبوا ، وخرج اليهم على بن يحيى الأرمنى أمير الثغور الشامية وطاردهم ، وفى سنة ٢٤٦ ﻫ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم على يد ذلك القائد ، ففودى بالفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا

تقسيم الدولة بين أولياء العهد :

عقد المتوكل ولاية عهد الدولة لاولاده الثلاثة تشبها بجده الرشيد وقسم بلاد الدولة وأقاليمها بينهم فى أواخر سنة ٢٣٥ ﻫ ، فولى المنتصر اكبر أولاده أفريقية والمغرب كله من عريش مصر الى بلاد المغرب ، وولاه العواصم والثغور السورية وديار مضر وربيعة بالموصل ، وكور دجله والحرمين واليمن ، وحضر موت واليمامة والبحرين وغيرها من الاقاليم فى غرب الدولة . وولى ابنه المعتز شرق الدولة فولاه كور خراسان وما يضاف اليها ، وطبرستان والرى وأرمينية ، واذربيجان وكور فارس وضم اليه فى سنة ٢٤٠ ﻫ خزائن بيوت الأموال فى جميع النواحى ودور

الضرب ، وأمر بضرب اسمه على الدراهم . وولى ابنه الثالث المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وفلسطين ، « وكتب بينهم كتابا يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم . وقد جعل المتوكل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالهما اذا آلت الخلافة للمنتصر ، بحيث لايجوز أن يشرك فى شيء من أعمال أحدهما أحدا ، ولا يوجه عليه أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ، ولا يضرب على يده فى قليل ولا كثير ، وكذلك جعل على المعتز للمؤيد اذا آلت الخلافة للمعتز ، وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ حفظت أحداها بخزائن أمير المؤمنين وأخذ كل من أولياء العهد نسخة . »

ولقد كان هذا التقسيم من أقوى الاسباب التى أثارت الفتن والقلاقل فى الدولة ، والتى جعلت المنافسة بين الاخوة على أشد ما يكون ، وشجعت الدسائس بينهم ، واتخذ كل منهم البطانة والأعوان حتى يتغلب على الآخرين

قتل المتوكل وأخلاقه :

تغير قلب المتوكل على بعض قواده من الاتراك وعمل على تدبير المكايد حتى يتخلص منهم الواحد بعد الآخر ، فشعر الاتراك بذلك ، وأخذوا حذرهم والتفوا حول المنتصر ولى العهد ، وحرضوه على الفتك بأبيه ، لأنه كان يقدم أخاه المعتز عليه فى أمور الدوَلة ، وفى الصلاة بالناس ، وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ، ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ، فأخذا يزينان للخليفة تقديم المعتز على أخيه ، فانتهز وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك فرصة غضب المنتصر وعملوا على الخلاص من المتوكل واقامة صديقهم على عرش الخلافة . وفى ليلة الأربعاء لأربع

خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ دخل جند الترك على الخليفة وهو فى مجلس الشراب، وقتلوه وقتلوا معه الفتح بن خاقان. وكانت هذه الحادثة «أول ثمرة لغرس المعتصم فانه ملك الخلافة قوما لا حلوم لهم، وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا، ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأمونا، واجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكا فى دم أبيه.»

اختلف المؤرخون فى تقدير صفات المتوكل واخلاقه، فذمه فريق الشيعة والمعتزلة والكتاب الذين ينتمون اليهم، ومدحه فريق الفقهاء واهل الحديث وجماعة النفعيين والشعراء مثل أبى عبادة البحترى الشاعر المشهور وإبراهيم بن العباس الصولى وغيرهما، وقال المسعودى: «وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحَمْد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء.»

٢ — محمد المنتصر

(٢٤٧– ٢٤٨ هـ) (٨٦١ – ٨٦٢ م)

ولد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم سنة ٢٢٢ هـ. وتولى ولاية العهد سنة ٢٣٥ وهو فى الثالثة عشرة من عمره، وبويع بالخلافة عقب قتل أبيه فى شهر شوال سنة ٢٤٧ هـ. ولقد كان للأتراك وقوادهم اليد الطولى فى اعتلائه العرش، ولذلك كبر شأنهم فى الدولة، وازداد نفوذهم، واخذوا يملون ارادتهم على الخلفاء فلا يستطيع هؤلاء أن يعصوا لهم أمرا، أو ينقضوا لهم رأيا: ومن ذلك اشاروا على المنتصر أن يخلع المعتز والمؤيد عن ولاية العهد وعمل بمشورتهم، وترك لهم الحرية فى تنفيذ ما أمر به، فأحضر كلًّا منهما وكتب كتابا يعترف فيه بعجزه عن تدبير شئون الدولة، وبضعفه عن

القيام بخلافة المسلمين ، ويحل الناس من البيعة التى كانت فى اعناقهم له . ثم توجه الاثنان إلى المنتصر فى مجلسه واخبروه بأمرهما ، فقال لهما والأتراك وقوف : « أترياني خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وابايع له ؟ والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط ، واذا لم يكن فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب الىّ من أن يليها بنو عمى ، ولكن هؤلاء (وأومأ الى سائر الموالى ممن هو قائم وهو قاعد) الحوا علىّ فى خلعكما ، فخفت إن لم أفعل أن يضربكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما ، فما ترياني صانعا ؟ أقتله ؟ فوالله ما تفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم ، فكانت اجابتهم الى ما سألوا اسهل علىّ » وهذا تصريح من جانب الخليفة خطير الشأن يدل دلالة واضحة على ما وصلت إليه الخلافة من ضعف

يقول الخضرى بك : « فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ماعقده المتوكل واكده بالأيمان والمواثيق والعهود ؟ »

كانت مدة المنتصر قصيرة لأنه مات فى شهر ربيع سنة٢٤٨ﻫ بعد أن شغل كرسى الخلافة نحو ستة أشهر . ويقال إنه ندم ندما شديدا على اشتراكه فى قتل أبيه ، وأنه كان لا يهنأ لا فى يقظة ولا فى منام حتى اعتلت صحته وانتابته الأمراض ، وتوفى متأثرا بسقامه . ووصفه سيد أمير على بأنه كان واسع الاحتمال ، صبورا ، كثير المعروف ، يميل الى الخير والسخاء ، كريم الأخلاق ، حسن المعاشرة ، يحب الرعية ، ويعمل على اسعادها . ولقد أزال عن العلويين ما كان قد اصابهم فى زمن أبيه ، وأعاد بناء ضريح الحسين ، رضى الله عنه ، وأباح للناس زيارته وزيارة غيره من قبور آل أبى طالب ، وأرجع للطالبيين ما كان قد صادره أبوه من أملاكهم وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم . « وقد أظهر الانصاف فى الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له »

ويقول موير «إنه أول من كان قبره ظاهرا من خلفاء العباسيين، فقد شيدته له امه وكانت من سبايا الروم اسمها حبشية لأن الخلفاء الذين سبقوه رغبوا فى أن يدفنوا فى قبور لا يعرفها الناس خشية نبشها»

٣ — أبو العباس أحمد المستعين بالله

(٢٤٨ — ٢٥٢) ﻫ (٨٦٢ — ٨٦٦ م)

اجتمع قواد الاتراك ورؤساء الجند منهم بعد موت المنتصر، وعقدوا مجلساً ضمهم وباقى الموالى من المغاربة والاشروسنية وتذاكروا فيما بينهم، من يكون خليفة للمسلمين؟ وبعد مناقشة اجتمع رأيهم على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لئلا يثأر لأبيه منهم. وانتخبوا للخلافة حفيدا من أحفاد المعتصم: وهو أحمد بن محمد بن المعتصم. فأعتلى العرش، وتلقب بالمستعين بالله، وبايعه الناس بالخلافة فى ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨ﻫ. وكان فى الثانية والعشرين من عمره، ولم يكن له من الخلافة الا اسمها ولقبها، وكانت السلطة الحقيقية فى ايدى الاتراك: يفعلون ما يشاؤن فى امور السلطنة، وكان الخليفة لا حول له ولا قوة حتى مثله بعض الشعراء بقوله

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقد استوزر المستعين «اتامش» أحد قواد الاتراك: فأستأثر بالسلطان، وتصرف فى مالية الدولة تصرفا أثار غضب باقى رؤساء الترك، فاجتمعوا عليه بقيادة وصيف وبغا، وهجموا عليه. وكان فى الجوسق مع المستعين، وقتلوه فى سنة ٢٤٩ ﻫ وقتلوا معه شجاع (كاتبه) ونهبوا داره، وأخذوا ما كان بها من الأموال والمتاع والفرش، واستوزر المستعين بعده أباصالح

عبد الله بن محمد ، وكان أبوه وزيرا للمأمون ، ولكنه ترك منصبه وفر إلى بغداد بعد ثلاثة أشهر من توليته ، لأن بغا الصغير غضب عليه وأراد الفتك به . ولم يستوزر الخليفة بعده غيره ، وترك للاتراك الحبل على الغارب فتنافسوا ، وحسد بعضهم البعض ، وكثرت الدسائس بينهم وكان وصيف وبغا صاحبى الحظوة عند المستعين ، فحقد عليهما باغر التركى — الذى تولى قتل المتوكل — وعمل على قتل المستعين وقتلهما . فعرف الخليفة الخبر ، واتفق مع قائديه على قتل باغر ، وقد كان . فغضب اتباعه ، وهاجوا هياجا شديدا ، فخاف المستعين سوء العاقبة . وترك سامرا . إلى بغداد ووصلها فى شهر المحرم سنة ٢٥١ هـ ، ونزل بدار محمد بن عبد الله بن طاهر وكان معه وصيف وبغا فنهض جند الاتراك فى سامرا وعلى رأسهم «بايكباك» وتوجهوا الى بغداد ، وتوسلوا الى الخليفة ليرجع الى مقر ملكه الأول ، فأبى . وغضب الأتراك ورجعوا الى سامرا ، واتفقوا على إقامة خليفة غيره ، وأخرجوا المعتز والمؤيد من سجنهما ، وبايعوا المعتز بالخلافة والمؤيد بولاية العهد

الخليفتان :

كان المستعين خليفة فى بغداد ، يناصره محمد بن عبد الله بن طاهر . وكان المعتز خليفة فى سامرا ، يعاضده الأتراك . وأخذ كل من الخليفتين يصدر الأوامر الى الناس والولاة فى مختلف الأمصار والأقاليم بأتباعه والخروج على غيره . وأخيرا قامت الحرب بينهما ، وأرسل المعتز الجيوش إلى بغداد تحت إمرة أخيه أبى أحمد بن المتوكل . وظلت الحرب قائمة طول سنة ٢٥١ هـ . وكانت بغداد فى أثنائها مسرحا للفتن والقلاقل ، وفى نهاية

تلك السنة انحرف أبن طاهر عن المستعين ، وفاوض المعتز فى أمر الصلح على شريطة أن يتنازل المستعين عن العرش ، وقبـل المعتز ما اشترطه المستعين لضمانة حياته وراحته ، وبايع المستعين المعتز فى بغداد فى شهر المحرم سنة ٢٥٢ هـ ، وخرج من بغداد الى مدينة واسط ، وفيها قتل قبل أن تنتهى السنة ، واختلف المؤرخون فى كيفية القتل . ويقول الطبرى : « وأتى سعيد بن صالح المعتز برأسه وهو يلعب بالشطرنج ، فقيل هـذا رأس المخلوع ، فقال ضعوه هنا لك ، ثم فرغ من لعبه ، ودعا به فنظر اليه ، ثم أمر بدفنه ، وأمر لسعيد بخمسين الف درهم ، وولى معونة البصرة . »

الأحوال الداخلية الأخرى فى عهد المستعين :

ساءت أحوال الدولة الداخليـة فى عصر المستعين ، واضطربت الأحوال اضطرابا شديدا ، وثار فى وجهه الثائرون فى كل جهة ، وابتدأت أجزاء الدولة تتناثر عنها ، وتكون دويلات مستقلة : فثار أحد العلويين بالكوفة ، وثار علوى آخر فى جهةطبرستان ، وقامت الثورة فى سجستان وثارت ثورة فى بلاد العرب ، وكانت الأحوال مضطربة فى الموصـل ، وفلسطين ، وحمص ، واصبهان ، وفى غيرها من البلدان والاقاليم . ونقتصر على ذكر الثورات التى قام بها العلويون لخطورة شأنها

الدولةالزيدية (٢٥٠ — ٣٥٥هـ) :

اشتهر من الزيدية فى عهد المستعين إثنان : أحدهما يحى بن عمر بن يحى بن زيد بن على بن الحسين — وكان من الحاقدين على العباسيين لأنهم لم يقضوا له حوائجه ويصلحوا من شأنه — فخرج بالكوفة ثائراً

والتف حوله خلق كثير من العرب، واستولى على الكوفة. ولما استفحل أمره وجه اليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشا بقيادة الحسين بن ابراهيم ابن مصعب ـ وكان قائدا قديرا عالما بفنون الحرب ـ فخدع يحيي وقاتله وقتل كثيرا من اتباعه وقتله أيضا وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٢٥٠ﻫ ، ثم أرسل رأسه الى ابن طاهر فحملها الى الخليفة بسامرا ، فأمر بنصبها على أحد أبواب المدينة ، فتذمر الناس واحتجوا ، فردها الى بغداد لتنصب بها . فثار البغداديون أيضا معلنين استياءهم لتلك الوحشية التى ارتكبت فى أحد احفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الرأس وحفظ فى صندوق فى بيت السلاح فى دار ابن طاهر

أما العلوى الثانى فكان الحسين بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن ابن زيد بن الحسن بن على ، فأنه ثار على الدولة العباسية فى شهر رمضان من تلك السنة عينها فى جهة طبرستان . وقال الطبرى عن سبب ثورته ما يأتى : إن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان، وذلك بعد أن انتصر على يحيي بن عمر ورجاله ، وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغرى طبرستان من نواحى الديلم وهما كلار، وسالوس . وكان لأهل تلك الناحية أرض فيها مراع لمواشيهم تقع بحذاء تلك القطيعة ، ووجه ابن طاهر جابر بن هارون لحيازة ما أقطع من تلك الأراضى ، وأراد جابر أن يستولى على القطيعة وعلى ما جاورها من أرض ، فغضب أهل تلك الناحية، وهبوا فى وجهه ، وانضم اليهم الديلم بسبب غضبهم من عامل طبرستان ، وهو سليمان عبد الله بن طاهر ـ وسوء تصرف رجاله فى تلك الجهة واتفق الجميع على محاربة من أساء اليهم ومن قصدهم بحرب ، ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه ، واختاروا الحسن بن زيد، « وكان مقيما

بالرى ودعوه اليهم وبايعوه . وزحف الحسن ومن معه على مدينة (آمل) حاضرة طبرستان واستولى عليها ، فكبر شأنه ، ومال اليه كل طالب نهب ومريد فتنة . وزحف من آمل الى سارية ـ حيث كان سليمان بن عبد الله ـ وتغلب عليه وطرده ، فتم له الاستيلاء على بلاد طبرستان . ثم أرسل من استولى على مدينـة الرى بعد أن طردت عنها عمال ابن طاهر ، وبذلك نجح الحسن بن زيد فى اقامة دولة زيدية بطبرستان ، واقتطع من ملك بنى العباس وعمالهم آل طاهر طرفا عظيما تحميه جبال طبرستان والديلم ، واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل »

استمرت الدولة الزيدية قائمة حتى سـنة ٣٥٥ هـ ، ولـكنها كانت عرضة لاغارة المغيرين ، وهجمات الفاتحين : فقد استولى على املاكها آل سامان وحكموها من سنة ٢٧٩ هـ الى سنة ٣٠١ هـ ، واستردها الحسن الأطروش بن على ولـكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية . فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الأطروش ، ولم يزل الخلاف قائما حتي انتهى أمر الدولة فى سنة ٣٥٥ هـ كما تقدم

أحوال الدولة الخارجية فى عهد المستعين :

كانت الحرب متصلة بين المسلمين والروم فى تلك الأزمنة ـ كما سبق أن بينا ـ وكانت الـكفة راجحة فى جانب المسلمين حتى زمن المستعين ، فان الروم انتصروا فى آسيا الصغرى على قائدين من أمهر قواد المسلمين : وهما عمر بن عبيـد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمني ، وقتلوهما وقتلوا معهما ثلاثة آلاف من جند المسلمين فى سنة ٢٤٩ هـ ولما وصلت أخبار تلك الهزيمة الشنيعة الى بغداد ثارت المدينـة معلنة

الجهاد ، وفتحت أبواب السجون ، وأخرج العامة من فيها ، وأحرقوا الجسور ، وجمعوا جموعهم للزحف على أعـداء الدين ، وأمدهم الأغنياء والموسرون فى كل من بغداد وسامرا بالأموال والعدد . ولـكن الخليفـة وجنده الأتراك أهملوا الأمر واشتغلوا عن الجهاد بما كان يدور حولهم من الدسائس والمؤامرات ، فأخفقت الحملة ولم تنل الغاية التى قامت من أجلها

٤ — ابو عبد الله المعتز

(٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) (٨٦٦ — ٨٦٩ م)

ولد المعتز بن المتوكل فى سنة ٢٣١ هـ وكان أبوه قد عينه وليا للعهد بعد أخيه المنتصر ، ولـكن المستعين خلعه وسجنه . وظل مسجونا حتى خلع المستعين وأخرج من السجن وبويع بالخلافة فى رابع شهر المحرم سنة ٢٥٢ هـ وقد انحطت الخلافة فى زمنه وصغر شأن الخليفة ، ولم يعد له من الأمر شىء حتى كان لا يستطيع تولية وزير أو عزل كاتب ، بل كان الأمر للأتراك وكبار قوادهم يولون من شاءوا ويعزلون من شاءوا . وكانت أحوال الجند والأتراك على شر ما يكون اذ كانوا فيما بينهم مختلفين ، وبسبب اختلافهم كثرت حوادث الاغتيال ، واشتغل الخليفة بأمر الدسائس من غير أن يلتفت الى تدبير أمور الملك وشئون الخلافة

طلب الاتراك من المعتز فى أول خلافته أن يعفو عن وصيف وبغا فعفا عنهما مكرها ، واستقدمهما من بغداد الى سامرا ، ورد اليهما ضياعهما ومتاعهما وأصبح لهما من النفوذ والسلطان ما كان لهما فى زمن المستعين . وقد اشتهر من الاتراك فى عصره القائد بايكباك . وقامت القلاقل والفتن فى

كل من بغداد و سامرا بسبب النزاع الذى قام بين جند المغاربة وجند الأتراك وقتئذ. إذ طلب جند المغاربة ومن انضم اليهم أن يكون لهم من النفوذ والوظائف فى الدولة ما كان لقواد الاتراك وجندهم، ونجح المغاربة فى نيل ماطلبوا بعد أن تغلبوا على الاتراك، وانتزعوا من أيديهم بيت المال، ولكن الأتراك تمكنوا من استرداد سلطانهم وقتلوا محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة. وفى سنة ٢٥٣ هـ اجتمع الجند من المغاربة والأتراك والفرس وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج اليهم وصيف وبغا وكلمهم وصيف بشىء من الشدة فوثب عليه بعضهم وضربوه بالسيف وقتلوه، وأقام المعتز بغا مكانه فى ادارة الشئون، ولكنه ما لبث أن قرب منه بايكباك، وأمر بقتل بغا فقتل ونصب رأسه فى سامرا ثم فى بغداد. فصارت الكلمة العليا بين جند الاتراك لصالح بن وصيف و بايكباك، واستولى الاثنان على الخليفة وأدارا شئون الدولة

الشغب فى بغداد :

كان محمد بن عبدالله بن طاهر واليا على بغداد وكان رجلا مهيب الجانب اشتهر بالحزم والعزم والكرم، ولكن الجند خرجوا عليه فى رمضان سنة ٢٥٢ هـ وطلبوا منه أرزاقهم واستعدوا لمحاربته، فوجه اليهم قواده والجند الموالين له ودارت رحى القتال بين الفريقين، وانتصر المشاغبون فى بدء الحرب، ولكن فسد نظامهم بعد ذلك، فتغلب عليهم ابن طاهر وقبض على زعماء المشاغبين وقتلهم، فهدأت الأحوال، ورجع الأمن الى بغداد، وظل سائدا بها حتى مات ابن طاهر فى شهر ذى القعدة سنة ٢٥٣ هـ واستخلف على إمارته فى بغداد أخاه عبيد الله بن طاهر

قيام الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤—٢٩٢ ﻫ) (٨٦٨—٩٠٥ م)

كان بايكباك هو القائم بادارة شئون الدولة بعد سقوط بغا، وكان قد أضاف اليه الخليفة ولاية مصر وترك له الحرية فى اختيار من ينوب عنه فى ادارتها، فاختار بايكباك فى سنة ٢٥٤ ﻫ أحمد بن طولون نائبا عنه على الفسطاط، وهو ابن طولون التركى الذى أرسله الى بغداد حاكم بخارى «أحمد السامانى» عام ٨١٥ م و ٢٠٠ ﻫ ليكون فى حاشية المأمون، وقد ترقى طولون بجده ونشاطه حتى شغل وظيفة رئيس الحرس، وكانت من الوظائف العالية فى الدولة، وفى سبتمبر سنة ٨٣٥ م سنة ٢٢٠ ﻫ ولد له أحمد ابنه بسامرا، فرباه تربية حسنة اذ علمه القرآن والسنة والأدب. ولما شب كان ينتقل الى طرسوس فى آسيا الصغرى من وقت الى آخر للتعلم فى مدارسها فوق اشتغاله بوظيفة فى قصر الخلافة، فزادت معارفه وتجاربه

وفى سنة ٨٦٨م اختاره بايكباك لولاية الفسطاط عاصمة مصر إذ ذاك فجاء أحمد الى هذه الديار، وأخذ يعمل بجد وإخلاص حتى قوى نفوذه وخدمه الحظ بموت بايكباك فى خلافة المهتدى إذ تولى مكانه اماجور أحد قواد الأتراك وكان صهرا لابن طولون فجعله نائبا عنه على مصر كلها، وسنتكلم عن باقى سيرته وسيرة أفراد أسرته عند التكلم على تاريخ من جاء من خلفاء الدولة العباسية

خلع المعتز وموته:

كان المعتز ألعوبة فى يد الأتراك وجندهم كما مر بنا، وكانت خزانة الدولة فى عهده خاوية على عروشها، فلم يستطع دفع مرتبات الجند، فخرجوا عليه بقيادة صالح بن وصيف التركى، ودخل عليه صالح ذات يوم وقال له: «يا أمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء، ولا فى بيت المال مال، وقد ذهب

ابن اسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا » . فأجابه أحمد بن اسرائيل بشيء من الشدة وكان وزيرا للمعتز ، ولما بلغ الخبر مسامع أصحاب صالح ، دخلوا على المعتز مصلتين سيوفهم ، فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم ، وأخذ صالح ابن وصيف أحمد بن اسرائيل والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن ابراهيم فقيدهم ، وطالبهم بالمال ، فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم : « هب لى أحمد فانه كاتبى وقد ربانى ، فلم يفعل ذلك صالح وبعثت اليه أم المعتز ترجوه فى ابن إسرائيل أيضا فلم يفد هذا ولا ذاك شيئاً »
وطلب هؤلاء الأتراك المرتبات من الخليفة فلم يستطع إجابة ما طلبوا وأرسل إلى والدته يطلب مساعدتها ،فأبت إعطاءه شيئا من مالها ، فاتحدت كلمة الجند من أتراك وفراغنة ومغاربة على خلع المعتز . ودخل عليه صالح ابن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا والسلاح بأيديهم وجروا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضربا بالدبابيس ، فخرج وقميصه مخرق فى مواضع ، وآثار الدم على منكبه ، « فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر ، فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى أقيم فيه ، ثم بعثوا الى قاضى القضاة فحضر ، وأمر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له ، فأمضى وشهد عليه الحاضرون ، ويقال إنه بعد الخلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام ، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه حتى مات »

٥ — محمد المهتدى بالله

(٢٥٥ — ٢٥٦) هـ (٨٦٩ — ٨٧٠) م

ولد محمد المهتدى بالله بن هارون الواثق بن المعتصم فى سنة ٢١٨ هـ وبويع له بالخلافة بعد خلع المعتز فى شهر رجب سنة ٢٥٥ هـ ، ولقد كان

فى بغداد حينما خلع المعتز ، فأحضره الاتراك وعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتي يرى المعتز ويسمع كلامه ، فأتى بالمعتز وقال له : « أنت فى حل من بيعتى » ، فقبلها المهتدى واعتلى العرش ، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحرم الشراب وطرد المغنين والمغنيات واقتصد فى أموال الدولة ، وأعاد للخلافة شيئا من رونقها ، وكان عادلا متشبها بعمر بن عبد العزيز ، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤدى الصلاة إماما بالناس ، وقد اشتهر من وزرائه سليمان بن وهب بن سعيد ، « وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبا وكتابة ، وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم » ، وقد مدحه الشعراء لفطنته وحزمه ويقظته فى تصريف شئون الدولة ، فمدحه كل من أبى تمام والبحترى بأبيات رقيقة تنم عن اعترافهما بفضله

علاقة المهتدى بالأتراك وقوادهم :

شمر صالح بن وصيف عن ساعد الجد عقب خلع المعتز ومبايعة المهتدى ، وأخذ يطارد حاشية الملك المخلوع ويصادر أملاكهم ويعذبهم عذابا أليما حتى يخرجوا ماعندهم من الأموال ، وطارد فيمن طارد السلطانة قبيحة والدة المعتز ، وأخذ ماعندها من الأموال والأحجار الكريمة من الياقوت واللؤلؤ ، ثم نفاها إلى مكة ، ولما بلغ موسى بن بغا أخبار تلك المصادرة أسرع فى العودة الى سامرا ، وكان يحارب أحد العلويين فى بلاد الديلم فى عهد المعتز ، وكتب اليه الخليفة أن يبقى هو وجنده بموضعه ، فلم يطع الأمر وحضر الى سامرا ، ودخل على الخليفة وهو جالس للمظالم وأقامه من مجلسه وحمله الى معسكره ، وأخذ عليه العهود والمواثيق الا يمالىء صالحا ففعل فجدد له موسى وجنده البيعة فى شهر المحرم سنة ٢٥٦ ﻫ

اختفى صالح عند اقتراب موسى ، وأرسل إلى الخليفة كتابا يطلب فيه أن يحاكمه على ما اقترفه من آثام، فقبل المهتدى الطلب وأرسل له أن يظهر فاتهم اتباع موسى الخليفة باخفائه ، وأرادوا خلعه فثارت العامة فى وجههم ووزعت المنشورات فى بغداد تدعو الناس إلى نصرة خليفتهم ، فخاف الجند عواقب ما اعتزموه ، وأعلنوا ولاءهم للمهتدى وشكوا له سوء حالهم وتأخر ارزاقهم بسبب ما صار من الاقطاعات إلى قوادهم . « وكانت هذه الشكوى فى الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها ، لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعا كثيرة لم يلتفتوا إلى اصلاحها فخربت ، وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند . »

استمر الجند يبحثون عن صالح حتى عثروا على مكانه وقبضوا عليه وقتلوه فى شهر صفر سنة ٢٥٦ هـ ، وهدأت الأحوال فى الدولة بعد ذلك زمنا قصيرا ، ثم قامت الفتن فى بغداد إذ ثار الجند يطلبون المتأخر لهم من المرتبات والأرزاق، وقدموا للخليفة بعض طلبات وتوسلوا اليه أن يجيبها ، وكان منها أن ينزع الخليفة قيادة الجيش من القواد الأتراك وغيرهم من الموالى ، وأن يعين قوادا من اخوته وأقاربه حتى تستقيم الأمور ، ولقد كان أمام المهتدى فرصة سانحة للخلاص من سيادة الأتراك ، ولكنه لم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ، واراد استعمال الحيلة فى الخلاص منهم ، وكان موسى وبايكباك مشغولين بمحاربة أحد الخارجين على الدولة فى بلاد الموصل ، فأرسل المهتدى كتبا إلى كل منهما على انفراد يأمر كلا منهما بالفتك بزميله، ولكنهما عرفا نيات الخليفة ، ورجعا إلى سامرا ومع ذلك تمكن المهتدى من القبض على بايكباك ، وأمر بضرب عنقه

فضرب عنقه وتخلص الخليفة من شره ، وهاج الأتراك ، استعدوا لقتال الخليفة واتباعه من مغاربة وفراغنة ودارت رحى الحرب بين الفريقين واظهر المهتدى شجاعة نادرة المثال ، ولكنه غلب على أمره فى النهاية وخسر المعركة وهرب إلى دار رئيس الشرطة ، ولكن الأتراك اقتفوا أثره وقبضوا عليه ، وحملوه إلى داره مهانا فى شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ ، وخلعوه ومات بعد أربعة أيام من ذلك موتة غامضة

يقول الطبرى : « وكانت خلافة المهتدى كلها إلى أن انقضى أمره احد عشر شهرا وخمسة وعشرين يوما وعمره كله ثمان وثلاثون سنة »
ويقول موير : « ولولا استسلام المهتدى ومقابلته الغدر بمثله لعددناه من أفاضل الخلفاء العباسيين »

الباب الثامن

عصر المعتمد والموفق والمعتضد والمكتفى

١ ــ أحمد المعتمد على الله

(٢٥٦ ــ ٢٧٩ هـ) (٨٧٠ ــ ٨٩٢ م)

ولد أحمد المعتمد على الله بن المتوكل سنة ٢٣١ هـ ، واعتلى عرش الخلافة بعد خلع المعتز فى شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ ، وقد كان مسجونا قبل أن يتولى العرش ، فاجتمع كبار القواد ورجال الدولة وأجمعوا رأيهم بعد أن خلعوا المعتز وأخرجوا أحمد من السجن وبايعوه بالخلافة . فقبل المنصب وتلقب بالمعتمد على الله ، ولما علم موسى بن بغا الخبر ــ وكان يحارب الخوارج فى الاهواز ــ أسرع بالعودة إلى سامرا وبايع الخليفة ، وقلب صحيفة جديدة من صحف حياته ، وأظهر الولاء والطاعة لخليفة المسلمين ، وخدم الدولة بجد وأمانة فى ميدان الحرب والسياسة ، فأحبه المعتمد وعهد اليه بالوصاية على ابنه وولى عهده ، وكان قد أقامه واليا على الغرب ، وقد استردت الخلافة فى عهده شيئا من رونقها السالف ، ووقف الأتراك وقوادهم عند حدهم وتحسنت الأحوال ، ولم يجرؤ الأتراك أن يمسوا شخص الخليفة بسوء كما كانوا يفعلون فى العهود التى مضت ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الهمة التي بذلها أخو المعتمد أبو أحمد طلحة بن المتوكل الملقب بالموفق ، اذ انتهز فرصة ضعف المعتمد وميله إلى اللهو وسماع الموسيقى والغناء واستأثر بالسلطان الفعلى فى البلاد ، وادار شئون الخلافة العسكرية

والمدنية ادارة حازمة ، وتولى قيادة الجيش بعد أن انتزعها من قواد الأتراك ورؤسائهم

هذا وقد اشتهر من وزراء المعتمد عبيد الله بن يحى بن خاقان وزير المتوكل ، وسليمان بن وهب وزير المهتدى ، وأبو الصقر اسماعيل بن بلبـل وكان عربيا ينتسب إلى شيبان ، وكانت أحوال الوزارة مضطربة فى أثناء ذلك الحكم ، وكثيرا ما غضب المعتمد أو الموفق على أفرادها وطردوهم من وظائفهم وصادروا أموالهم وممتلكاتهم

أحوال الدولة الداخلية فى عصر المعتمد :

أولا : العلويون :

توفى فى عهد المعتمد الامام حسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد ابن على الرضا فى سنة ٢٦٠ هـ ، وهو الحادى عشر من أئمة الشيعة الامامية الأثنى عشرية . وقد خلفه فى الامامة ابنه محمد العسكرى وكان طفلا فى الخامسة من عمره ، ويقال إنه خرج من أحضان أمه يبحث عن أبيه ، وكان مسجونا بسامرا ـ ودخل سردابا قريبا من منزله ولم يخرج منه ، فحزن عليه اتباعه حزنا عميقا ولقبوه بالمنتظر ، لأنهم ينتظرون خروجه من ذلك السرداب ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا . وكان الشيعة يجتمعون على باب السرداب فى المواسم والأعياد ويدعون إمامهم للخروج اليهـم ، وكانوا يمكثون وقتا غير قصير فى كل اجتماع وهم يكررون دعواتهم إلى الامام ثم يرجعون إلى منازلهم والحزن يملأ أفئدتهم وجوانحهم ، لأنهم لم يظفروا برجائهم ، وقد ظل الشيعة يعقدون هـذا الاجتماع حتى القرن الرابع عشر الميلادى

ثانيا : ثورة الزنوج

ظهر رجل فارسى فى البحرين سنة ٢٤٩ﻫ ، وادعى أنه من نسل سيدنا على ، ودعا الناس إلى طاعته وكان إباحيا فى مذهبه ، فالتف حوله عدد كبير من الأنصار ، وكبر شأنه ، ثم شخص إلى البصرة ونزل بها فى سنة ٢٥٤ﻫ ونشر دعوته فطارده عاملها محمد بن رجاء الحضارى ، فتركها إلى بغداد ونزل بها وظل مختفيا فيها حتى عزل ابن رجاء ، فرجع اليها فى سنة ٢٥٥ ﻫ ، وأخذ يجهر بآرائه ، وازداد عدد مريديه بانضمام الأرفاء والعبيد اليه لأنه دعاهم إلى الخروج على سادتهم ، ووعدهم الحرية والسيادة والتملك ، ولما قوى أمره رفع راية العصيان على الدولة العباسية ، وخرج عليها فى رمضان سنة ٢٥٥ ﻫ ، وأرسلت اليه الدولة القوات لاخضاعه فأنتصر عليها نصرا مبينا ، وأخذ يعيث فى تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وفى مدة سنتين أصبح يسود دال الفرات . وفى سنة ٢٥٧ﻫ هاجم البصرة واستولى عليها ، وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وأحرق عددا كبيرا من دورها ومساجدها ، واستفحل أمره وذعر الخليفة وطلب الى الموفق أن يخرج اليه بنفسه ، فجمع جيشا كبير العدد كامل العدة ، وزحف لملاقاة الثائر والقضاء عليه ، وكان الخبيث ـ وهو اللقب الذى أطلق عليه ـ قد استطاع فى أثناء ذلك أن يستولى على الاهواز ومدينة واسط ، وبسط نفوذه على المقاطعات التى بينها ، واستمرت رحى الحرب قائمة بين الزنوج وبين جند الدولة لمدة عشر سنوات ، وتمكن الموفق بمعاونة ابنه المعتضد وباقى قواده الأكفاء أن يخمد تلك الثورة العنيفة ، وطرد الثوار من معاقلهم الحصينة بعد كبير عناء ، وأمن من أراد منهم الرجوع الى حظيرة الدولة ، وفى شهر صفر ٢٧٠ ﻫ أرسل الموفق الى زعيم الثوار يؤمنه .

ويطلب اليه الخضوع والولاء ، فأبى الخبيث وامتنع ، وحاول الهروب ولكن الجند قبضوا عليه ، وقطعوا رأسه وتخلصت الدولة من شر مستطير هز أركانها وأقلق بال سكانها لمدة أربع عشرة سنة ونصف تقريبا

ثالثا : الأحوال فى المشرق :

كان نفوذ الخليفة العباسى لايزال معترفا به فى الاقاليم الشرقية للدولة ، وكان اسمه لايزال يذكر فى الدعاء على المنابر فى مساجد تلك الاقاليم ، ولكن حدث أن وجدت قوى أخرى فى تلك الازمنة المضطربة نازعت آل طاهر — أمراء خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر وما اليها من بلاد الرى وطبرستان وجرجان وكرمان — سيادتهم ، تلك السيادة التى كانوا يستمدونها من الخلافة العباسية ، والتى كانوا يرهبون بها الأعداء والخارجين على الدولة أيام كانت القوة المركزية فيها مهيبة الجانب ، نافذة الكلمة ، مستعدة بجيوشها لتأديب العصاة والثوار ، فظهرت الدولة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد مر ذكرها ، وظهرت دولة أخرى ، وهى الدولة الصفّارية فاستولت على خراسان وقضت على حكم الطاهريين منها واليك البيان :

قيام الدولة الصفّارية :

قامت الدولة الصفارية باقليم سجستان ، وتنسب الى يعقوب بن الليث الصفّار وأخيه عمرو ، وقد كانا يشتغلان وهما صغيران بعمل الصفر ، ولما كبرا اشتهرا بالزهد وبالورع والتقوى ، ثم اتصلا باحد المتطوعين لقتال الخوارج واسمه صالح بن النضر الكنانى فكان لهما شأن كبير معه ، ولما مات صالح آلت الزعامة بين المتطوعين الى درهم بن الحسين ، فاتخذ يعقوب قائدا لجنده ، ولما عزل درهم تولى يعقوب الزعامة ، واشتهر أمره واشتدت

شوكته ، وبسط نفوذه على سجستان وهراة وبوشنج وما اليها ، وانتصر على الترك الذين اعتدوا على سجستان، فرهبه الملوك الذين حوله ، وأذعنوا له بالطاعة ، ولما ثبت قدمه أخذ يتطلع إلى امارة خراسان ليحكمها باسم الخليفة وأرسل للمعتز هدية سنية ، وسأله أن يوليه بلاد فارس وعليه هو اخراج الثائر العلوى منها ، وقد برهن للخليفة على قوته بأن زحف على شيراز حيث كان على بن الحسين ، ودخلها عنوة فى شهر جمادى الاولى سنة ٢٥٥ هـ ، وأخذ على بن الحسين أسيرا ، ثم عاد الى سجستان فارتفع شأنه وعلا قدره فى تلك الأصقاع ، وفى سنة ٢٥٩ هـ قصد نيسابور ودخلها ، وهناك قدم له بنو طاهر الخضوع ، « لما رأوا أنه لا قبل لهم بمقاومته ، وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم . » ، وقبض على محمد بن طاهر وآل بيته وسجنه ، فانتهت دولة آل طاهر من خراسان وبلاد المشرق

كتب يعقوب إلى الخليفة يخبره بأمره فى خراسان ، فغضب الموفق وأرسل اليه أن يترك البلاد لآل طاهر ويرجع الى مقر نفوذه حيث أقامه الخليفة ، فامتنع يعقوب عن اجابة ماطلب الموفق ، ورأى المعتمد بعد ذلك أن يسالم يعقوب فولاه خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس والشرطة ببغداد ، وكان يعقوب قد تغلب فى سنة ٢٦٠ هـ على القوة الزيدية فى طبرستان وهزم الحسن بن زيد ، واستولى على سارية وآمل

طمع يعقوب فى الاستيلاء على بغداد والعراق ، وعرف المعتمد نياته فخرج اليه بجيش كبير ، وفى مدينة واسط تقابل الجيشان وانتصر الخليفة بفضل مهارة الموفق فى سنة ٢٦٢ هـ ، وغنم غنائم كثيرة من يعقوب وجيشه ، ورجع يعقوب بعد الهزيمة إلى فارس ، وانتهز محمد بن طاهر الفرصة وتخلص من سجنه وحضر إلى بغداد فخلع المعتمد عليه الخلع ،

وأعاده الخليفة الى عمله ، وقد كاتب الخبيث زعيم الزنوج يعقوب الصفّارى يعرض عليه معاونته والتحالف معه ضد الخليفة . فأبى يعقوب ورد عليه بقوله : « قل يأيها الكافرون . . . . . الى آخر السورة » ، وتوفى يعقوب بعد ذلك فى سنة ٢٦٥ هـ بمدينة الاهواز

يقول أبو الفداء : « وكان المعتمد قد أرسل اليه رسولا وكتابا يستميله ، ويعقوب مريض ، فأحضر الرسول وجعل عنده سيفا ورغيفا وبصلا ، وقال للرسول قل للخليفة . إن مت فقد استراح منى واسترحت منه ، وان عوفيت فليس بينى وبينه الا هذا السيف ، وان كسرنى وأفقرنى عدت الى أكل هذا الخبز والبصل . »

بايع الجند أخاه عمرو بن الليث بعد وفاته فكان حسن التدبير والسياسة ، وكتب الى الخليفة بطاعته فولاه الموفق خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان ، وسير اليه الخلع مع الولاية ولكن الخليفة غضب عليه فى سنة ٢٧٢هـ ، ولما استرضاه عمرو بالمال رضى عنه ، وظل والياً على تلك الأقاليم حتى انتهى عزه على يد اسماعيل بن احمد أحد أفراد الدولة السامانية كما سيجىء بعد ،

يقول موير : « كان قيام الدولة الصفارية الخطوة الأولى فى استرداد الفرس استقلالها القومى . »

علاقة المعتمد بالدولة الطولونية :

عظمت منزلة أحمد بن طولون فى مصر فى خلافة المعتمد ، وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون . ولما مات أماجور سنة ٢٥٨ هـ استقل أحمد بن طولون بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة ، وأدار البلاد ادارة حسنة . ونظم ثروتها تنظيما

بديعا ، وأعاد الى هذا القطر رخاءه ، وضرب على أيدى المفسدين . وأخذ يعمر البلاد فبنى الجسور وشق الترع وبنى مسجده العظيم ، وهو أثر خالد وشجع العلم والعلماء ونظم الجيوش فانتعشت مصر واسترجعت بعضا من مقامها السالف ، وأصبح مركز ابن طولون قويا ، فحقد عليه الموفق وأرسل اليه موسى بن بغا على رأس جيش لاخضاعه ، فلما بلغ الرقة أقام بها زمنا ولم يستطع التقدم لقلة الأموال وطالبته الجند بالمرتبات فلما عجز ثاروا عليه ، فاضطر أن يعود الى العراق ، ه استراح احمد بن طولون من شره ؛ وكانت علاقة ابن طولون بالمعتمد أفضل من علاقته بأخيه الموفق . وفى ٢٦٤ﻫ طلب اليه الخليفة أن يسير الى أسيا الصغرى لاسترجاع طرسوس من الروم ، وكانوا قد انتزعوها من المسلمين ، ففرح ابن طولون بالطلب وأناب ابنه خمارويه على حكومة مصر ، وخرج هو غازيا الروم ، ودخل الشام واستولى على دمشق وانطاكية ، وتقدم نحو طرسوس ولكنه استقبل فيها استقبالا رديئا فتركها ورجع الى الشام ، وزحف نحو الشرق ودخل حران ، ولكنه رجع الى مصر بعد ذلك . وفى سنة ٢٦٨ﻫ أرسل دعوة الى الخليفة يدعوه فيها الى مصر ، وأجاب المعتمد الدعوة وترك سامرا راحلا الى مصر ، ولكن الموفق عرف أن انتقال الخليفة الى مصر وتعاونه مع ابن طولون يرجعان على نفوذه بالضرر ، فبذل جهده حتى يمنع المعتمد من الاتصال بوالى مصر ، وأرسل الى عامل الموصل أن يقف سير الخليفة فنفذ الأمر وأرجع الخليفة ومن معه الى سامرا ، فغضب ابن طولون واتسع خرق الخلاف بينه وبين الموفق ، وقطع اسمه من الخطبة ، واسقط اسمه من الطراز ، وطلب الموفق من الخليفة أن يأمر بلعن ابن طولون فى مساجد الدولة ففعل على كره منه ، ولما طلب ابن طولون أن يتولى أمارة الحج

رفض طلبه ، وظلت العلائق متوترة بينهما حتى توفى ابن طولون فى سنة ٢٧٠هـ ٨٨٤ م ، وخلفه ابنه خمارويه فى ولاية مصر والشام والثغور وبقى ملك الطولونيين قائما فى مصر حتى سنة ٢٩٢ هـ

علاقة المعتمد بالدولة البوزنطية :

انتهز الروم قيام الفتن والقلاقل فى أنحاء الدولة العباسية وأغاروا على حدودها السورية فى زمن عاهلهم العظيم باسيل الصقلبي (٨٦٧–-٨٨٦م) واستطاع قواد الروم أن يستولوا على حصن لؤلؤة المنيع ، فانتصروا على المسلمين وقواتهم فى اسيا الصغرى ، وأسروا قائدا من قواد الخلافة وحملوه إلى القسطنطينية ، ولكن لما تولى أمر محاربتهم احمد بن طولون رجعوا على أعقابهم ، وظلوا يترقبون الفرصة ليعيدوا كراتهم على أملاك الدولة ، ولولا أن نشط الجند المتطوعة وقاموا لصدهم لاستطاعوا أن ينتزعوا أملاكا كثيرة من أملاك الدولة فى الجزيرة وسوريا

وفاة الموفق والمعتمد وولاية العهد بعدهما :

مرض احمد الموفق وهو فى ميدان القتال فى الشمال ، وحمل إلى سامرا ، ولما شعر بدنو أجله عزم على أن ينقل السلطة التى كانت فى يده إلى ابنه المعتضد ولقد كان أميراً محبوباً جداً بين الجند وأفراد الشعب ، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير فى سنة ٢٧٨هـ فعل ما أراد ، وأصبح ابنه المعتضد صاحب الأمر والنهى فى أمور الدولة كما كان أبوه من قبل ، وفى أواخر شهر رجب سنة ٢٧٩ هـ مات المعتمد على أثر شراب شربه بعد أن شغل كرسى الخلافة نحو ثلاث وعشرين سنة ، كان فى أثنائها خليفة بالاسم ،

ولم يكن له من الأمر شئ ، وقضى وقته فى أحاديث الغنا ، والرقص والندامى وهيئة المجالس ، ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبئة مجالس الندما .

٢ — ابو العباس احمد المعتضد

(٢٧٩ — ٢٨٩) ﻫ (٨٩٢ — ٩٠٢) م

كان ابو العباس احمد بن أبى احمد الموفق عضدا لأبيه فى حروبه وأعماله وقد تولى ولاية العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة ٢٧٩ ﻫ ، واعتلى عرش الخلافة فى اليوم الذى توفى فيه عمه المعتمد على الله وقد اشتهر بالشجاعة والاقدام ، وكان ميالا لسفك الدماء حتى أطلق عليه المؤرخون لقب السفاح الثانى ، واستطاع بهمته ونشاطه أن يعيد إلى العباسيين شيئا من مجدهم القديم ، وأرجع إلى حظيرة الدولة كثيراً من الولايات والاقاليم التى خرجت عنها فى العهود السابقة ، وحارب البوزنطيين حروبا موفقة ، واسترد كثيرا من المدن والمعاقل التى كان الروم قد انتزعوها من المسلمين ، وقضى على ثورة الاكراد وطردهم من الجزيرة ، وأخمد الفتن والقلاقل التي أثارها أمير حمدان فى بلاد الموصل ، وفى عهده ظهر بالجزيرة خارجى اسمه هارون الشارى وتغلب على قوات الدولة ، فأرسل اليه المعتضد حسين بن حمدان بن حمدون جد الأسرة الحمدانية الذى تغلب عليه الخليفة وأسره ، وقد وفق حسين أن ينتصر على الخارجى ، وقبض عليه وأحضره إلى المعتضد ، ففرح فرحا كبيرا ، وخلع على الحسين وأطلق سراح أبيه ، وأمر له بالهدايا والعطايا فاسترجع بنو حمدان نفوذهم السابق وكان هذا بدء قيام الاسرة الحمدانية

قام المعتضد باصلاحات كثيرة فى الدولة ، فانه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الأرحام فأدخل بذلك عنصراً جديدا على قانون المواريث، وأبطل ديوان المواريث ، وكان أصحاب التركات يلقون عناء كبيرا من موظفى هـذا الديوان ، فاكتسب المعتضد بذلك ثناء العامة والخاصة ، ومن أهم اصلاحاته مايعرف بالتقويم المعتضدى ، فانه غير أوائل السنة من مارس إلى يونيه ، وأبطل الاحتفالات التي كانت تقام فى عيدالنيروز وهو ء السنة القديم ، وكان الناس يحتفلون به احتفالا عظيما ، فاستقام الأمر فى جباية الخراج وأصبحت مواعيد الجباية ثابتة فى شهور الثمار والغلات

الحالة فى خراسان وقيام الدولة السامانية :

كان عمرو بن الليث الصفَّارى قائما بأمر خراسان فى زمن المعتضد ، وكان نفوذه كبيرا فى تلك الجهات والاقاليم ، وفى سنة ٢٨١ هـ دخل نيسابور وتغلب على رافع بن هرثمة الذى خرج على الدولة وأعلن خضوعه لمحمد ابن زيد العلوى ، ولما هرب رافع الى طوس وخوارزم أرسل عمرو جندا ليلحقوا به ففعلوا ، وانتصروا عليه وقتلوه ، وأرسل عمرو كتابا إلى الخليفة يبشره بذلك النصر ، وأرسل رأس الثائر مع الكتاب ، ففرح المعتضد وأرسل اليه الخلع ولواء الولاية على الرى ، فاتسع سلطانه وقوى أمره وطمع فى الولاية على بلاد ما وراء النهر ، وطلب الى الخليفة أن يعقد له الولاية على البلاد التى يحكمها اسماعيل بن احمد السامانى فقبل المعتضد ، وأرسل اليه عهد الولاية ، وخرج عمرو ليتملك تلك البلاد فقاومه اسماعيل السامانى واستعد لقتاله

ينتسب اسماعيل الى اسرة فارسية عريقة فى المجد ، وكان أفرادها يحكمون بلاد ماوراء النهر من زمن المأمون تحت أشراف أمير خراسان ، فكان

نوح بن أسد بن سامان يتولى أمر سمرقند ، واحمد بن أسد يتولى الأمر فى فرغانة ، ويحيى بن أسد الأمر فى الشاس واشروسنة ، ويتولى أخوه الياس الأمر فى هراة ، ولما توفى احمد أمير سمرقند خلفه فى الحكم ابنه اسماعيل ، وقام بالأمر على وجه مرضى ، وعلى يديه سقطت الدولة الصفارية ، وذلك أنه طلب الى عمرو بن الليث أن يقنع بما فى يديه من الاملاك ، والايتعرض الى البلاد التى تخضع له ، فأبى عمرو وخرج لقتاله ، فقابله اسماعيل وانتصر عليه ، وأخذه أسيرا وأرسله الى الخليفة فى بغداد فسجن بها ، وظل مسجونا حتى قتل فى أول خلافة المكتفى

خرج محمد بن زيد من طبرستان بعد سقوط عمرو بن الليث طالبا خراسان ، وظن أن الفرصة سانحة لتملكها ، ولكن اسماعيل السامانى تعرض له فى الطريق وأرسل اليه جندا لمقاتلته ، فقابلته على باب جرجان وتغلبت عليه ، وجرح فى الحرب ومات بعد ذلك بقليل ، أما ابنه زيد فأنه أسر وحمل الى اسماعيل فسجنه ، وبذلك سقطت الدولة الزيدية فى طبرستان أيضا على يد اسماعيل السامانى ، فكبر شأنه وعظم أمره ، وفرح به المعتضد وأرسل اليه الخلع والهدايا الثمينة ، وخضعت له البلاد ، وأصبحت القوة فى المشرق لأسرته فقامت بالأمر وحكمت البلاد والاقاليم ، وظل لها النفوذ والسلطان التام حتى سنة ٣٨٩ هـ ، وكان عدد ملوكها عشرة أولهم نصر بن احمد بن سامان وأخرهم عبد الملك بن نوح

علاقة المعتضد بالدولة الطولونية :

كانت علاقة المعتضد بخارويه بن احمد بن طولون حسنة ، وكان خمارويه يتقرب الى الخليفة ، فأرسل اليه الهدايا وعرض عليه أن يتزوج

ابنته قطر الندى،فقبل الخليفة وتزوجها ، واحتفل خمارويه بزواجها احتفالا كبيرا ، وزفها الى المعتضد فى جهاز سارت بذكره الركبان وأصبح مضرب الأمثال ، اذ بنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصرا فيما بين مصر و بغداد « وأخرج معها أخاه شيبان فى جماعة ، فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه ، وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها فى حال الاقامة ، فكانت فى سيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس الى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ . »

انغمس خمارويه فى اللذات والملاهى ، وأنفق أموال الدولة حتى خوت خزائنه ، وضعفت حالة الدولة فتآمر عليه بعض خدمه فذبحوه وهو على فراشه بدمشق ، فنقل الى مصر ودفن فيها عام ٢٨٣ هـ ، وقامت بالبلاد فتن داخلية ، اضعفتها وسببت خروج طرسوس من أيدى بنى طولون ورجوعها الى الدولة العباسية ، وتنازل هارون الذى تولى الأمر فى مصر عن قنسرين والعواصم ، وقصر أمره على مصر والشام ، وتعهد بأن يحمل الى بيت المال ببغداد كل سنه نحو نصف مليون من الدنانير ، ومن ثم اشتد نفوذ الخليفة فى مصر ورجع له فيها شيء من مقامه السابق

وفاة المعتضد :

ترك المعتضد سامرا واستبدل بها بغداد ، « فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد ، بل لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها » وحكم المعتضد حكما موفقا نحو عشر سنين ، وفى شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ توفى

يقول الطبرى : « وفى ربيع الآخر من سنة ٢٨٩ هـ فى ليلة الاثنين توفى المعتضد ، فلما كان فى صبيحتها أحضر دار السلطان يوسف بن يعقوب وأبو حازم عبدالحميد بن عبدالعزيز وأبو عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب وحضر الصلاة عليه الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان . . . ولسبع بقين من شهر ربيع الآخر من هذه السنة جلس القاسم بن عبيد الله بن سليمان فى دار السلطان فى الحسني واذن للناس فعزوه بالمعتضد وهنئوه بما جدد له من أمر المكتفى ، وتقدم إلى الكتاب والقواد فى تجديد البيعة للمكتفى بالله فقبلوا . »

٣ — على المكتفى بن المعتضد

(٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) (٩٠٢ — ٩٠٧ م)

اعتلى المكتفى عرش الخلافة بعد وفاة أبيه وكان فى الرقة عند الوفاة ، فلما وصل الخبر اليه أمر الحسين بن عمرو كاتبه يومئذ بأخذ البيعة على من فى عسكره ، ووضع العطاء لهم ، ففعل ذلك الحسين ، ثم خرج شاخصا من الرقة إلى بغداد ، ودخل إلى داره بالحسنى ، فلما صار إلى منزله أمر بهدم المطامير التى كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم ، وجعلها مساجد لأقامة الصلاة ، فأحبه الناس حباً جما ، وقد اشتهر بالكرم ، وفى عهده قامت الفتن والقلاقل فى أنحاء الدولة ، ولكنه قابلها بعزم وحزم ، وتغلب على الخارجين والثوار ، وارجع مصر والشام إلى حظيرة الدولة العباسية بعد أن قضى على حكم الطولونيين فيها ، وكان الفضل فى ذلك إلى قائده القدير محمد بن سليمان الذى جاء إلى مصر وحارب شيبان بن أحمد بن طولون وهزمه ، ودخل القطائع عاصمة الطولونيين وخربها ، وهدم

القصور ونهب البيوت ودمرها ، ونقل ثروة الطولونيين وعددا من أفراد الأسرة إلى بغداد ، وكان ذلك فى سنة ٢٩٣ ﻫ ، وفى عهد المكتفى أقلق القرامطة بال الدولة ، وحاربهم الخليفة حربا عوانا مما سنذكر تفصيله بعد واعتدى الروم على حدود الدولة ونهبوا وسلبوا ، وحملوا الأسرى ولكن المكتفى حاربهم وردهم على اعقابهم خاسرين ، وانتزع منهم مدينة اضاليا وكانت معقلا حصينا لهم ، وخلص عددا كبيرا من الأسرى المسلمين ، وفى آخر عهده حصلت مفاداة بينه وبين الروم وكان عدة من فودى به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس ، وفى سنة ٢٩٥ ﻫ توفى اسماعيل بن أحمد السامانى أمير خراسان والمشرق فتولى بعده ابنه أحمد ابن اسماعيل ، وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله اليه . وفى هذا العهد انقرضت دولة الأغالبة فى افريقية إذ تغلب عليها أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين بالمغرب ، وقامت الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ، وامتد نفوذها واتسع سلطانها وقد مر ذكرها وقرأنا شيئا عن تاريخها فنتركها ونتكلم على القرامطة

القرامطـــة :

يقول الطبرى : « فى أواخر دولة المعتمد سنة ٢٧٨ ﻫ ، وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة ، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة ومقامه بموضع منه يقال له النهرين يظهر الزهد والتقشف ، ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة ، فأقام على ذلك مدة ، فكان اذا قعد اليه انسان ذاكره أمر الدين ، وزهده فى الدنيا وأعلمه أن الصلاه المفترضة على الناس خمسون

صلاة فى كل يوم و ليلة ، حتى فشا ذلك عنه بموضعه ، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى امام من أهل بيت الرسول . فلم يزل على ذلك يقعد اليه الجماعة فيخبرهم من ذلك بما تعلق قلوبهم . وكان يزداد نبلا فى أعين الناس بما يظهره من الزهد ثم مرض فمكث مطروحا على الطريق

وكان فى القرية رجل يحمل على اثوار له احمر العينين شديدة حمرتهما وكان أهل القرية يسمونه كرميتة لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية أحمر العينين ، فحمل هذا العليل الى منزله ووصى أهله بالاشراف عليه والعناية به ، ولم يزل مقيما عنده حتى برىء فكان كرميتة يدعو الناس الى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة . وكان يأخذ من كل من دخل فى مذهبه دينارا يزعم أنه للامام ، واتخذ من أهل القرية نقباء اثنى عشر ، فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التى أخبرهم أنها مفروضة عليهم . وكان للهيصم فى تلك الناحية ضياع ، فوقف على تقصير اكرته فى العمارة ، فسأل عن ذلك ، فأخبر ان انسانا طرأ عليهم فأظهر لهم مذهبا من الدين وأعلمهم ان الذى افترضه الله عليهم خمسون صلاة فى اليوم والليلة فشغلوا بها عن أعمالهم ، فوجه فى طلبه فأخذ وجىء به اليه ، فسأله عن أمره فأخبره بقصته ، فحلف أن يقتله ، فأمر به فحبس فى بيت وأقفل عليه الباب ، ووضع المفتاح تحت وسادته وتشاغل بالشرب ، وسمع بعض من فى داره من الجوارى بقصته فرقت له جارية ، فلما نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته ، وفتحت الباب وأخرجته . واقفلت الباب وردت المفتاح الى موضعه . فلما اصبح الهيصم دعا بالمفتاح ففتح فلم يجده وشاع ذلك الخبر ، ففتن به أهل تلك الناحية وقالوا رفع ثم ظهر فى موضع آخر ، ولقى جماعة من اصحابه وغيرهم . فسألوه عن قصته ، فقال ليس يمكن أحدا أن يبدأنى

بسوء ، ولا يقدر على ذلك منى ، فعظم فى أعينهم ثم خاف على نفسه فخرج الى ناحية الشام ، فلم يعلم له خبر وسمى باسم الرجل الذى كان فى منزله صاحب الاثوار كرميتة ثم خفف فقالوا قرمط . »

مذهب القرامطة :

يعتنق القرامطة مذهب الشيعة الاسماعيلية ، نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم امامية يتفقون مع الامامية الأثنى عشرية فى المبدأ العام للتشيع الأمامى ، وهو أنه لابد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الشريعة لاتؤخذ بالرأى ، ويتفقون معهم على امامة الستة من على بن أبى طالب الى جعفر الصادق ، ومنه يبتدىء الاختلاف ، فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والاسماعيلية ذهبوا الى فرع اسماعيل ، وكان من أشهر دعاة هذه الفرقة عبد الله بن ميمون القداح الذى ظهر فى اورشليم فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة (٨٧٣ — ٨٧٤) م ونشر مذهبا دينيا غريبا ، أراد به أن يدمج كل الأديان السماوية فى دينه الجديد ، وأطلق عليه الدين السابع وهو آخر الأديان المنزلة . « ولقد نشأ عن المذهب الاسماعيلى قوتان عظيمتان كلتاهما ضد الدولة العباسية ، إحداهما منتظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص ، وهى موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها ، كما كانت قرية الحميمة موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها والثانية قوة ذات فوضى وجور ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق وهى القرامطة »

انتشار مذهب القرامطة فى خلافة المعتضد :

فشا مذهب القرامطة أولا فى سواد الكوفة فى أواخر خلافة المعتمد كما مر بنا ، ثم انتقلت منها إلى البحرين ، وأخذ أبو سعيد الحسن الجنابى — وجنابة من سواحل فارس — ينشر مذهب القرامطة ويستميل العرب الى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها ، وقوى أمره وفى سنة ٢٨٧ ه فى خلافة المعتضد زحف على البصرة فأرسل اليه الخليفة جيشا فانتصر عليه ، وأسر قائده واستولى على ما كان معه وقتل الأسرى.

انتشر هذا المذهب فى سواد الكوفة وكثر أتباعه ، وأرسل المعتضد جيشا يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائى فظفر بهم ، وقبض على رئيس من رؤساء القرامطة يعرف بأبى الفوارس وحمله الى المعتضد فسأله الخليفة فى مذهبه وناقشه ورد عليه أبو الفوارس ردا جريئا فأمر به فقتل

ظهر داعية آخر من دعاة القرامطة يسمى زكرويه بن مهرويه ، « وسعى فى استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم ، وبايعوا سنة ٢٩١ ه ابن زكرويه المسمى يحيى المكنى بأبى القاسم ، ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وزعم لهم أن له فى البلاد مائة الف تابع ، وسمى اتباعه الفاطمية فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرّصافة ، فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة ، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا بلاد الشام ، وكانت إذ ذاك فى حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون ، وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مرارا فهزموه »

« هذا ما كان من أمر القرامطة فى حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدءوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التى آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق الى بيت الله المقدس . »

القرامطة فى عصر المكتفى بالله :

عاث القرامطة فى بلاد الشام فسادا ، وكتب الشاميون الى الخليفة يشكون مما ألم بهم من الحسين بن زكرويه ، وكان يلقب بذى الشامة لوجود شامة فى وجهه ، فأنه قتل وسبى وخرب البلاد ، وخرج المكتفى اليه بنفسه وسار حتى نزل الرقة ، وسير الجيوش بقيادة محمد بن سليمان لقتال القرمطى والتحم الفريقان فى معارك شديدة انتصر فى نهايتها قائد الخليفة ، وأسر القرمطى بوساطة أحد رجال المكتفى ، وأخذ الى الخليفة بالرقة فى شهر المحرم سنة ٢٩١ هـ ، فحمل الى بغداد هو ومن أسر من رجاله ، وأعدموا بعد أن شهر بهم الخليفة تشهيرا كبيرا

ظهر زكرويه من مخبئه عندما بلغه خبر قتل ابنه يحيى ، وجمع الأنصار وزحف على بلاد الشام وهدد دمشق ، ولما عرف الخليفة خبره أرسل اليه الحسين بن حمدان ، وكان القرامطة قد دخلوا طبرية ، فطاردهم الحسين من بلد الى بلد حتى شتت شملهم وتفرقوا فى البادية ، وفى سنة ٢٩٣ هـ أغاروا على الكوفة وألحقوا بأهلها خسائر فادحة ، وسلبوا ما استطاعوا أن يسلبوه ثم قاومهم سكان الكوفة وعاونهم جند الخليفة ، فتفرقوا الى الصحراء وفى سنة ٢٩٤هـ أغاروا على قوافل الحج الآتية من مكة الى المشرق ، وسلبوا أفرادها وذبحوهم رجالا ونساء وأطفالا ، واستولوا على ما كان معهم من الأموال ، فغضب الخليفة غضبا شديدا ، وندب أحد قواده الاتراك ، وأمره باقتفاء أثر هؤلاء الأشرار ، فخرج اليهم على رأس جيش كبير وقاتلهم ، فقتل

منهم كثيرا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته ، وسار بهم الى بغداد ولكن زكرويه مات متأثرا بجروحه قبل أن يصل الى العاصمة ، فاستراحت الدولة من شره ، واستمر الحسين بن حمدان يطارد من بقى من قوات القرامطة فى الشام حتى مزق شملهم وأوقع بهم

وفاة المكتفى بالله :

فى ذى القعدة لاثنتى عشرة ليلة خلت منها توفى المكتفى بالله بعد حكم مضطرب دام ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وكان يوم توفى ابن اثنتين وثلاثين سنة ، وقد ترك الدولة والخلافة لأخيه القاصر فتولى عرشها وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وعشرين يوما وتلقب بالمقتدر بالله

الباب التاسع

عصر المقتدر والقاهر والراضى والمتقى

١ — جعفر المقتدر بالله

(٢٩٥ — ٣٢٠هـ) (٩٠٧ — ٩٣٢م)

ولد جعفر المقتدر بالله فى سنة ٢٨٢ هـ، واعتلى عرش الخلافة بعد وفاة أخيه فى سنة ٢٩٥ هـ، وكانت سنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة وكان الفضل فى اعتلائه العرش للعباس بن الحسن وزير المكتفى بالله، إذ جمع أهل الرأى فى الدولة، وتشاوروا فيما بينهم على من يكون خليفة، فاجتمع رأيهم على تولية المقتدر على الرغم من صغر سنه، تحقيقا لرغبة الخليفة المتوفى واتباعا لمشورة أبى الحسن على بن محمد بن الفرات أحد رؤساء الدواوين فى دار الخلافة. ولما اعلن خبر البيعة للناس ثاروا وعلى رأسهم القواد والقضاة، وطلبوا خلع المقتدر، وتولية عبد الله بن المعتز، فقاومهم الوزير فقتلوه فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ، وخلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز، وتخلف عن البيعة ابن الفرات وخواص المقتدر وبعض القواد مثل مؤنس الخادم ومؤنس الخازن، وأراد المقتدر أن يترك بغداد ويسلم الأمر للخليفة الجديد فامتنع أصدقاؤه، وأشاروا عليه بالقتال، وفى مساء تلك الليلة صعدوا إلى الدار التى فيها ابن المعتز وهجموا علية فتفرق عنه أصحابه، وكان الحسن بن حمدان أحد القواد الذين عاونوه قد فارق بغداد وترك سيده من غير نصير، فلم ير ابن المعتز بدا من الخروج من

بغداد ، وخرج معه وزيره محمد بن داود بن الجراح ، ورجع المقتدر إلى العرش ، وما لبث أن ظفر بابن المعتز فسجنه وعذبه حتى مات وقبض على أعوانه وقتلهم جميعا ، وفى تلك الأثناء اضطربت الأمور فى دار الخلافة واختل الأمن ، وكثر النهب والقتل ، ودخل اللصوص الدور واعتدوا على الأموال والأعراض .

استوزر المقتدر أبا الحسن على بن محمد الفرات ، وقلد أمر الشرطة مؤنسا الخازن ، وقد قضى ابن الفرات فى وزارته الأولى ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما ، ثم غضب عليه المقتدر فعزله وصادر أملاكه . واستوزر محمد بن عبيد الله بن خاقان ، وفى عهد وزارته أهملت أمور الدولة وانتشرت الرشوة وانغمس الخليفة فى اللذات ، وترك الأمور للوزير الأول ، وكثر العزل والتولية فاضطرب أمر الولاة اضطرابا شديدا ، ونقصت الايرادات العامة نقصا ظاهرا ، وأثرى افراد على حساب أفراد آخرين ، وسقطت هيبة الحكومة ولم يبق للخليفة أدنى سلطان ولا احترام ، ويصور لنا ابن الأثير الحالة أدق تصوير عند ما أورد ذكر القبض على ابن الفرات ووزارة الخاقانى إذ قال :

« ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وفى هذه السنة قبض المقتدر على الوزير أبى الحسن بن الفرات فى ذى الحجة ، وهناك صرعه ونهب ماله ، ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به ، وافتتنت بغداد لقبضه ، ولقى الناس شدة ثلاثة أيام ثم سكنوا ، وقلد أبو على محمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى ابن خاقان الوزارة ، فرتب أصحاب الدواوين وتولى مناظرة ابن الفرات أبو الحسين أحمد بن يحيى بن أبى البغل ، وكان أخوه أبو الحسن بن أبى البغل مقيما بأصبهان فسعى أخوه له فى الوزارة هو وأم موسى القهرمانة ، فأذن المقتدر فى حضوره ليتولى الوزارة فحضر ، فلما بلغ ذلك الخاقانى انحلت

أموره فدخل على الخليفة وأخبره بذلك ، فأمره بالقبض على أبى الحسن وأبى الحسين أخيه . فقبض على أبى الحسن وكتب فى القبض على أبى الحسين ، فقبض عليه أيضا ، ثم خاف القهرمانة فأطلقهما واستعملهما ، ثم أن أمور الخاقانى انحلت لأنه كان ضجورا ضيق الصدر مهملا لقراءة كتب العمال وجباية الأموال ، وكان يتقرب إلى العامة والخاصة ، فمنع خدم السلطان وخواصه أن يخاطبوه بالعبد ، وكان إذا رأى جماعة من الملاحين والعامة يصلون جماعة ينزل ويصلى معهم ، وإذا سأله أحد حاجة دق صدره وقال نعم وكرامة ، فسمى « دق صدره » إلى أنه قصر فى إطلاق الأموال للفرسان والقواد فنفروا عنه ، واتضعت الوزارة بفعله ما تقدم ، وكان أولاده قد تحكموا فيه فكل منهم يسعى لمن يرتشى منه . وكان يولى فى الأيام القليلة عدة من العمال حتى أنه ولى بالكوفة فى مدة عشرين يوما سبعة من العمال ، فاجتمعوا فى الطريق فعرضوا توقيعاتهم ، فسار الأخير منهم وعاد الباقون يطلبون ما خدمهم به أولاده ، فقيل فيه :

وزير قد تكامل فى الرقاعة ... يولى ثم يعزل بعد ساعه
اذا أهل الرشا اجتمعوا لديه ... فخير القوم أوفرهم بضاعه
وليس يلام فى هذا بحال ... لأن الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الأمر حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال ، فانحلت القواعد وخبثت النيات واشتغل الخليفة بعزل وزرائه والقبض عليهم ، والرجوع الى قول النساء والخدم ، والتصرف على مقتضى آرائهن فخرجت الممالك وطمع العمال فى الأطراف » .

استوزر المقتدر غير هذين الوزيرين وزراء آخرين ، اشتهر منهم على ابن عيسى ، وكان رجلا متدينا عارفا بالاعمال حافظا للأموال بعيدا عن

التبذل والهزل ، ولكن السعاية عملت عملها ولم تتركه حكومة النساء هادىء البال ، فغضب عليه الخليفة وقبض عليه وأعاد ابن الفرات الى الوزارة ، ولكن عزل وتولى أمرها غيره ، وكان أبو على بن مقله من الذين تولوا الوزارة فى ذلك العهد ، وكما كانت له يد ماهرة فى الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة فى أخذ الرشا على التولية والعزل ، واستمر الخليفة يغير ويبدل فى الوزراء حتى تولى الوزارة فى عهده اثنا عشر وزيرا ، « وكانت الوزارة تنال بالرشوة ودخل فى أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ، ولم يكن الصالح منهم يبقى فى العمل كثيرا لأن مدار طول المدة كان على رضا ام المقتدر وقهرمانته وخدم الدار ، وهؤلاء لا يرضون الا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التى تفسد بها الثروة وتختل موازنتها ، فمتى حصل التقصير فى ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثانى ، وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها ، حتى لم يكن لها فى نظر العامة ولا فى نظر متغلبي الأطراف حرمة . »

أمر القرامطة فى زمن المقتدر :

ازداد نفوذ القرامطة فى عهد المقتدر ، وعملوا على الاخلال بالأمن فى العراق والحجاز ، وكان زعيمهم بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى قد استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر البلاد ، ولما قتل فى سنة ٣٠١ هـ تولى الأمر بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابى وقد حاول الاستيلاء على البصرة وغزاها غزوات متتالية ، ودخلها فى سنة ٣١١ هـ ، وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها ، ثم خرج منها وتوجه الى طريق الحاج ليلتقى بالحجاج عند رجوعهم الى مكة ، وقابلهم ونهب ما كان عندهم ، وأسر عددا كبيرا وترك الباقى ، فمات أكثرهم جوعا وعطشا من حر

الشمس ، فغضب أهل بغداد غضبا شديدا عند ما علموا بالخبر وهاجوا وتطاولوا على الخليفة ووزيره ، واضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من اسرى الحاج فأطلقهم ، وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر . وأرسل الى جعفر بن ورقاء الشيبانى عامل الكوفة لمقابلة القرمطى ومحاربته ، فخرج إليه ولكن غلب على أمره ، ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام بها ستة أيام وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب . ثم عاد إلى هجر ، وفى سنة ٣١٥ ه أرسل الخليفة قائدا آخر لمحاربة أبى طاهر ولكن غلب على أمره أيضا ، وانتصر القرامطة وهددوا بغداد وما حولها من البلدان والمدائن ، واستولوا على مدينة الأنبار وخضعت لزعيمهم الجزيرة ثم عاد إلى الكوفة وزاد عدد أنصاره ودخل خلق كثير فى مذهب القرامطة بسبب تلك الانتصارات ، وفى سنة ٣١٧ه سار أبو طاهر الى مكة فى موسم الحاج ونهب وسلب أموال الحجاج وقتل من فى المسجد الحرام ، وقلع الحجر الاسود وحمله إلى هجر ، وأخذ كسوة البيت وقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة ،

يقول الخضرى بك : « ولم يحصل فى التاريخ ان انتهكت حرمة هذا البيت الى هذا الحد حتى أن المهدى عبيد الله العلوى لما علم ذلك كتب إلى أبى طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ، ويقول ، قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت ، وإن لم ترد على أهالى مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود الى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة . فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود ، واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال : إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم . »

علاقة المقتدر بالدولة البوزنطية :

انتهز الروم فرصة اضطراب الأحوال فى الدولة العباسية بسبب ضعف الخليفة و أغاروا على أطرافها إغارات متتالية ، فأغاروا عليها سنة ٣٠٣ ﻫ وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه ، وفى سنة ٣٠٥ ﻫ حصل فداء بين المسلمين والروم اجابة لطلب زوا ملكة الروم التى أرسلت إلى بغداد رسولين فأكرم المقتدر وفادتهما اكراما كبيرا ، وسير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء وجعله أميرا على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه ، ولكن لم يدم الصفاء طويلا بين الدولتين ، وفى سنة ٣١٣ ﻫ ، طلب ملك الروم إلى أهل الثغور الاسلامية أن يحملوا الخراج اليه ، ولما رفضوا خرج اليهم فى السنة التالية ودخل ملطية وخرب دورها وسلب أموال أهلها ، وفى سنة ٣١٥ ﻫ ، اغار الروم على مدينة دبيل وهى قاعدة ارمينية ، وقابلهم المسلمون ودافعوا عن أوطانهم دفاعا مجيدا ، ونجحوا فى صد الروم واتخذ المسلمون خطة الهجوم بعد ذلك باربع سنوات ، وغزوا بلاد الروم وهددوا عمورية و انقرة ، وكان قائدهم يسمى ثمل ، وكان من غلمان المقتدر ووالى الثغور ، وقد اشتهر بالشجاعة والاقدام ، واليه يرجع الفضل فى استعادة هيبة الدولة فى آسيا الصغرى

الشغب فى بغداد وقتل المقتدر :

اشتهر رجلان من قواد المقتدر وهما مؤنس المظفر ، وكان القائد العام للجيوش ، ومحمد بن ياقوت وكان ينافس مؤنسا فى جاهه ومرتبته ، وفى سنة ٣١٧ ﻫ ، اجتمع بعض رجال الدولة وتآمروا على خلع المقتدر

وخلعوه، وأعلنوا انضمامهم إلى القاهر أخيه، ولكن مؤنسا تغلب على المتآمرين وأعاد الخليفة إلى عرشه. وغضب مؤنس بعد ذلك بسبب دسائس الحسن بن القاسم وزير المقتدر وقتئذ، وخرج إلى بلاد الموصل واستولى عليها بعد أن انتزعها من يد أمرائها بنى حمدان، وقوى نفوذه فى تلك البلاد، وزاد عدد أنصاره وجنوده. وساءت الأحوال فى بغداد فاستدعاه الخليفة ليعاونه فى ادارة الشئون، فلبى مؤنس الطلب ورجع إلى العاصمة، ولكن قبل أن يصلها تغير قلب الخليفة عليه، وخرج لمحاربته هو ومن معه فانتصر مؤنس وقتل الخليفة فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ، «وكان مؤنس فى الراشيدية لم يشهد الحرب، فلما حمل رأس المقتدر اليه بكى ولطم وجهه ورأسه وقال: يامفسدون ما هكذا أوصيتكم.» ثم تقدم إلى الشماسية وانفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب. يقول ابن الأثير:

«وكان ما فعله مؤنس سببا لجرأة الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال، وانحرقت الهيبة وضعف أمر الخلافة، حتى صار الأمر إلى ما نحكيه. على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيرا وحكم فيها النساء والخدم وفرط فى الأموال وعزل الوزراء وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة، وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرا وتضييعا فى غير وجه نيفا وسبعين الف الف دينار سوى ما أنفقه فى الوجوه الواجبة، واذا اعتبرت أحوال الخلافة فى أيامه وأيام أخيه المكتفى ووالده المعتضد رأيت بينهم تفاوتا بعيدا.»

يقول موير: «قد جر حكم هذا الخليفة البائس الطويل الخلافة إلى أحط الدرجات، وكان الخليفة فى بغداد ألعوبة فى أيدى الحرس الأجنبى

وكانت النساء لها الكلمة العليا فى شئون الدولة ، وأصبح العرش موضع سخرية فى الداخل ، وهدفا لطمع المغيرين من الخارج . ولم تعد بغداد المدينة القادرة على صد هجمات المغيرين بل تدهورت الأخلاق فيها ولعبت الدسائس والاضطرابات فيها دورا خطيرا . »

٢ — أبو منصور محمد القاهر

(٣٢٠ — ٣٢٢ ﻫ) (٩٣٢ — ٩٣٤ م)

اعتلى عرش الخلافة أبو منصور محمد بن المعتضد بعد قتل أخيه ، وتلقب بالقاهر بالله ، وكان مؤنس يرى اجلاس ابن المقتدر على العرش بعد أبيه ، ولكن كبار رجال الدولة أرادوا أن يروا رجلا كاملا على العرش . يدبر نفسه ويدبر أمر الرعية ، فأجمعوا رأيهم على انتخاب القاهر وبايعوه ، واستقرت له الخلافة ، وبايعه الناس واستوزر أبا على بن مقلة ، واستحجب على بن بليق ، وقد ساءت أحوال الدولة فى عهده ، وطارد القاهر رجال المقتدر مطاردة عنيفة ، وصادر أملاكهم ، وعامل والدة المقتدر ونساءه وأهل بيته معاملة قاسية ، وأخذ منهم الأموال وسلبهم المتاع ، وقرب اليه محمد ابن ياقوت منافس مؤنس ، فغضب القوم ودبروا مؤامرة لخلعه ، ولكن الخليفة علم بخبر تلك المؤامرة وقبض على رؤساء المتآمرين ومنهم مؤنس وأمر بقتلهم فقتلوا جميعا ، واستمر القاهر فى شدته وقسوته حتى أغضب الجميع ، ونجح ابن مقلة فى اكتساب قواد الجند الى جانبه ، وأراد الخلاص من الخليفة ، فاتفق مع القواد على خلعه ، ودخلوا عليه ذات ليلة وكان مخمورا وطلبوا اليه التنازل عن العرش ، ولما امتنع قبضوا عليه وسملوا عينيه وسجنوه ، فانتهت مدة خلافته فى أوائل جمادى الأولى سنة ٣٢٢ ﻫ بعد أن حكم سنة وستة اشهر وثمانية أيام .

٣ — أبو العباس أحمد بن المقتدر الراضى

(٣٢٢ — ٣٢٩ ﻫ) (٩٣٤ — ٩٤٠ م)

ولد أبو العباس أحمد بن المقتدر فى سنة ٢٩٧ ﻫ ، وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ ﻫ ، واعتلى العرش وتلقب بالراضى ، وقد أخرجه القواد من السجن وبايعوه بالخلافة ، وقد ازدادت الحالة اضطرابا فى عهده وضعفت الخلافة العباسية ضعفا كبيرا ، وتضاءلت قوة الخليفة حتى أصبحت لاتتعدى بغداد وما جاورها من البلدان القريبة وانتهز حكام الأقاليم والولاة فرصة هذا الضعف والاضطراب ، ووسعوا سلطانهم ، وقووا نفوذهم ، واستقلوا بأماراتهم ، وبعد أن كان لقب أمير المؤمنين مقصورا على خلفاء الدولة العباسية أصبح حكام الأندلس من الأمويين يطمعون فى نيل هـذا اللقب الرفيع ، وأعلن عبد الرحمن الناصر الأموى نفسه أميرا للمؤمنين فى بلاد الاندلس وشمال أفريقية ، ونشطت الدولة العبيدية فى بلاد المغرب ، وزحفت نحو مصر تحاول الاستيلاء عليها وظهر بنوبويه فى بلاد الديلم واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز ، وهدد الروم الثغور الاسلامية وغزوا البلاد واقتطعوها من أيدى المسلمين

استوزر الراضى ابن مقلة ، واستحجب محمد بن ياقوت فكان لهما الحل والعقد فى أمور الدولة ، ولكنهما ما لبثا أن تنافسا ، وأوقع ابن مقلة بمحمد ابن ياقوت وبأخيه المظفر ، فقبض الخليفة عليهما وأودعهما السجن فمات محمد بن ياقوت فى السجن ، ثم عفا عن أخيه بعد ذلك وأطلق سراحه ، فأخذ يدس لابن مقلة حتى غير قلب الخليفة عليه ، وتمكن من القبض عليه وسجنه وصادر أملاكه ، واضطربت الأحوال وازدادت سوءا ، وقلت الأموال

وخلت الخزينة العامة ، وهاج الجند ، وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يرسله إلى بغداد من الأموال وتبعه البريدى والى الاهواز ، وعظم أمر ابن بويه فى بلاد فارس ، ورأى الخليفة أن يخرج من المأزق ، فبعث الى ابن رائق يعرض عليه ولاية بغداد فأجاب الطلب وحضر الى بغداد ، وقلده الراضى الولاية ولقبه بأمير الامراء ، « وولاه الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر ، وأنفذ اليه الخلع ، فانتقل السلطان ببغداد اليه ، ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شيء من الأمور ، وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها ، وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده ، وصارت الأموال تحمل الى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون ، وبطلت بيوت الأموال ، وتغلب أصحاب الاطراف وزالت عنهم الطاعة ، ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها ، والحكم فيها جميعها لابن رائق ، ليس للخليفة حكم . »

المنافسة بين ابن رائق والبريدى :

ازداد نفوذ أبى عبد الله البريدى فى بلاد الأهواز ، واستفحل أمره فى تلك الجهات ، فحقد عليه ابن رائق وأرسل جندا لقتاله فى الأهواز ، واختار لقيادتها قائدين من أمهر قواد الدولة ، وهما بدر الخرشنى وبجكم الديلمى ، وسار بجكم ومن معه لقتال البريدى وأخيه ابى يوسف البريدى الذى كان واليا على البصرة ، ونجح بجكم فى الاستيلاء على معاقل البريدى فى الأهواز فسار البريدى الى الأبلة وانضم اليه أعيان البصرة ، وقاوم قوات الدولة مقاومة عنيفة ، فخرج اليه ابن رائق بنفسه ووصل الى مدينة واسط ، وطلب الى بجكم أن يلحق به فجاءه ، ولكن البريدى ومن معه تغلبوا عليهما

وانتصروا على رجالها ، وكتب البريدى إلى أمير آل بويه المسمى عماد الدولة يطالب معاونته وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه ، فسير معه أخاه معز الدولة وحارب بجكم ، استرد بلاد الأهواز ، ورجع بجكم إلى مدينة واسط

المنافسة بين بجكم وابن رائق :

ضعف نفوذ ابن رائق فى بغداد ومنع عنه بجكم الأموال التى كان يرسلها من واسط ، وفعلت الدسائس فعلها فى دار الخلافة ، وتمكن ابن مقلة من تغيير قلب الخليفة على أمير الأمراء ، وحسن له اقامة بجكم فى إمارة الأمراء مكانه ، وقبل الخليفة الفكرة ، فكتب ابن مقلة إلى بجكم بما استقر عليه الأمر فترك واسط وأتى إلى بغداد ، وفى منتصف ذى القعدة سنة ٣٢٦ هـ ، دخل العاصمة بعد الانتصار على ابن رائق وجنده ، واختفى ابن رائق ، وأقام الخليفة بجكم أميرا للأمراء مكانه وخلع عليه ، وفى أوائل سنة ٣٢٧ هـ ، ثار على الدولة أمير بنى حمدان ببلاد الموصل ومنع الأموال التى كان يرسلها إلى دار الخلافة ، فخرج اليه الراضى وبجكم وتركا بغداد ، فانتهز ابن رائق تلك الفرصة وظهر من مخبأه واستولى على بغداد ، فأسرع الخليفة وأميره بالعودة اليها بعد أن صالحا ناصر الدولة ابن حمدان ، ولما قربا من العاصمة طلب ابن رائق الصلح فأجيب إلى طلبه ، وعين واليا على سورية والشمال ، وقلد طريق الفرات وديار مضر والرها وجند قنسرين والعواصم

قيام الدولة الأخشيدية بمصر :

اضطربت الأحوال فى مصر بعد سقوط حكم الطولونيين منها ، وعادت ولاية تابعة للخلفاء كما كانت من قبل ، ولكن الخلفاء لم يستطيعوا بسط

نفوذهم فيها لضعفهم ، فصار جنود الأتراك يسيرون أمورها ، وكانت الجيوش التى ترسل لتوطيد النظام هى صاحبة النفوذ المطلق فعمت الفوضى وتحرج الموقف ، وأخذ الفاطميون يهددون سلامة البلاد ، وأغاروا عليها المرة بعد الأخرى ، وفى زمن المعتضد تعين محمد بن طغج الأخشيد وهو من أسرة ملوك فرغانة القدماء الذين أطلق عليهم اسم الأخشيد ، وفى عصر الراضى تولى محمد الأخشيد إدارة الشئون فى مصر . فأعاد الأمن إلى نصابه ، واخرج الفاطميين من الاسكندرية . فعظم نفوذه وأصبح شبه أمير مستقل فى مصر ، ولما تولى ابن رائق أمر سورية والشام زحف على حمص ودمشق ، وأخرج منهما قوات محمد الأخشيد ، واضطر الأخشيد لمصالحته وتنازل له عن الجزء الشمالى من بلاد الشام ، ولما مات ابن رائق استرد الأخشيد ما فقده فعظم نفوذه ، وولاه الخليفة حكم مكة والمدينة ، وتمكن من جعل الحكم وراثيا فى أسرته وأخذ البيعة لابنه واستمرت أسرته تحكم مصر وتوابعها حتى سنة ٣٥٨ ﻫ ، ٩٦٩ م ، وفى تلك السنة كان الفاطميون قد ازدادوا شوكة ونفوذا واتسع سلطانهم ، وأغاروا على الصعيد ، وتمكن جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى من الدخول إلى عاصمة البلاد وقضى على ملك الأخشيديين بعد أن استمر ٣٤ سنة ، واشتهر من هؤلاء الأخشديين غير أولهم أبو المسك كافور مولى الأخشيد (٣٥٥ — ٣٥٧ ﻫ) وكان آخرهم أبو الفوارس أحمد ابن على الأخشيد

قيام الدولة البويهية :

استفحل أمر آل بويه أمراء الديلم فى أثناء خلافة الراضى ، وازداد نفوذهم فى المشرق ، وأصبحوا مصدر خطر عظيم يهدد كيان الخلافة

العباسية ، وعظم جاههم واتسع سلطانهم حتى استولوا على بغداد فى خلافة المكتفى فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ كما سنبين بعد ، وقد قام هؤلاء الأمراء فى بلاد الديلم ، وهى بلاد واقعة فى الجنوب الغربى من شاطىء بحر الخزر ، ولقد كانت قديما احدى الايالات الفارسية ودخلت فى حوزة المسلمين فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وخضع الديلم للحكم الاسلامى مع بقائهم على وثنيتهم ، وظلوا كذلك حتى أسلم منهم خلق كثير على يد الحسن بن على الملقب بالأطروش ، الذى أقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ، فاجتمعوا عليه وبنى فى بلادهم المساجد وازدادت بهم شوكته ، واستولى على طبرستان وجرجان بمعاونة رئيسين من رؤساء الديلم وهما ليلى بن النعمان و « ماكان بن كالى » ، وفى سنة ٣٠٤ هـ توفى الأطروش وكان يلقب بالناصر لله ، فتولى الأمر بعده فى طبرستان ولدان من أولاده وخرجت جرجان من أيديهما ، اذ استولى عليها أمراء الدولة السامانية ، وظلت تلك البلاد ميدانا للفتن والقلاقل حتى ظهر فيها أحد رؤساء الديلم المسمى مرداويج بن زيار الجيلى وملكها ، والتفت حوله الجنود لحسن سيرته ، واتسعت رقعة ملكه ، وخضعت له الديلم ، وذهب الى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة فتم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها ، وبلغت عساكره الى نواحى حلوان وهى أول حدود العراق ، ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز ، وأرسل الى المقتدر رسولا يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه الخليفة الى ذلك ، فاستقرت قدمه وثبت نفوذه ، وقدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم وهم الحسن وعلى وأحمد أولاد بويه وكانوا قبلا من قواد « ماكان بن كالى » وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية « التى امتلكت ناحية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الاسلامية ، وهى التى تكون الدور الثانى من أدوار الخلافة العباسية . »

يقول أبو الفداء فى الجزء الثانى صحيفة ٧٨ : « كان بويه رجلا متوسط الحال من الديلم وكنيته أبو شجاع ، ولما عظمت مملكة بنى بويه اشتهر نسبهم . . . وكان لبويه المذكور ثلاثة أولاد وهم عمادالدولة أبوالحسن على ، وركن الدولة الحسن ، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد ، وكانوا فى خدمة ماكان بن كالى الديلمى لايفارقونه ، فلما رأوا ضعفه وعجزه عن مقاتلة مرداويج فارقوه ولحقوا بمرداويج ، وتبعهم فى ذلك جماعة من قواد «ماكان» فأحسن اليهم ، وقلد عماد الدولة على بن بويه كرج ، ولما استقر عماد الدولة فى كرج قوى وكثر جمعه . . . . ثم قصد أصفهان وانتزعها من ابن ياقوت فعظم فى عيون الناس وقويت هيبته ، وأقام بأصفهان شهرين وجبى أموالها وارتحل عنها إلى أرجان واستولى عليها فى ذى الحجة سنة عشرين وثلثمائة ، ثم سار إلى النوبندجان واستولى عليها فى ربيع الآخر من سنة أحدى وعشرين وثلثمائة ، ثم أرسل أخاه ركن الدولة إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس فاستخرج أموالها »

ثبت ملك عماد الدولة أبى الحسن على بن بويه ، وأرسل إلى الراضى وإلى وزيره ابن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ، ويطلب أن يقاطع على مابيده من البلاد وبذل ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك ، وأنفذت اليه الخلع واللواء ، وقد غضب مرداويج لما ناله ابن بويه من الحظوة عند الخليفة وهب لمقاتلته وانتصر عليه فى شوال سنة ٣٢٢ ﻫ ، ثم تصالحا على أن يخطب ابن بويه لمرداويج وأهدى له هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة وفى سنة ٣٢٣ ﻫ ، تمرد بعض جند الأتراك فى جيش مرداويج وقتلوه فتخلص ابن بويه من شره ، وخلا له الجو فى تلك الأصقاع ، وتخلص الحسن بن بويه من الأسر وسار إلى أخيه بفارس ، وأصبحت بلاد المشرق تخضع لثلاث قوات فكان آل بويه فى فارس ، والسامانيون فى

خراسان وما وراء النهر، وشمكير بن شيرويه أخو مرداويج فى بلاد الرى، وكانت القوة النامية بينها هى قوة آل بويه. فقد استطاع الحسن بن بويه أن ينزع من وشمكير البلاد التى كانت معه، وخطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة، فأرسل أخاه الأصغر أحمد اليها. وحارب بجكم وانتصر عليه بجهة واسط. واستولى على الأهواز، ثم استعد آل بويه للزحف على العراق وبينما هم يجهزون انفسهم كاتب قواد الخليفة ببغداد أحمد بن بويه يطلبون اليه المسير للاستيلاء على بغداد، فسار اليها ووصلها فى ١١ جمادى الاولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة بها هو المكتفى بالله

فتنة الحنابلة ببغداد فى أيام الراضى:

ظهرت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فى أوئل حكم الراضى وقويت شوكة الحنابلة وازداد نفوذهم واستعانوا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد، وكانوا إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت، ويقول أبو الفداء: «عظم أمر الحنابلة على الناس وساروا يكبسون دور القواد والعامة فان وجدوا نبيذا اراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا فى البيع والشراء وفى مشى الرجال مع الصبيان ونحو ذلك، فنهاهم صاحب الشرطة عن ذلك، وأمر أن لا يصلى منهم امام إلا اذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فلم يفد فيهم، فكتب الراضى توقيعا ينهاهم فيه ويوبخهم باعتقاد التشبيه، فمنه انكم تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، وهيئتكم على هيئته وتذكرون له الشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا، وعدد فيه قبائح مذهبهم، وفى آخره أن أمير

المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ، ليوسعنكم ضربا وقتلا وتبديدا ، وليستعملن السيف فى رقابكم ، والنار فى منازلكم ومالكم »

وقد أحدثت هذه الفتنة فى البلاد اضطرابا كان له أسوأ العواقب فى قوة الدولة العباسية

وفاة الراضى واخلاقه :

فى منتصف ربيع الأول من سنة ٣٢٩ هـ مات الراضى بالله ، وكانت خلافته ست سنين وعشرة أيام ، وكان أديبا مشاعرا فمن شعره الرقيق

يصفر وجهى إذا تأمله طرفى فيحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذى بوجنته من دم وجهى اليه قد نقلا

« وكان الراضى سخيا يحب الأدباء والفضلاء ، وهو آخر خليفة له شعر يدون ، وآخر خليفة خطب كثيرا على منبر ، وكان آخر خليفة جالس الجلساء ، وآخر خليفة كانت نفقته وجراياته وخزانته ومطابخه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين . »

٤ — ابراهيم المتقى لله
(٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) (٩٤٠ — ٩٤٤ م)

تولى ابراهيم بن المعتمد بن أحمد الموفق عرش الخلافة بعد موت الراضى وتلقب بالمتقى بالله ، وكان الفضل فى اختياره لكرسى الخلافة لبجكم ، وكان بواسط عند وفاة الراضى فأرسل وزيره أبا عبد الله الكوفى الى بغداد وأمره أن يجمع وجوه الدولة ويختاروا الخليفة ، فاجتمعوا واتفقوا على انتخاب ابراهيم بن المقتدر بالله وبايعوا له ، وسير الخلع واللواء الى بجكم وهو بواسط

وقد استأثر بجكم بالنفوذ والسلطان فى الدولة ، وكان يعاضده فى ادارة الشئون وزيره الكوفى ، ولكن حوادث تلك السنة انتهت بقتل بجكم ، فقد قتله جماعة من الأكراد وكان قد خرج للصيد وهو فى طريقه الى واسط بعد أن انتصر على عبد الله البريدى ، ففرح البريدى لخبر القتل وسار الى بغداد . وفى شهر رمضان سنة ٣٢٩ ﻫ دخلها وأدار الشئون بها أياما ، ثم ثار العامة فى وجهه وأخرجوه منها لسوء سيرته ، وتولى الأمر فيها بعده أحد قواد الديلم المسمى كورتكين ، وولاه المتقى منصب أمير الأمراء وخلع عليه

رجوع ابن رائق الى بغداد وقتله :

اضطربت الأمور فى عاصمة الخلافة بسبب اعتداءات جند الديلم على الاهالى ، وكان كورتكين ضعيفا فلم يستطع القبض على ناصية الحال ، فرأى المتقى أن يطلب من ابن رائق العودة الى بغداد ، فأرسل فى طلبه فلبى الدعوة واستخلف على الشام أبا الحسن أحمد بن على بن مقاتل ، ولما وصل الى بغداد قاتل كورتكين وانتصر عليه وسجنه ، فولاه الخليفة منصب إمرة الأمراء ببغداد ، ولكنه لم يبق فى منصبه طويلا ، اذ أسرع البريدى وأرسل جندا فى الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم يلق مقاومة كبيرة ، ودخل المدينة ، وهرب المتقى وابنه وابن رائق الى الموصل يطلبون النجدة من أمير حمدان وقد ارتكب البريدى ورجاله فى بغداد أمورا أغضبت الاهالى غضبا شديدا ، وقد انتهز ناصر الدولة أمير حمدان هذه الفرصة وطمع فى منصب إمرة الأمراء ، واغتال ابن رائق وتولى منصبه فى شعبان ٣٣٩ ﻫ

استعد ناصر الدولة بعد ذلك للزحف على بغداد ، وخرج اليها ومعه المتقى ، وقد دخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش كثيرة ، وهرب عنها ابو الحسين ابن البريدى ، وسار الى واسط بعد أن أقام ببغداد نحو أربعة

شهور ، ثم خرج بنو حمدان يزحفون الى واسط للقضاء على نفوذ البريدى فيها ، فأقام ناصر الدولة فى المدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى وتمكن من الاستيلاء على واسط بعد معارك دموية ، ثم حصل شقاق بين الأخوين فترك ناصر الدولة بغداد بعد أن مكث بها نحو ثلاثة عشر شهرا ، ورجع الى بلاد الموصل ، وخلت وظيفة إمرة الأمراء

توزون أمير الأمراء :

كان أكبر قواد الديلم فى ذلك الوقت هو توزون ، فلما خلا منصب إمرة الأمراء ولاه المتقى هذا المنصب الخطير ، فسار فيه سيرة رديئة ، وتحكم فى أمور الدولة ، وخاف المتقى العواقب فخرج من بغداد الى بلاد الموصل للاستنجاد بأمراء حمدان ، وقابله سيف الدولة بتكريت وانضم اليه ناصر الدولة ، وزحف توزون لقتال بنى حمدان وانتصر عليهم ومعهم الخليفة فتركوا الموصل وذهبوا الى الرقة وأقاموا بها ، وكتب المتقى الى الاخشيد صاحب مصر يشكو اليه حاله وما هو فيه ، فسار الاخشيد من مصر الى حلب ثم الى الرقة واجتمع بالمتقى وحمل اليه الهدايا ، وطلب الى الخليفة أن يسير معه الى مصر فامتنع ، وكاتب توزون فى أمر الصلح فقبل ، وأقسم للخليفة الا يغدر به فاغتر المتقى بتلك الوعود ورجع الى بغداد

خلع المتقى :

نكث توزون بعهده وقابل الخليفة فى السندية ووكل عليه حتى أنزله فى مضربه ، ثم قبض عليه وسمله وأعمى عينيه ، ثم خلعه فانتهت خلافته ، وأقام توزون مكانه فى اليوم نفسه أخاه الذى تلقب بالمستكفى بالله ، وكان ذلك فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ، وانتهى بخلعه عصر نفوذ الأتراك وعلا نجم آل بويه

الباب العاشر

عصر نفوذ آل بويه

(٣٣٤ -- ٤٤٧) هـ (٩٤٦ — ١٠٥٥) م

انتهت خلافة المتقى بخلعه ، وأحضر توزون أخاه أبا القاسم عبد الله وأجلسه على العرش ، وتلقب بالمستكفى بالله . وكانت مدة خلافته قصيرة ، فانه جلس على العرش سنة واحدة وأربعة شهور ، وكان مغلوبا على أمره . اذ كان الأمر كله بيد توزون أمير الأمراء ، وكان الخليفة ضعيفا لا يستطيع أن يرد لأمير امرائه رأيا أو ينقض أمرا ، بل يخرج فى ركابه اذا ما سار لمحاربة الثوار والخارجين على الدولة ، ويرجع معه الى مقر الملك اذا مافرغ من قتاله ، فوصلت الخلافة فى عهده الى درجة خطيرة من الانحطاط ، وفى شهر المحرم سنة ٣٣٤ هـ مات توزون ببغداد فعقد الأجناد لابن شيرزاد أحد قوادهم الأمرة عليهم ، وكان بعيدا عن العاصمة فحضر الى بغداد مستهل صفر ، وأرسل الى المستكفى فاستحلفه فحلف له بحضرة القضاة وولاه إمرة الأمراء

استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد :

سائت الأحوال فى بغداد الى درجة كبيرة . وحاصرها الأعداء من كل جهة ، وقطعوا عنها المؤن والأقوات ، وشعر الناس بألم الجوع فأكلوا الكلاب والقطط ، ونهبوا البيوت والمخازن ، وهاجر معظم السكان الى

البصرة والى غيرها من المدن الاقليمية ، وشعر أبو جعفر بن شيرزاد امير الأمراء بحرج الموقف وخطورة الحال ، فأرسل يطلب النجدة من ناصر الدولة أمير بنى حمدان وكان بالموصل ويعرض عليه منصبه ، ولكن ناصر الدولة كان إذ ذاك مشغولا بمحاربة الروس الذين أغاروا على أزربيجان ، وكانت باقى قواته تحارب الاخشيديين فى بلاد الشام فلم يستطع تقديم المعونة ، وازدادت الحال تحرجا بسقوط مدينة واسط فى أيدى أحمد ابن بويه وانضمام الجيوش التى كانت بها اليه ، وكاتبه رؤساء الجند ببغداد يطلبون اليه الزحف على بغداد والاستيلاء عليها فسار نحوها . ولما قرب منها هرب الخليفة وأمير أمرائه ، وتشتت شمل الجنود التركية وفر معظمهم إلى بلاد الموصل ، وقدم الحسن بن محمد المهلبى من رجال معز الدولة إلى بغداد ، فظهر المستكفى واجتمع به ، وأظهر السرور بقدوم معز الدولة ، وأعلمه أنه انما استتر خوفا من الاتراك ، فلما ساروا بعيدا عن بغداد ظهر . ثم وصل معز الدولة إلى بغداد ثانى عشر جمادى الاولى من ٣٣٤ﻫ واجتمع بالمستكفى وبايعه ، وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه فى ذلك اليوم بمعز الدولة ، وأمر أن تضرب ألقاب بنى بويه على الدنانير والدراهم ، ونزل معز الدولة بدار مؤنس ، وأنزل أصحابه فى دور الناس فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة ، ورتب معز الدولة للمستكفى كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبه لنفقات الخليفة . »

زال ما كان باقيا من النفوذ للخليفة العباسى فى الدولة الاسلامية باستيلاء آل بويه على بغداد ، وأصبحوا من ذلك اليوم أصحاب السيطرة والسلطان فى أمور الدولة ، فكان مثلهم فيها مثل أمراء الكرولينجان مع ملوك المروفنجيان بفرنسا ، وكان مثل معز الدولة فى إدارة شئون الدولة

العباسية مثل شارل مارتل فى السيطرة على أموال فرنسا فى عصره ، وقد استمروا اسيادا على بغداد والعراق نحو قرن من الزمن ، وتمكنوا فى اثنائه من القضاء على سلطان الأتراك ونفوذهم ، وطردوا بنى حمدان من الموصل، وحكموا الجزيرة والعراق العربى وغربى بلاد العجم حكما فعليا

خلع المكتفى وخلافة المطيع :

لم يمكث المكتفى فى الخلافة بعد استيلاء معز الدولة على بغداد إلا أربعين يوما وخلع ، لأن معز الدولة إتهمه بدس الدسائس له وبالتدبير عليه ، وقال أبو الفداء عن صورة خلعه ما يأتى : « أن معز الدولة وعسكره والناس حضروا إلى دار الخليفة بسبب وصول رسول صاحب خراسان ، فأجلس الخليفة معز الدولة على كرسى ثم حضر رجلان من نقباء الديلم وتناولا يد المكتفى بالله ، فظن أنهما يريدان تقبيلها فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامة فى عنقه ، ونهض معز الدولة ، فاضطرب الناس ، وساق الديلميان المكتفى ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت الخلافة حتى لم يبق بها شىء »

آلت الخلافة بعد المكتفى إلى ابن عمه الفضل ، فاعتلى عرشها و تلقب بالمطيع بالله ، وظل فى كرسى الخلافة نحو تسعة وعشرين عاما ونصف عام (٣٣٤ — ٣٦٣) هـ . ولم يزل خليفة إلى أن خلع فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣ هـ أغسطس سنة ٩٧٤ م ، ولم يكن له من الأمر شىء بل كان النفوذ فى عصره للملوك من آل بويه ولما تقلد أمر الخلافة سلمه معز الدولة المكتفى الخليفة المخلوع فسمل عينيه وسجنه ، وظل ذلك الخليفة البائس مسجونا حتى مات

نفوذ معز الدولة وإدارته :

إستأثر معز الدولة بالنفوذ والسلطان فى كل مظهر من مظاهر الحياة فى الخلافة العباسية . فكان له الأمر والنهى وعلى الخليفة السمع والطاعة ، وقد خطر بباله أن ينقل الخلافة من بني العباس الى العلويين لتشبعه بالآراء الشيعية ، وكان هو وآل بيته يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من العلويين اذ تلقوا المبادىء الاسلامية على يد الحسن بن زيد والحسن الاطروش وكلاهما زيدى ومن غلاة الشيعة

ولكن أصدقاء معز الدولة وخواصه اشاروا عليه ببقاء الخلافة فى بنى العباس حتى يظل متمتعا بالجاه والسلطان ، فانصرف عن الفكرة متبعا نصيحة الناصحين ، وابقى اسم الخلافة للعباسيين وانفرد هو بالسلطان ، وفى عصره ازداد نفوذ الجند واعتدوا على الثروات الفردية وانتزعوها من أيدى أصحابها ، واقطع معز الدولة قواده وأصحابه القرى جميعها ، فظلموا الناس ، واهملت الزراعة ، وقضي نظام الاقطاعات على رخاء العراق ، وضعفت همة الفلاحين ، فلم يقوموا بزرع الارض واصلاحها وتنمية مواردها كما كانوا يفعلون فى العهود التى مضت ، وانتشرت فى البلاد الفتن وقامت الاضطرابات بسبب المنافسات والمنازعات بين جند الأتراك وجند الديلم ، وبسبب الاختلافات الدينية التى تأججت نارها ببغداد وماجاورها من بلاد العراق ، فقد كان أهل تلك الجهات قبل قيام الدولة البويهية على مذهب السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون أبا بكر وعمر على سائرهم ، ولا يقدحون فى معاوية ولا غيره من سلف

المسلمين . فلما أصبح النفوذ لآل بويه وكانوا من غلاة الشيعة كبر شان الشيعة فى البلاد ونما مذهبهم ، وعاضدتهم الحكومة فى آرائهم ، وفى سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا فى عاشر المحرم بذكرى قتل الحسين . فاغلقت الحوانيت وأبطلت الاسواق . ووقفت حركة البيع والشراء . وخرجت النساء منثورات الشعور مسودات الوجوه ، يدرن فى البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن على رضى الله عنه ، وفى ثامن عشر ذى الحجة أمر باظهار الزينة فى البلد ليلا ونهارا احتفالا بعيد الغدير ، والغدير هو الموضع الذى يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه عن علىّ « من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »

يقول الخضرى بك : « وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للاضطرابات المتكررة بين العامة ، والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين ، والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر ، ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها ، فيهون أمرها ماعدا مامنشؤه الدين منها ، وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد . »

العلاقة بين معز الدولة وناصر الدولة بن حمدان :

يقول أبو الفداء : « فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة سار ناصر الدولة الى بغداد ، وأرسل معز الدولة عسكرا لقتاله فلم يقدروا على دفعه ، وسار ناصر الدولة من سامرا عاشر شهر رمضان الى بغداد ، وأخذ معز الدولة المطيع معه وسار الى تكريت فنهبها لأنها كانت لناصر الدولة ، وعاد معز الدولة بالخليفة إلى بغداد ونزل بالجانب الغربى ، ونزل ناصر الدولة بالجانب الشرقى ولم يخطب تلك الايام للمطيع ببغداد . وجرى بينهم ببغداد قتال كثير آخره

أن ناصر الدولة وعسكره انهزموا ، واستولى معز الدولة على الجانب الشرقى وأعيد الخليفة الى مكانه فى المحرم سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، واستقر معز الدولة ببغداد وناصر الدولة بعكبرا ، ثم سار ناصر الدولة الى الموصل واستقر الصلح بين معز الدولة وناصر الدولة فى ذلك الشهر . »

وتجددت الحرب بين الاثنين فى سنة ٣٣٧ هـ ، واستقر الأمر فى النهاية على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام فى كل سنة ثمانيــة آلاف درهم ويخطب فى بلاده لاولاد بويه الثلاثة ، وقامت الحرب بين الاثنين بعد ذلك بعشر سنوات ، وانتصر معز الدولة وطرد ناصر الدولة عن أملاكه واستولى على الموصل ونصيبين ، وفى سنة ٣٤٨هـ ، تم الصلح بين الاثنين بتدخل سيف الدولة أخى ناصر الدولة وكان أميرا على حلب

لاقى معز الدولة صعوبات اخرى فى الجنوب ، فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدى وكان يطمع بالاستقلال بها ، فحاربه معز الدولة وطرده عن البصرة ، وفى عهده ظهرت قوة جديدة زادت متاعبه ، وهى قوة عمران ابن شاهين ، فقد ظهر عمران فى البطيحة ، وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة ، وأسس له ولأسرته ملكا واسعا فى تلك الأصقاع دام حتى سنة ٤٠٨ هـ ، وكثيرا ما شغل جنود الدولة فى حروب طويلة شاقة كان النصر فيها طورا الى جانبه وطورا الى جانب معز الدولة ورجاله

مات معز الدولة فى سنة ٣٥٦ هـ وخلفه ابنه بختيار فى ادارة شئون الدولة وتلقب بعز الدولة ، وقد استمر يدير أمور الخلافة مدة ١١ سنة وكان ميالا الى معاشرة النساء والمغنين ، فساءت الحال فى العراق ، وكثرت الفتن ، واضمحلت البلاد . فأنتهز الروم تلك الفرصة وأغاروا على الثغور الاسلامية ، ولم يستطع سيف الدولة على بن حمدان أمير تلك الجهات أن يرد غارات هؤلاء الاعداء ، على الرغم مما بذله من الجهود العظيمة فى أمر

محاربتهم، واستولى الروم على مرعش، وأوقعوا بأهل طرسوس، وفى سنة ٣٥١ ﻫ غزا الدمستق عين زربة وهى من أحصن مدن الثغور واستولى عليها وقتل أهلها، وفتح حولها ٥٤ حصنا للمسلمين، وفى تلك السنة استولى الروم على مدينة حلب وطردوا منها سيف الدولة، وفى سنة ٣٥٤ ﻫ دخل الروم المصيصة وطرسوس، وبعد ذلك بأربع سنوات دخلوا الشام وأحرقوا البلاد وخربوها ونهبوا وسلبوا وسبوا كثيرا، ثم استمروا يغيرون على أملاك المسلمين وينتزعونها من أيديهم حتى صارت لهم الهيبة فى قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام «وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون»

خلع المطيع وخلافة الطائع :

مرض المطيع فى أواخر أيامه ولم يعد قادرا على العمل، فأشار عليه سبكتكين مقدم الاتراك أن يعتزل العمل فخضع لتلك المشورة، وفى منتصف ذى العقدة سنة ٣٦٣ ﻫ خلع نفسه، وخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو الفضل عبد الكريم وتلقب بالطائع لله (٣٦٣—٣٨١ ﻫ) (٩٧٤ – ٩٩١م) وقد استمر خليفة سبعة عشر عاما وثمانية اشهر وستة أيام، وكان مثله مثل من سبقه من الخلفاء، لاحول له ولا قوة أمام أمراء آل بويه، غير أن أفراد تلك الأسرة الديلمية قد انقسموا على انفسهم. واضطرب أمرهم فى العراق، ونازع بعضهم البعض فى الرياسة والنفوذ، وقد ظل عز الدولة يدير الشئون على حسب ما يشتهى حتى سنة ٣٦٧ ﻫ، وفى تلك السنة تغلب عليه ابن عمه عضد الدولة، وكان أميرا على الجبل والرى، وحضر الى بغداد وقبض على وزير بختيار الامير محمد بن بقية وصلبه على رأس الجسر فى شوال

سنة ٣٦٧ هـ . وهو الذى رثاه أبو الحسين الانبارى بقصيدته المشهورة التى أولها

علو فى الحياة وفى الممات   لحق تلك احدى المعجزات

وقد استقر ملك عضد الدولة فى العراق وما معها من ملك أبيه وعمه ، وأخرج بنى حمدان من الموصل وتملكها . وفى سنة ٣٧١ هـ انتزع جرجان من واليها قابوس بن وشمكير ، « ولم يقم فى آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة واقداما ، وكان عاقلا فاضلا . حسن السياسة . كثير الاصابة ، شديد الهيبة . بعيد الهمة ثاقب الرأى محبا للفضائل . واهبا باذلا فى موضع العطاء ، مانعا فى مواضع الحزم ناظرا فى عواقب الامور . »

وقد ظل عضد الدولة قائما بالأمر حتى توفى فى شوال سنة ٣٧٢ هـ ، فاجتمع القواد وكبار الدولة وبايعوا لابنه الملقب بصمصام الدولة . وقد نازعه أخوه شرف الدولة الذى كان أميرا بفارس فى ذلك الوقت ، وخرج بجيشه لمحاربته واستولى على الاهواز ، وسار إلى البصرة وملكها ، واخيرا طلب صمصام الدولة الصلح ، فتصالح الأخوان على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ، ثم عاد النفوذ بينهما وتغلب شرف الدولة على أخيه وزحف على بغداد فى سنة ٣٧٦ هـ ودخلها فى رمضان من تلك السنة ، وقد استمر يدير الشئون نحو سنتين وثمانية أشهر ثم مات فى جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ هـ . ومن فضائله أنه منع الناس من السعايات ولم يقبلها ، فأمن الناس وسكنوا ، وتولى أمر العراق بعده أخوه بهاء الدولة وفى عهده حصل شقاق عظيم بين جند الأتراك وجند الديلم ، وتغلب الأتراك عليهم

خلع الطائع وخلافة القادر :

قلت الأموال العامة فى سنة ٣٨١ هـ ، وثار الجند يطلبون ارزاقهم ، فأشار البعض على بهاء الدولة أن يصادر أموال الخليفة ، وحسن له القبض عليه ، فأخذ بالرأى وخلع الطائع وصادر املاكه وحمله إلى داره ، وانتهى حكم الطائع ، وفى عهده كانت بلاد الشام مسرحا لقتال الفاطميين والترك والقرامطة ، وتولى عرش الخلافة بعده ابن عمه أبو العباس أحمد القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) (٩٧٤ — ١٠٣١ م) ، وقد عمر طويلا فى الخلافة إذ كانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما ، وفى عهده الطويل ظهرت دويلات كثيرة فى أنحاء الدولة العباسية فى المشرق والمغرب ، وحلت محل دويلات أخرى ، وكان لكل منها شأن عظيم فى تاريخ الامة الاسلامية ، فظهرت الدولة النجاحية بمدينة زبيد وقامت على انقاض الدولة الزيادية ، فقد استطاع المؤيد نجاح وكان مولى من مولى آل زياد أن يتولى ملك تهامة اليمن فى سنة ٤١٢ هـ ، وينشر نفوذه على ما جاوره من الاملاك ، وظل قائما بالأمر فى تلك الجهات هو ومن خلفه من أعقابه حتى سنة ٥٥٤ هـ ، وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهدية وقام بالجزيرة ثلاث دول فقامت دولة فى ديار ربيعة واتخذت مدينة الموصل عاصمة لها ، وكان أول أمرائها هو حسام الدولة المقلد بن المسيب ، وكان آخرهم هو على بن مسلم بن قرواش وعلى يديه سقطت الامارة فى يد السلاجقة فى سنة ٤٨٩ هـ ، وقامت الدولة الثانية فى ديار بكر واتخذت مدينة آمد عاصمة لها ، وكان أمراؤها من الاكراد ، واسسها أبو على الحسن بن مروان سنة ٣٨٠ هـ ، واشتهر من أمرائها أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان ، فأنه تولى

سنة ٤٠٢ هـ، واستمر فى الحكم فوق النصف قرن، وكان حسن السيرة، محبا للعلم والعلماء، فقصده الشعراء والفقهاء من كافة الاقطار، وأجزل لهم العطاء، وكانت الثغور معه آمنة وقد بقيت هذه الدولة قائمة بعده حتى استولى عليها السلجوقيون فى سنة ٤٨٩ هـ، أما الدولة الثالثة فقد قامت فى ديار مضر واتخذت مدينة الرقة عاصمة لها، وقد أسسها بكجور وكان واليا على دمشق من قبل العزيز بالله الفاطمى، ولما عزله عنها جاء إلى الرقة فى سنة ٣٧٨ هـ، واستولى عليها واقام لنفسه بها ملكا، ولما قتل انتقلت تلك البلاد إلى حوزة العلويين أصحاب مضر، أما فى بلاد المشرق فقد قامت الدولة الغزنوية فى ذلك العهد وكان لها شأن كبير فى أواسط آسيا والهند ولذلك نذكرها بشيء من التفصيل

قيام الدولة الغزنوية :

قامت هذه الدولة بمدينة غزنة . وكانت مدينة عظيمة تقع فى وسط ولاية غنية فى طرف خراسان من جهة بلاد الهند، وكانت تخضع للدولة السامانية التى حكمت بلاد خراسان، وفى ولاية غزنة هذه ظهر قائد تركى يسمى اسحاق بن البتكين أشتهر بالشجاعة والاقدام، وقد هاجر من بخارى واستوطن الاصقاع الجبلية فى بلاد الافغان، واتخذ مدينة غزنة مركزا لاعماله ومقرا لحكومته، ولما مات فى سنة ٩٩٥ م خلفه فى نفوذه صهر له يسمى سُبَكْتَكين، وقد ورد عنه فى ابن الأثير ما يلى : « لم يخلف أبو اسحاق ابن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية بعد وفاته من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم، فاجتمع عسكره ونظروا فيمن يلى أمرهم ويجمع كلمتهم، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فقدموه عليهم، وولوه أمرهم، وحلفوا له واطاعوه

فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة ، وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال »

قوى أمر سبكتكين وغزا البلاد التى جاورته ، ودخل بلاد الهند بعد أن اخترق جبال هندكوش ، وزحف على أقليم البنجاب ، واستولى على مدينتى بُست وقصدار ، وانتصر على ملك الهند انتصارا مبينا ، فعلا شأنه وبعد صيته ، وسمع به الخليفة فأرسل إليه الهدايا وخلع عليه وعقد له اللواء ، ومنحه لقب ناصر الدولة ، فاستقام له الأمر وأصبح مركزه فى البلاد التي يسودها شرعيا ، وأسس الدولة الغزنوية وكان عمادا للأسرة السبكتكينية

علاقة سبكتكين بالدولة السامانية :

ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية فى ٣٨٤ هـ بسبب خروج الجند وقوادهم على أمراء السامانيين ، فرأى الأمير نوح بن منصور السامانى أن يستعين بسبكتكين ، وأرسله وطلب إليه أن ينجده وولاه أمر خراسان ، فاستعد سبكتكين وخرج قاصدا خراسان لنصرة أميرها ، واستعان القواد الثائرون بفخر الدولة بن بويه فأسرع لمساعدتهم ، ولكن سبكتكين تغلب على أعدائه بعد حروب شعواء ، وفاز فوزا باهرا وثبت قدمه فى خراسان ، وفى سنة ٣٨٧ هـ مات الأمير نوح بن منصور فى شهر رجب ، واختل بموته ملك آل سامان . وضعف أمرهم ضعفا ظاهرا ، وطمع فيهم أصحاب الأطراف فزال ملكهم بعد مدة يسيرة ، وقد خلفه فى الملك ابنه أبو الحرث منصور بن نوح

مات سبكتكين فى شهر شعبان من سنة ٣٨٧ هـ ، وكان يقيم ببلخ قبل موته ، ولكنه مرض وأراد الانتقال الى غزنة فمات فى الطريق ودفن بغزنة ، وكانت مدة ملكه نحو عشرين عاما ، وكان عادلا كثير الجهاد ، وقد عهد

إلى ولده إسماعيل بالملك بعده ، فلما مات بايع الجند لاسماعيل وحلفوا له وأطلق لهم الأموال . وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند واشتطوا فى الطلب حتى أفنى الخزائن التى خلفها أبوه . وقد ظل قائما بالأمر نحو سبعة شهور ، ونازعه أخوه محمود فى الملك وكان أكبر منه سنا . ودارت رحى القتال بين الأخوين وانتصر محمود واستولى على الملك ، وعامل أخاه بالحسنى . واعترف الخليفة بملكه وعقد له وخلع عليه ولقبه يمين الدولة وأمين الملة ، وتلقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله وقد بلغت الدولة السبكتكينية فى عهده أقصى مجد لها ، وفى ٣٨٩ هـ استولى على خراسان وقضى على البقية الباقية من النفوذ لآل سامان فانقرضت دولتهم على يديه ، وقام بغزوات كثيرة فى الهند . وعلى يده أسلم كثير من ملوك الهند وأمرائها ، وخضع لنفوذه ملوك طبرستان وجرجان ، ولم يزل فى عزه وسلطانه إلى أن أدركته الوفاة سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م . ويقول عنه سيد أمير على ما يأتى : « كان حكم محمود الغزنوى فى آسيا من أبهى الأحكام التى مرت عليها ، وكان محبا للعلم والعلماء ، شجع العلوم والفنون . وكان بلاطه محطا لرحال كثير من العلماء والفقهاء ، وعاش فى زمنه وتحت رعايته كثير من الفلاسفة والشعراء . أمثال الفردوسى والبيرونى وغيرهما . »

وفى عهده استوطن فريق من الأتراك بعض أجزاء البلاد التى تقع تحت نفوذه على شواطئ نهر سيحون ، ولم يلتفت محمود إلى خطورة شأنهم ورأى اضعافا لجموعهم أن يرسل قبيلة منهم إلى بلاد خراسان ، وأرسل قبيلة وعلى رأسها زعيمها المسمى سلجوق إلى تلك البلاد فأستوطنتها واتسع نفوذها فيها ، ولما اراد ابنه مسعود أن يخرج هؤلاء السلجوقين من خراسان غلب على أمره واستقل السلجوقيون بخراسان

ظل ملك آل سبكتكين قائما فى بلاد الافغان وبخارى وما جاورها من الأقاليم حتى سنة ٥٨٢ هـ، وكان آخر ملك من ملوك تلك الأسرة العظيمة هو تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه

وفاة القادر وأخلاقه :

توفى القادر بالله فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ، وفى اواخر أيامه ضعف نفوذ آل بويه بسبب الانقسامات التى قامت بين أفراد الأسرة فاسترجع الخليفة شيئا من الكلمة والنفوذ، وقد اتصف القادر بالميل إلى الخير وبالحلم والكرم، وكان ورعا متدينا وقد خلفه على عرش الخلافة ابنه أبو جعفر عبد الله

القائم بأمر الله

(٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) (١٠٣١ — ١٠٧٥ م)

هو أبو جعفر عبد الله تولى عرش الدولة بعد وفاة أبيه بعهد منه وتلقب بالقائم بأمر الله، وحكم الدولة حكما طويلا وكان النصف الأول لعهده عصر اضطرابات وفتن متتالية ببغداد وغيرها من أقاليم الخلافة العباسية، وطمع فى اطراف الدولة الطامعون وكبر شأن السلجوقين فى بلاد المشرق، وزحفوا نحو العراق وظلوا يترقبون الفرصة حتى يدخلوا بغداد وينتزعوها من أيدى سلاطين آل بويه، وقد وصلوا إلى مآربهم وقضوا على الدولة البويهية، وحلوا محلها فى النفوذ والسلطان وادارو ا شئون الخلافة العباسية

كان القائم العوبة فى أيدى السلطان البويهى يحركه على حسب مايشتهى، وكان جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهى هو الذى يتولى أمر العراق فى

عهده . وكان سلطانا ضعيفا ، فأختلت الأمور وانفرط عقد النظام وقلت الارادات ، ولم يقو على دفع مرتبات الجند فثاروا عليه فى سنة ٤٢٦ ﻫ وطلبوا أرزاقهم ولما لم يجبهم الى ما طلبوا انقلبوا قطاع طرق ولصوصا ينهبون المتاع ويسرقون المنازل، وانتشر البدو من العرب فى البلاد ونهبوا النواحى وقطعوا الطرق ، وبلغوا أطراف بغداد ودخلوا جامع المنصور ، وأخذوا ثياب النساء فى المقابر ، وفى سنة ٤٣٢ ﻫ طلب السلطان من الخليفة أن يلقبه بملك الملوك فامتنع الخليفة قائلا بأن هذا اللقب لا يتفق مع الدين . فاستعان جلال الدين بالفقهاء وعلماء الدين وأفتى بعضهم بجواز اللقب ، وخالفهم فريق آخر وعلى رأسهم قاضى القضاة أبو الحسن الماوردى ، وقبل الخليفة ما طلب السلطان ومنحه اللقب ، وظل جلال الدين قائما بالأمر حتى توفى سنة ٤٣٥ ﻫ ، فخلفه ابن أخيه ابو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة ابن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محي الدين . وكان عهده عهد اضطراب أيضا ، وتنازع الاتراك والديلم النفوذ فى الدولة . فساءت الأمور وازدادت حرجا وبعد حكم دام خمس سنوات توفى محي الدين فى سنة ٤٤٠ ﻫ ، وخلفه ابنه أبو نصر خسرو فيروز ، وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فامتنع الخليفة أولا عن اجابة الطلب ولكنه اضطر الى أن يجيبه الى ما طلب واستقر الامر له ، وبسط نفوذه على العراق وخوزستان والبصرة ، وعلى يديه سقطت الدولة البويهية ، وانقضى عصر نفوذ آل بويه وخضعت الخلافة العباسية الى نفوذ جديد وهو نفوذ السلاجقة

يقول الخضرى بك : « انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شىء من الصلاح للبلاد ، بل زادتها فرقة وفسادا بما أظهرته من التشيع فى بغداد ، مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة ، فكان النزاع كثيرا ما يقع بين

الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع فى بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته »

يقول موير : « وكان عصر بنى بويه زاهيا بالادب وبخاصة الادب الفارسى ، ونبغ عدد من العلماء والادباء والفلاسفة نذكر منهم الفيلسوف الفارابى وهو من أصل تركى ومات سنة ٩٥٠ م ، والمتنبى أشهر شعراء الشرق وهو من أصل عربى ومات سنة ٦٩٥ م ، والخوارزمى ومن اسمه اشتق الغربيون كلمة لوغارتم ومات سنة ٩٩٢ م ، والفيلسوف العظيم الحسين بن عبد الله بن سينا ومات سنة ١٠٣٧ م . »

قيام الدولة السلجوقية :

ورد فى تاريخ ابى الفداء عن ابتداء الدولة السلجوقية ما يأتى : « دخلت سنة اثنتين وثلاثين واربعمائة ، وفى هذه السنة توطد ملك طغريل بك وأخيه داود ابنى ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، وكان جدهم دقاق رجلا شهما من مقدمى الاتراك ، وولد له سلجوق فانتشا وظهرت عليه أمارات النجابة فقدمه يبغو ملك الترك إذ ذاك ، وقوى أمره وصار له جماعة كثيرة فتغير يبغو عليه فخاف سلجوق منه فسار بجماعته وبكل من يطيعه من دار الكفر الى دار الاسلام ، وأقام بنواحى جَنْد وهى بليدة وراء بخارى ، واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزا الى عزه ، وصار يشن الغارة على بلاد الترك . وكان لسلجوق من الاولاد ارسلان وميكائيل وموسى ، وتوفى سلجوق بجند وعمره مائة وسبع سنين . »

حذا أبناء سلجوق حذو ابيهم فى الجهاد ضد الاتراك لأعلاء كلمة الدين الاسلامى ، فقتل ميكائيل وهو يجاهد فى سبيل الله ، وترك من الاولاد يبغو

وطغريل بك وجغرو بك داود ، وانتقلوا من مكانهم الى مكان قريب من بخارى فخافهم أميرها وأساء جوارهم ، فرحلوا عنها ونزلوا فى أملاك بغراخان ملك تركستان ، ولكن لم تطب لهم الاقامة فى ذلك القطر ، ورجعوا إلى جند مقرهم الأصلى وظلوا بها حتى انقرضت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ ﻫ واستولى ايلك خان على بخارى ، وطرده منها على تكين أحد قواد السامانيين وكان صديقا لارسلان بن سلجوق فاستدعاه لمعاونته فى بخارى ، فذهب إليه أرسلان ومكث بها ، وفى تلك الاثناء كان الغزنويون وعلى رأسهم السلطان محمود قد ازداد نفوذهم ، وعبروا النهر الى بخارى وتملكوها ، وقبض محمود على ارسلان وسجنه ، ثم تفرق أصحابه فى نواحى خراسان إلى اصفهان بأمر السلطان محمود ، ووضع عليهم الخراج فجارت العمال عليهم وامتدت الايدى إلى أموالهم وأولادهم ، فانفصل منهم جماعة عن جرجان إلى أصفهان ، وجرى بينهم وبين علاء الدولة بن كاكوين حرب ثم ساروا الى أذربيجان ، أما طغريل بك وأخواه داود ويبغو فأنهم ساروا من خراسان الى بخارى وقاتلوا صاحبها على تكين ، ثم عادوا إلى خراسان وعبروا نهر جيحون وضربوا خيامهم بظاهر خوارزم سنة ٤٢٦ ﻫ ، ثم خرجوا منها الى جهة مرو . وهناك تقابلت جموعهم مع قوات السلطان مسعود بن محمود الغزنوى وبعد معارك شديدة بين الطرفين انتصر السلجوقيون واستولى داود على مرو ، وأحسن السيرة فى أهلها وخطب له بها أول جمعة فى رجب سنة ٤٢٨ ﻫ ولقب فى الخطبة بملك الموك ، وكان طغريل بك يفتح المدن فى خراسان الواحدة تلو الاخرى ، وينتصر على جيوش السلطان مسعود ، فملك جرجان وطبرستان فى سنة ٤٣٣ ﻫ ، وفى السنة التى تلتها ملك خوارزم ، ثم امتد نفوذه الى بلاد الرى ، ووصلت طلائع جنده الى البلاد العراقية وأصبح طغريل بك

من ذلك العهد زعيما للأسرة السلجوقية ، وكان بطلا من أبطال المسلمين اشتهر بالورع والتقوى والميل الى العلم والعلماء . فعلا شأنه وأصبح قبلة الانظار فى المشرق

طغريل بك وعلاقته بالخلافة العباسية :

تفرقت كلمة آل بويه كما سبق أن قدمنا وضعف أمرهم فى بغداد وكثرت الفتن والقلاقل ، واضطرب الناس فانتهز أحد مماليك بهاء الدولة البويهى ويسمى أبا الحارث ارسلان المعروف بالبساسيرى تلك الفرصة ونازع الملك الرحيم السلطة ، وتولى منصب أمير الامراء ، ولكن الحالة ازدادت تفاقما وحصلت الوحشة بين البساسيرى والخليفة وقامت الفتنة بين السنية والشيعة ، وسارت جماعة السنية وقصدوا دار الخليفة وطلبوا أن يؤذن لهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فأذن لهم وزاد شرهم ثم استأذنوا فى نهب دور البساسيرى وكان غائبا فى واسط ، فأذن لهم الخليفة فنهبوها وأحرقوها ، وأرسل الخليفة الى الملك الرحيم يأمره بابعاد البساسيرى عن منصبه فابعده، وقدم الملك الرحيم الى بغداد واستمرت الحالة فى اضطراب وكان طغريل بك قد دخل العراق بقوات كبيرة فأرسل اليه الخليفة مستنجدا مستغيثا، وكانت أمنية طغريل بك أن يدخل بغداد ، فأجاب طلب الخليفة وأظهر له العبودية والطاعة، ووعد الاتراك والقواد بالاحسان اليهم ، وتقدم الخليفة الى الخطباء بالخطبة لطغريل بك بجوامع بغداد ، وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر المحرم سنة ٤٤٧ ﻫ دخل طغريل بك بغداد ، وقبض على آخر سلاطين بنى بويه وهو الملك الرحيم وتولى ادارة الشئون فى عاصمة الخلافة فسقطت الدولة البويهية وحلت محلها الدولة السلجوقية فى النفوذ والسلطان

الباب الحادى عشر

عصر نفوذ السلجوقيين

(٤٤٧ — ٥٧٥)ﻫ(١٠٥٥ — ١١٨٠)م

ملك طغريل بك بغداد وأخذ يعمل على التقرب من الخليفة بكل ما أوتى من قوة حتى اكتسب رضاه، وتزوج الخليفة من أسرة السلجوقيين اظهارا لرضائه وتقديرا لخدمات تلك الاسرة، وتطلع ارطغريل بك أن يتزوج هو أيضا من بنت الخليفة حتى تتم المصاهرة بين البيتين، وقد امتنع الخليفة فى المبدأ عن اجابة طلب ارطغريل، ولكنه قبل المصاهرة بعد ذلك وجرى العقد فى شعبان سنة ٤٥٤ ﻫ. وسر السلطان ارطغريل بذلك سرورا عظيما، وكان جند الاتراك والديلم قد عاثوا فى بغداد فسادا، فانتهز ارطغريل قيام تلك الفتن والاضطرابات وسجن الملك الرحيم وشرد جنده واتباعه، فتفرقوا فى البلاد وانضم معظمهم الى البساسيرى الذى كان قد فر الى سوريا وانضم الى الفاطميين فى تلك الجهات، فازداد أمره وقوى نفوذه وتغلب على قوات السلجوقيين التى ارسلت لمحاربته، فخرج اليه ارطغريل بنفسه فى سنة ٤٤٨ ﻫ بعد أن أقام فى بغداد ثلاثة عشر شهرا، وانتصر على أعداء الدولة فى نصيبين والموصل، ورجع ظافرا الى بغداد فاستقبله الخليفة استقبالا حافلا وخلع عليه الخلع وتوجه وقلده سيفا وخاطبه بملك المشرق والمغرب

دعوة البساسيرى الى بغداد :

سار ابراهيم السلجوقى وهو أحد اخوة السلطان ارطغريل بك فى جهات فارس، وخرج على أخيه وخشى ارطغريل نتائج الثورة فخرج الى

تأديب الثائر وترك بغـــداد من غير حامية كافية تستطيع ردهجمات الطامعين فيها وكان البساسيرى يترقب الفرصة للزحف عليها ، فلما بلغه الخبر زحف على عاصمة الخلافة على رأس جيش كبير من السوريين والمصريين وفى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٤٥٠ ه أستولى على بغداد وأعلن خلع الخليفة وأخذ البيعة على الناس من شيعة وأهل سنة للمستنصر الخليفة الفاطمى ، وخرج القائم من بغداد وخرج البساسيرى بعد ذلك واستولى عل واسط والبصرة ، وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على، وأرسل شعار الخلافـة الى الخليفة الفاطمى وأستقر له الأمر فى العراق ، وكان طغريل فى تلك الأثناء يجـد فى مقاتلة الثائر وانتصر عليـه بالقرب من الرى وقبض عليه ، ثم أمر به فخنق بوتر قوسه فى تاسع جمادى الآخرة سنة ٤٥١ ه وأسرع بالعودة الى بغداد ليعمل على استرداد الأمر فيها لآل العباس وأعادة القائم الى عرش أبائه ، وفى شهر ذى القعدة من السنة عينها دخل بغداد ظافرا ونفى البساسيرى منها بعد أن تفرق عنه أنصاره ، وقبـل أن ينتهى الشهر رجع القائم الى العرش . وقلد طغريل سيفا بيده ثم أرسل السلطان السلجوقى قوة تطارد البساسيرى ، ثم خرج اليه بنفسه وقابله وتغلب عليه وقتله وحمل رأسه الى بغداد ، ثم سار طغريل الى الرى وفى سنة ٤٥٥ ه رجع الى بغداد ، وبعد أن مكث بها قليلا عاد الى الرى وبها توفى فى شهر رمضان من تلك السنة ، « وكان طغريل بك عقيما لم يرزق ولدا واستقرت السلطنة بعده لأبن أخيه الب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق

عهد الب أرسلان

يصف ابن الأثير الب ارسلان بأنه كان نبيلا فى أخلاقه ، عالى الهمة بارا بالرعية ، صديقا للفقراء والمعوزين . وفى عهده أغار الروم على أملاك الدولة العباسية، وروعوا المسلمين باعتداآتهم المتكررة، وزحفوا على اسيا الصغرى فى قوة كبيرة ، وكانوا يرومون الاستيلاء على بغداد واخضاع غرب اسيا الى حكمهم ، فخرج اليهم الب ارسلان وتقابل الجيشان فى مكان يسمى ملاذكرد، ويقع بين مدينتى فان وارضروم، وفى شهر ذى العقدة سنه ٤٦٣ ﻫ اقتتل الطرفان قتالا عنيفا، وانتهى بانتصار الب ارسلان انتصارا مبينا، وأسر عاهل الروم مع كثير من أشراف دولته وحمل الى خيمة الب ارسلان، فعامله معاملة حسنة، واتفق الطرفان على صلح كانت كل شروطه فى جانب المسلمين . اذ تعهد عاهل الروم بدفع جزية سنوية ، ودفع مبلغا كبيرا من المال فدية لنفسه، ورجع العاهل الى بلاده، ولكنه خلع قبل أن يصل الى القسطنطينية واستراحت اسيا الصغرى وارمينية من شر الروم مدة طويلة ، وعهد الب ارسلان بحكومتها الى سليمان بن قتلمش بن اسرائيل السلجوقى ، ولقد كان سليمان حاكما قادرا فبسط نفوذه فى تلك الجهات ووسع رقعة ملكه على حساب الروم، وظل هو وأتباعه يحكمون تلك الجهات حتى انتزعها منهم التتار

استعان الب ارسلان فى ادارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وهو الذى بنى المدرسة النظامية ببغداد فى سنة ٤٥٨ ﻫ ، ودرس فيها شيخ الشافعية ببغداد وهو الشيخ ابو اسحاق الشيرازى، وفى عهده بنى ضريح لأبى حنيفة ومدرسة لأصحاب مذهبه، وفى شهر ربيع الاول سنة ٤٦٥ ﻫ مات الب ارسلان فخلفه ابنه جلال الدولة ابو الفتح ملكشاه ، وفى عهده توفى القائم بامر الله فى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ ﻫ وخلفه حفيده المقتدى بامر الله

خلافة المقتدى بامر الله

(٤٦٧ — ٤٨٧) هـ (١٠٧٥ — ١٠٩٤) م

كان المقتدى بامر الله من خيرة خلفاء الدولة العباسية ، وكان قوى النفس عظيم الهمة تقيا محبا للفضائل . فاصلح كثيرا من الاحوال الأدبية ببغداد وأمر بنفى المغنيات والمفسدات منها ، وقد قام بأمور الدولة فى عهده السلطان السلجوقى ملكشاه ، وكان مقداما صائب الرأى اتصف بالعدل والشجاعة ، وفى عهده استقرت الأمور ، وعلا شأن المسلمين فى اسيا شرقا وغربا ، وضرب على أيدى الثائرين والخارجين ، وأخضع الروم وفرض عليهم الجزية ، وقد ابقى فى خدمته وزير أبيه نظام الملك . وكان من اكابر العلماء تقيا فاضلا محبا للعلم وذويه ، وقد لقبه ملكشاه بلقب اتابك ، ويصفه سيد امير على بأنه كان اكبر وزير أنجبته اسيا بعد يحيى البرمكى ، اذ بفضل سهره وحزمه ساد الأمن البلاد وعمل على تحسين الحالة المالية فى الدولة فأسقط كثيرا من المكوس والضرائب ، وأمر بابطال لعن الأشعرية على المنابر ، وفى عصره الزاهر عاش الامام الغزالى حجة الاسلام والمسلمين ، وبهما ازدانت مدينة طوس واختالت على ماسواها من بلاد فارس . وبفضل ادارته الموفقة اتسع نفوذ ملكشاه فخطب له من حدود الصين شرقا الى آخر بلاد الشام غربا ، وعم البلاد الرخاء واينعت التجارة والصناعة ، وتقدمت الفنون والآداب ، وازدانت المدن بالمدارس والكليات والمستشفيات ، وعمرت الطرق وشقت القنوات ونشطت الزراعة . وفى عهده أصلح التقويم وعهد الى لجنة من أكابر العلماء على رأسها الشاعر الكبير عمر الخيام لتقوم بضبط التواريخ وابتداء السنين وفى أيامه انتصر سليمان السلجوقى على الروم انتصارات موفقه ، واسترد انطاكيه فى سنة ٤٦٧ هـ .

وفى عهده انتشر الدعاة من الباطنية فى بلاد المشرق وكان هؤلاء الدعاة يدعون الناس للانتقاض على الخلافة العباسية والدخول فى طاعة الفاطميين، ولقد كانوا دعاة ماهرين، وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن، عليها رجل كبير يعرف بداعى الدعاة ، ودرجته تلى درجة قاضى القضاة وكان الدعاة يحصلون على اسرار الدعوة بمصر ، ثم يبرحونها الى كل قطر متبعين نظاما مسنونا، وقد انتشروا بالبلاد الفارسية يدعون للشيعة من العلويين، وأهمل أمرهم ملكشاه فازداد عددهم ولقيت دعوتهم اذنا صاغية وتبعهم خلق كثير، ولما أراد نظام الملك مطاردتهم أمروا واحدا منهم فقتله غيلة. وقد اشتهر من هؤلاء الدعاة احمد بن عبد الملك بن عطاش وكان رئيسهم الاول، ثم جاء الرئيس الثانى وهو الحسن بن الصباح واليه يرجع الفضل فى نشر مذهب الباطنية فى مدينة مرو وما جاورها، وقد تحصن بمكان يعرف بقلعة الموت ، وكثر عدد مريديه وانصاره ، فسير عليه نظام الملك الجيوش ولكن الصباح نجا من الاسر بموت نظام الملك ويقال إنه هو الذى أوعز لأحد أفراد الفرقة الباطنية بقتله فقتله سنة ٤٨٥ ﻫ

مات ملكشاه بعد موت وزيره فى شهر شوال سنة ٤٨٥ ﻫ ، وبموته سقطت عظمة دولة آل سلجوق ، وانفرط عقد نظامها ووقعت الفتن والدسائس بين أفراد اسرتها ، فكانت تلك الفتن والدسائس من الأسباب الرئيسية التى عجلت بسقوطها ، وقد تنازع أولاده أمور السلطنة ، وكانوا أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود أصغر الاولاد ولكن والدته ساعدته وطلبت من الخليفة أن يوليه أمر السلطنة فاجاب طلبها ،وتعين الطفل وتلقب بناصر الدنيا والدين، ولكن جنود أبيه رفضوا الاعتراف به وساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على تولى الأمور ،وطلبوا إلى الخليفة أن يعترف به ، فاعترف به ولقبه ركن الدين ، ولكن الأمور لم

تستقر بل قامت الحروب الأهلية بين الأخوة. وانتهز الباطنيون الفرصة واستولوا على الأماكن الحصينة فى الأقاليم الجبلية الواقعة فى شمال الفرس والعراق وسوريا. وفى وسط هذه الحوادث مات الخليفة فجأة فى شهر المحرم سنة ٤٨٧ ﻫ، فخلفه فى الخلافة ابنه أبو العباس أحمد المستظهر بالله

خلافة المستظهر بالله

(٤٨٧ — ٥١٢) ﻫ (١٠٩٤ — ١١١٨) م

كان المستظهر بالله من خيار بني العباس، وكان متصفا بكرم الأخلاق ولين الجانب والميل إلى أعمال البر، وكان حسن الخط جيد التوقيعات، وكان شاعرا رقيق الشعر، وقد جلس على عرش الدولة نحو اربعة وعشرين عاما، وفى أثنائها حدثت حوادث خطيرة الشأن فى المملكة الأسلامية فى الشرق والغرب، فاضطرب أمر الشرق بانحلال سلطان السلجوقيين وتفرق كلمة أمرائهم وسلاطينهم، واضطرب أمر الغرب بقيام الحروب الصليبية التى اثارها المسيحيون بزعامة البابا لانتزاع بيت المقدس وما حوله من الأملاك فى فلسطين وسورية. من أيدى المسلمين. وفى سنة ٤٩٢ ﻫ، تمكن هؤلاء الصليبيون من الاستيلاء على أورشليم ودخلوا فى منتصف يولية سنة ١٠٩٩ م، المسجد الأقصى ونهبوا ما فيه من الآثار النبوية: واعتدوا على الأموال والاعراض، وارتكبوا من الفظائع ما أثار غضب المسلمين فى أنحاء المعمورة، وثار أهل بغداد يطلبون من الخليفة اعلان الجهاد والنهوض لاسترجاع بيت المقدس، ولكن الخليفة كان ضعيفا لا يملك القوة المادية التى يستطيع بها أن يحارب المسيحيين. وكان سلاطين السلجوقيين لاهين بحروبهم الداخلية والثورات الاهلية فساءت الأحوال واضطربت الشئون السياسية والمدنية

حال الدولة السلجوقية فى عهده :

قضى النظام الاقطاعى على عظمة الدولة السلجوقية كما قضى على عظمة الكرولنجيان فى فرنسا ، إذ انتهز أمراء الاقطاعيات اضطراب أمور البيت المالك بعد موت ملكشاه، واثاروا الحروب والقلاقل فى أنحاء تلك الدولة الشاسعة الأطراف فاضعفوها وقضوا على عظمتها ، وقامت الحروب بين السلطان بركياروق وعمه تاج الدولة تتش بن الب ارسلان مؤسس الدولة السلجوقية فى سورية ، ولما مات تتش لم يفرغ بركياروق من الحرب بل اشتغل باخماد الثورات التى قام بها أخوه محمد ، واشتد القتال بين الاخوين وعبثا حاول الخليفة الأصلاح بينهما ، فساءت الأحوال وهرع الناس إلى بغداد يستنجدون الخليفة فلم يستطيع العمل على تحسين الحال ، واستمرت الحرب قائمة حتى مات بركياروق فى سنة ٤٩٨ هـ ، وخلفه فى زعامة الدولة السلجوقية محمد ، وزحف على بغداد ودخلها وخطب له بالسلطنة ، ثم عاد إلى دست ملكة ، بأصفهان ، ولكن الأحوال ازدادت تحرجا واستمرت القلاقل فى أنحاء الدولة بين أمراء السلجوقيين، وكانت أحوال الدولة الفاطمية بمصر قد ساءت أيضا بسبب تنافس الوزراء وضعف الخلفاء فاستطاع الصليبيون أن يوطدوا ملكهم بفلسطين وسورية، وانتصروا على السلجوقيين انتصارات باهرة، وذبحوا المسلمين فى تلك الأصقاع ذبحا مريعا، وسقطت المدن فى أيديهم الواحدة بعد الأخرى . واخيراً مات السلطان محمد السلجوقى فى سنة ٥١١ هـ ، ومات الخليفة المستظهر بالله بعده بقليل فى أوائل سنة ٥١٢ هـ ، فخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو منصور الفضل المسترشد بالله

خلافة المسترشد بالله

(٥١٢ — ٥٢٩) هـ (١١١٨ — ١١٣٥) م

ظل النزاع قائما بين أفراد الدولة السلجوقية فى عهد المسترشد بالله وصار سلطان العراق إلى زعيم الأسرة السلجوقية السلطان سنجر ابن ملكشاه ، وكان ملكا على خراسان وما اليها من بلاد ماوراء النهر إلى غزنة وخوارزم ، وقد نازعه فى إدارته ابن أخيه محمود ، ولكنه تغلب عليه بعد معارك شديدة قامت بين الاثنين ، وأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل ،وكان محمود زوجا لابنة عمه سنجر ، ولذلك تعين وليا للعهد بعده ولما مات سنجر صار الأمر الى السلطان محمود بن محمد ، وقد أراد الخليفة أن يسترد شيئا من نفوذ الخلفاء العباسيين السابقين ، وشمر عن ساعد الجد وخرج بنفسه لتأديب العصاة والثائرين ، وتغلب بفضل أقدامه وشجاعته على أكبر الثوار فى العراق وهو دبيس بن صدقة ملك الحلة ، وطرده من العراق ، فهرب دبيس وإنضم إلى صفوف الصليبيين ضد المسلمين ، ولماقوى نفوذ الخليفة عمل على الخلاص من السلجوقيين ، ولكن السلطان محمود أسرع بالزحف على العراق ، وقاومه الخليفة وحصلت مناوشات بين الطرفين ثم تصالحا ، وأذن الخليفة للسلطان محمود بالدخول إلى بغداد فدخلها فى أوائل سنة ٥٢١ هـ ، وأقام بها حتى أوائل ربيع الآخر ، وحمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة ، ثم خرج من بغداد وقصد خراسان وحارب الحسن بن الصباح وانتزع منه قلعة الموت فى سنة ٥٢٤ هـ ، ومات السلطان بعد ذلك بسنة ، فخلفه فى زعامة السلجوقيين السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، وقامت بينه وبين سنجر الزعيم السابق حروب انتهت بانتصار مسعود واستقرار الأمر له ، وقد انتهز الخليفة فرصة القتال الدائر بين الامراء السلجوقيين

واسترد كل ما له من نفوذ معنوى ومادى، وخرج لقتال مسعود ولكنه غلب على أمره، وأسره مسعود وجعله فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته، إلا أنه قتل وهو بالخيمة ويقال ان أحد الباطنية هجم عليه ليلا وقتله سنة ٥٢٩ هـ

عماد الدين زنكى

فى خلافة المسترشد وسلطنة محمود السلجوقى ظهر بطل من أبطال المسلمين فى الحروب الصليبية وهو عماد الدين زنكى فانه أبلى بلاء حسنا فى الحروب الصليبية واليك شيئا عن نشأته وسيرته :

كان إق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقى وكان شجاعا مقداما فترقى فى خدمة ملكشاه حتى أصبح من القواد المعدودين فى الدولة وقد استولى على حلب وانتزعها من أيدى أعداء الدولة السلجوقية فولاه السلطان عليها وظل بها حتى مات ملكشاه، فالتحق إق سنقر بخدمة بركياروق ثم قتل فى إحدى المعارك، وترك ابنا يسمى زنكى وكان فى الرابعة عشر من عمره، فخلف أباه فى جاهه ونفوذه، ونشأ فى كنف الدولة السلجوقية، وفى سنة ٥١٦ هـ عينه السلطان محمود واليا على واسط ثم ضم إليه حكم البصرة، وكان زنكى قائدا كبيرا ومديرا حازما، فازداد نفوذه واشتهر أمره، فولاه السلطان محمود مدينة الموصل وحكم شمال بلاد الجزيرة فى سنة ٥٢١ هـ، وجعله أتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليقوم بأمر تربيته، وبذلك أسس عماد الدين زنكى أتابكية الموصل، وقد شمر عماد الدين عن ساعد الجد، وحارب الصليبيين فى سورية واسترد منهم البلاد الواحدة تلو الاخرى بعد معارك شديدة دموية حتى أشتهر اسمه بين الامراء الصليبيين وأرهبهم ببسالته واقدامه، واليه يرجع الفضل فى اعلاء كلمة المسلمين

فى تلك الأزمنة، واستمر يحارب المسيحيين حتى قتل فى سنة ٥٤١م-١١٤٦م وقد ترك عماد الدين أربعة أولاد اشتهر منهم إثنان وهما : سيف الدين الغازى وتولى أتابكية الموصل. ونور الدين محمود وتولى أمارة حلب، وكان نور الدين محمود بن زنكى بطلا أيضا من أبطال المسلمين فى الحروب الصليبية وعلى يديه سقطت الدولة الفاطمية فى مصر، فأنه أرسل إليها قائده شيركوه ومعه صلاح الدين الايوبى وقد سبق أن عرفنا أسباب سقوط الدولة الفاطمية وكيفية تأسيس الدولة الأيوبية

خلافة الراشد بالله

(٥٢٩ — ٥٣٠ ه)

تولى الخلافه بعد أبيه ومكث خليفة أقل من سنة ، وكان مقداما اراد أن يثأر لأبيه من سلطان السلجوقيين ، فاتفق مع كثير من الأمراء وخلع مسعودا عن السلطنة ، فأسرع مسعود وزحف على بغداد وحاصرها ودخل المدينة، وتفرق أصحاب الخليفة عنه خوفا من سطوة السلجوقيين، وخرج الراشد فارا مع عماد الدين زنكى إلى بلاد الموصل، وجمع مسعود القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التى حلفها الراشد له وكانت اليمين بخطه. فافتى الحاضرون بخلعه فخلع ، واختار السلطان مسعود عم الراشد خليفة وبايع له هو ومن معه فى شهر ذى الحجة سنة ٥٣٠ ه

خلافة المقتفى لأمر الله

(٥٣٠ — ٥٥٥ ه)(١١٣٦ — ١١٦٠ م)

اعتلى عرش الخلافة أبو عبد الله الحسين بن المستظهر وتلقب بالمقتفى

لأمر الله وقد ظل خليفة نحو خمس وعشرين سنة ، وفى أثناء حكمه الطويل استمر الخلاف قائما بين أفراد البيت المالك من السلجوقيين ، فانتهز الخليفة تلك الفرصة وبسط نفوذه السياسى على بلاد العراق لا يشركه فى حكمه أحد من السلجوقيين ، وقد اتصف المقتفى بالشجاعة والاقدام ، وقد تولى أمر الحروب بنفسه ، « وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى البلاد حتى كان لا يفوته منها شىء ، وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة ، من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير . »

خلافة المستنجد بالله والمستضىء بالله

(٥٥٥ — ٥٧٥ هـ)

اعتلى عرش الخلافة المستنجد بالله بعد وفاة أبيه واستمر خليفة إلى ان مات فى ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ . ولقد كان خليفة قادرا وظل نفوذه على العراق باقيا كما كان فى عهد أبيه ، ثم خلفه فى أمر الخلافة أبنه المستضىء بالله

وفى عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية

ووصفه الخضرى بك بقوله : « وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال ، وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل ، وطمأنينة وسكون لم يروا مثله . »

انقرضت الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧ هـ ، واسس صلاح الدين الأيوبى الدولة الايوبية التى انتصرت على الصلبيين والسلجوقيين واعاد صلاح الدين مصر وتوابعها وسورية إلى حظيرة الدولة العباسية من الوجهة الدينية وخطب للخليفة العباسى على منابرها

خلافة الناصر لدين الله وولده وحفيده

(٥٧٥ — ٦٤٠ هـ) (١١٨٠ — ١٢٤٢ م)

تولى أبو العباس أحمد بن المستضيء عرش الخلافة بعد وفاة ابيه وتلقب بالناصرلدين الله وحكم الدولة العباسية نحو سبع واربعين سنة فكان حكمه أطول حكم بين الخلفاء العباسيين ، ه قــد اتصف بالنبل و الاقدام واستردت الخلافة فى عهده كثيرا من مقامها السالف ، واشتهر بالشجاعة والكرم ، وقوى جيشه وبسط نفوذه على العراق والجزيرة ، وبذل جهد طاقته للقضاء على نفوذ السلجوقيين فشجع الفتن والقلاقل بين افراد تلك الأسرة وأمرائها حتى يضعفوا بعضهم البعض ، فيستطيع أن يكتسب من ضعفهم قوة واستعان بشاهات خوارزم حتى يصل إلى غايته ويقيم على انقاض ملكهم ملكا شاسعا ، ولكنه أساء التقدير إذا استغاث بدولة فتية لها اطماع فى الخلافة للقضاء على نفوذ دولة كانت قد دخلت فى طور انحلالها ودور سقوطها فكأنه قد استجار من الرمضاء بالنار ، واليك كلمة عن بدء قيام شاهات خوارزم وعلاقتهم بالخليفة

شاهات خوارزم :

منح السلطان ملكشاه السلجوقى احد أفراد حاشيته وكان يسمى أنوشتكين ولاية خوارزم مكافأة له فى نظير جده واخلاصه ، وكان أنوشتكين رجلا مقداما ، فعلا شأنه وعظم أمره ، وخلفه ابنه محمد فى تلك المقاطعة، وكان قد تربى تربية حسنة فأدار البلاد باسم السلجوقيين ادارة موفقة، فسر به السلطان سنجر السلجوقى سلطان خراسان، وثبت مركزه فى

خوارزم ولقبه خوارزم شاه، واستمر قطب الدين محمد يحكم تلك البلاد حكما صالحا حتى توفى فى سنة ٥٢١ هـ. فخلفه أتسز وكان واليا قديرا وعمل على الاستقلال ببلاده، ولما مات فى سنة ٥٥١ هـ. خلفه ابنه ارسلان فسار على نهج ابيه فارتفع شأن تلك الأسرة، وبسطت نفوذها على ماجاورها من البلدان. وأصبحت صاحبة النفوذ فى العراق العجمى. وفى عهد علاء الدين محمد بن تكش حفيد ارسلان زال ملك السلجوقيين من خراسان وقتل طغريل آخر سلاطينهم فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ٥٩٠ هـ، وأرسل رأسه إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد فنصب بباب النوبى عدة أيام. وسار خوارزم شاه إلى همذان وملك تلك البلاد جميعها، وأصبح الحاكم المعترف بنفوذه فى بلاد المشرق، وسر الخليفة بذلك سرورا عظيما وأرسل الخلع والهدايا إلى خوارزم شاه

العلاقة بين الخليفة وشاهات خوارزم:

لم تطل مدة الصفاء بين الخليفة وخوارزم شاه اذ طمع الخليفة فى البلاد التى فتحها علاء الدين، وأرسل إليها جندا فاستولت عليها بعد رحيل علاء الدين عنها. فغضب علاء الدين ورجع الى تلك البلاد. وحارب جند الخليفة وانتزع البلاد منهم، وفى سنة ٥٩٦ هـ مات علاء الدين وخلفه ابنه قطب الدين وزاد ملكه اتساعا، وقد أراد أن يكون له من النفوذ والسلطان فى بغداد ما كان لسلاطين السلجوقيين من قبل، ولكن الناصر لدين الله أبى ما طلب الخوارزمى، فأشتدت العداوة بينهما وخطا خوارزم شاه محمد خطوة جريئة، وجمع مجلسا من العلماء وفقهاء الدين وحصل منهم على فتوى بخلع الخليفة العباسى، وأقام مكانه خليفة من العلويين، وخطب له على منابر

خوارزم وخراسان، ونقش اسمه على النقود المتداولة فى بلاد المشرق ، ثم زحف بعسكر جرار على بلاد العراق طالبا بغداد لاخراج الناصر منها ، فذعر الخليفة وأرسل اليه الرسل يطلب الصلح فلم يقبل الشاه ورد الرسل خائبين، ويقول بعض المؤرخين إن الخليفة لم ير بدا من الالتجاء الى جنكيز خان عظيم المغول يطلب منه المعونة حتي يتغلب على منافسه العنيد، ولكن الحظ خدم الناصر إذ ذاك، وذلك برجوع شاه خوارزم الى بلاده بسبب صعوبة الاستمرار فى الزحف على بغداد لتساقط الامطار والثلوج وكان الفصل شتاء

ارتكب الناصر خطأ جسيما بالالتجاء الى المغول، فقد أطمعهم فى بلاد الدولة العباسية، ودلهم على مواطن ضعفها، اذ انتهزوا تلك الفرصة العظيمة وحولوا تيار فتوحهم نحو الغرب وأغاروا على أطراف الدولة، وحاربوا شاه خوارزم ، فقضوا على سلطانه وعلى سلطان غيره من امراء المسلمين فى بلاد الجزيرة والموصل وآسيا الصغرى، ثم نزلوا على العراق ودخلوا بغداد بعد ذلك وقضوا على الخلافة العباسية فى عهدها

توفى الناصر لدين الله فى آخر رمضان سنة ٦٢٢ ﻫ ، وخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو نصر محمد الطاهر بأمر الله، وكانت خلافته تسعة أشهر وبضعة أيام، وكان عادلا ومحسنا حتى وصفه ابن الأثير بأن لم يل الخلافة بعد عمر ابن العزيز مثله ، وأعاد من الاموال المغصوبة فى أيام ابيه وقبله شيئا كثيرا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق

تولى أمر الخلافة بعد وفاته ابنه أبو جعفر المنصور وتلقب بالمستنصر بالله فى منتصف شهر رجب سنة ٦٢٣ ﻫ ، وقضى فى الخلافة نحو سبعة عشر عاما، وكان جوادا كريما وله آثار جليلة فى بغداد . « منها وهى أعظمها المدرسة

المستنصرية على شط دجله من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة ، وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة »

وفى أثناء حكمه الطويل اشتد نفوذ المغول فى بلاد الدولة العباسية وأواسط آسيا ، واكتسحوا بجموعهم كل ما قابلهم من المدن والبلدان ، وأعملوا السيف والنار فى كل ما امتلكوه ، وبعد وفاته خلفه ابنه المستعصم بالله

المستعصم آخر خلفاء العباسيين بالمشرق

(٦٤٠ — ٦٥٦) ه (١٢٤٢ — ١٢٥٨) م

اعتلى أبو أحمد عبد الله الملقب بالمستعصم بالله عرش أبائه وأجداده بعد وفاة ابيه فى عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ ه وظل قائما بامور الدولة حتى أغار المغول على أملاكها ، ودخلوا بغداد واستولوا عليها ، وقبضوا على الخليفة فى ٢٠ المحرم سنة ٦٥٦ ه ، وفى منتصف شهر صفر من السنة عينها رحل هولاكو خان عظيم المغول عن بغداد واستصحب معه الخليفة ،« وفى أول مرحلة قتله هو وابنه الاوسط مع ستة نفر من الخصيان ، وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى ، وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد ، بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة ، واشتفت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار »

قيام دولة المغول :

المغول والتتر شعبان من الشعوب التركية القديمة التى يرجع نسبها الى أصل واحد ، وكانت تسكن أواسط آسيا وتعيش عيشة بدوية تنتقل من مكان الى مكان وراء الكلأ والمرعى ، فتتجه نحو الشمال عند ما تذوب الثلوج وتنكشف الأرض ويظهر فيها الكلأ ثم تنحدر نحو الجنوب فى

فصل الشتاء عندما تغطى الثلوج تلك الاصقاع مرة أخرى، وقد اشتهر أفرادها بالشجاعة والاقدام، وركوب متن الأخطار، وشبوا رجال حرب وجلد وكفاح، وقد عاش الشعبان على صفاء ووداد الى أن وقع النزاع بينهما فى عهد ايلخان ملك المغول وسونج خان ملك التتر، ودارت رحى الحرب بينهما، واستمرت طويلا وكانت سجالا، ثم انتصر المغول على ابناء عمهم وساءوا أواسط آسيا، وفى أثناء القرن الثانى عشر الميلادى خضع المغول الى سلطان الصينيين، وظلوا كذلك حتى ظهر زعيم منهم وهو جنكيزخان فجمع شملهم ونظم جموعهم، وكثر انصاره فبسط نفوذه على الشرق والغرب وأصبح من أشهر قواد التاريخ وأعظم الفاتحين.

ولد جنكيزخان وكان اسمه تموجين فى ٥٤٩هـ ١١٥٥م، ولما كبر علا شأنه وانتخبه بنو جنسه خانا عليهم فى سنة ١١٨٩م وفى سنة ١٢١٤م زحف على مملكة الصين، واستولى على مدينة بكين عاصمة تلك المملكة العظيمة وحارب أهل الصين حربا عوانا وانتصر عليهم، وخضعت الصين بأجمعها له فى سنة ١٢١٩م وقد بذل جنكيز خان همة كبيرة فى تنظيم بنى جنسه من الوجهة الاجتماعية وسن لهم قانونا يكون لهم دينا يسيرون على مقتضاه وهو اليساق أو الياسة يرجعون إليه فى معاملاتهم وأحكامهم كما يرجع المسلمون الى قرآنهم

علاقة جنكيزخان بالبلاد الاسلامية:

كانت الدولة الخوارزمية فى زمن جنكيزخان دولة شاسعة الاطراف تبسط نفوذها على بلاد التركستان وفارس وعلى شمال الهند، وكانت تمتد شرقا حتى مدينة كشجار، وكانت أملاك شاه خوارزم تتصل بأملاك عاهل المغول، فوجدت علاقة بين العاهلين الاسيويين، وكانت النتيجة الطبيعية أن تتعارض مصالح تلك القوتين فى الاقاليم التى تسيطر عليها، فتقوم الحرب

بينهما ، ويقال ان جنكيز خان أرسل بعثة تجارية الى شاه خوارزم فى سنة ٦١٢ ﻫ فاستقبلها الشاه استقبالا حافلا ورجع أفرادها مسرورين الى ملكهم وبقيت العلاقة طيبة بينهما حتى سنة ٦٥١ ﻫ (١٢١٨ م) وفى تلك السنة أساء أحد ولاة خوارزم شاه تجارا من رعايا جنكيزخان وسلبهم أموالهم ومتاعهم، فغضب الفاتح المغولى وأرسل الى الشاه يطلب معاقبة الوالى المسيء ، فقتل الخوارزمى رسول جنكيزخان متخطيا بذلك اللياقة الدولية ، ولما علم جنكيز خان الخبر خرج لمقاتلة الخوارزمى على رأس جيش بلغ عـدده نحو الف الف مقاتل ، وزحف نحو فرغانة ، وكانت أقاليم الدولة الخوارزمية اذ ذاك زاهرة تتمتع بالرخاء المادى والادبى . وكانت المدن غنية عامرة بسكانها ، وبلغ عدد السكان فى كل من هيرات وبلخ نحو المليون من الانفس وكانت بخارى وسمرقند آهلة أيضا بالسكان

زحف الفاتح المغولى وعبر نهر سيحون واقترب من بخارى فهجرها أهلها خوفا من العدو ، فدخلها جنكيز خان سنة ٦١٦ ﻫ وخربها وأحرق دورها ومساجدها وقتل أهلها ، ثم سار نحو سمرقند وكانت قصبة ماوراء النهر ومركزا للعلم والأدب فدخلها فى يونية سنة ٦١٧ ﻫ (١٢١٩ م) بعد أن تغلب على قوات خوارزمشاه وقتل من فيها ودمرها تدميرا ، فذعرت باقى المدن وفتحت أبوابها للفاتح ، فكان يدخلها هو وجنده ويعمل السيف فى أهلها ، وفى شهر ابريل سنة ١٢٢١ م دخل نيسابور وخربها ، ثم استولى على هيرات والرى وهمذان ودمرها تدميرا ، ثم زحف المغول على بلاد العراق وكان جنكيز خان فى أثناء تلك الحروب الشعواء مقيما فى سمرقند وأرسل رسله تطارد محمد شاه خوارزم ، فطاردته من بلد الى بلد وكان يفر أمام تلك الجموع الهائلة حتى وصل الى جزيرة فى بحر الخزر وفيها مات مكسور الخاطر والجناح فى سنة ٦١٧ ﻫ ١٢٢٠ م

انتشرت جموع المغول بعد ذلك فى الاقاليم والاقطار الاسلامية تخرب كل ما قابلها وتقتل النساء والاطفال وقضت على الحركة العلمية والادبية فى أواسط اسيا ، وقد ظل جنكيزخان ماضيا فى خطته حتى ضجت البلاد ، ثم عاد الى مقر حكومته حيث مات فى سنة ٦٢٤ھ فى خلافة المستنصر بالله وقد انقسمت اسرته بعد موته الى أربعة بيوت ، فسارت على مارسمه لها الفاتح، حتى أخضعت بلاد المسلمين فى اسيا وجزءا كبيرا من أوربا، وقد آل ملك خراسان الى تولى خان أحد أبناء جنكيز خان ، وخلفه فى ملكه بعد وفاته فى سنة ٦٥٤ ھ ابنه هولاكو خان وهو الذى زحف على العراق ودخل بغداد وقضى على الخلافة العباسية فى المشرق

المستعصم بالله وهولاكوخان :

اختلف المؤرخون فى ذكر الاسباب المباشرة التى أدت إلى زحف هولاكو على العراق وبغداد ، ولكن قال أكثرهم إن سبب ذلك قيام فتنة دينية فى بغداد فى عهد المستعصم بين أهل السنة والشيعة ، وقامت الحرب بين أنصار المذهبين، وتغلب أهل السنة لكثرة عددهم ، فلجأ مؤيد الدين محمود بن العلقمى وزير المستعصم وكان من أهل الشيعة إلى هولاكو، وكتب إليه يطلب النجدة ويحرضه على المسير إلى بغداد ، فانتهز هولاكو تلك الفرصة ، وزحف بجموعه عليها ودخلها وقتل معظم أهلها ، وفعل بها المغول مثل مافعلوا بباقى المدن فى أواسط اسيا فى عصر جنكيزخان ، وقتل المستعصم على الصورة التى سبق أن ذكرنا خبرها

يقول سيد أمير على : « لم يفلت من يد المغول الا نفر قليل من نسل بنى العباس، وأما بغداد مهد الحضارة ومقر العلم والنور وعين العالم الاسلامى وقلبه ، فقد دمرها المغول تدميرا ولم يبق من سكانها الذين بلغوا

يوما من الايام نحو مليونين من الانفس الا نصف ميلون ، واستمرت المذبحة قائمة بين جدرانها وفى وسط شوارعها نحوستة أسابيع ، وبتدميرها خيم الظلام على ربوع اسيا الغربية . »

ويقول ابن الاثير : « كانت غارة التتر على العالم الاسلامى من أروع النكبات التى حلت بالعالم بصفة عامة وبالعالم الاسلامى بصفة خاصة ، ولم يرو التاريخ نكبة تماثلها . »

الخلفاء العباسيون بعد سقوط دولتهم :

زحف المغول بعدأن دمروا بغداد على بلا الجزيرة ، واعملو السيف فى السكان فى كل من مدن حران ونصيبين، وقتلو من أهل حلب نحو الخمسين ألفا، وباعوا من نسائها وأطفالها فى أسواق الرقيق نحو العشر الآلاف، ثم رجعوا نحو الغرب وفتحوا المدن والاقاليم منتهزين فرصة الخلاف بين أمراء المسلمين . وفى شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ ١٢٩٠م زحفوا على فلسطين وفى مكان يعرف بعين جالوت وهى بلدة قريبة من الناصرة قابلهم السلطان الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك بمصر وأوقف زحفهم وتغلب على جموعهم وأجلاهم عن سورية والجزيرة. وفى تلك الاثناء كان العالم الاسلامى لايجد رئيسا روحانيا يخضع لنفوذه . فرأى الظاهر بيبرس أن يدعو أحد أفراد الاسرة العباسية من الذين نجوا من شر المغول الى القاهرة

يقول موير : « وكان غرض بيبرس من ذلك أن يقوى عرشه ضد أحفاد نظرائه سابقا من المماليك ، وكذلك خوفا من قيام الشيعة لارجاع الدولة الفاطمية فظن أنه لو نصب خليفة من السنيين فأنه يقضى على مثل هذه الدسيسة ، ويجعل حكمه فى مصر شرعيا ، لذلك لما سمع أن أحد العباسيين أخطأته مذبحة المغول ، جد فى استحضاره من سورية إلى مصر فى موكب حافل ، ولما اقترب العباسى من البلاد خرج السلطان وحاشيته فى موكب

لمقابلته وقد تبع السلطان فى موكبه اليهود والنصارى رافعين على أيديهم التوراة والانجيل . بويع للعباسى بالخلافة وأقسم له بيبرس ورجال حكومته على الطاعة ، أما الخليفة (المستنصر بالله) فانه قلد بيبرس سلطنة البلاد وعند صلاة الجمعة بعد قرآة ما تيسر من القرآن والخطبة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والدعاء له ولآل عباس دعا الخليفة للسلطان بداوم العز وبعد بضعة أسابيع شاهدت وليجة السلطان حفلة مبارزة جميلة على النيل وأقيمت بالبستان الكبير خارج القاهرة حيث خلع الخليفة على السلطان الخلع «وهى جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من ذهب وقلد سيفا عربيا» . ثم أهداه تقليد المملكة بعد أن قرأه عليه وفيه يحض الخليفة السلطان باسهاب على واجبه نحو الحرب ذودا عن الدين ، وما أثقل به عاتقه من المسئولية ، وبعد ذلك دقت الطبول وعزفت الزمور وهتف الجميع فرحا وحبورا ، ثم سار الموكب فى طريقه المفروشة بالبسط الى القلعة ، وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالوزير على متن الجياد ، وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرا لا يحيط به الوصف»

خرج بيبرس ومعه الخليفة بعد ذلك الى بغداد ليعيد الخليفة الى عرش أبائه ، غير أنه عدل عن عزمه وترك الخليفة فى الطريق فقابله المغول وفتكوا به وقتلوه ، ثم ولى بيبرس أحد سلائل العباسين الخلافة سنة ١٢٦٣ م ومع أن هذا الخليفة كان يقوم بكل ما يتعلق بوظيفته فان بيبرس أخذ لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التي كان يتمتع به سلفه ، فجعله شخصا عاديا مراقبا سجينا فى القلعة ، وقد بقى الخلفاء طوال حكم دولة المماليك وليس لهم من الخلافة الا اسمها، وان كان ذلك لاينطبق على حكم كل سلاطينهم ، والواقع أن الخليفة كان يؤتى به فى المواقف الرسمية الهامة

ليتمم الحاشية وكذلك كان يؤتى به عند تولية سلطان جديد بصفته الرئيس الديني للمسلمين ليعترف بلقب السلطان وهذا كل ما كان له من الأمر »

قامت الدولة العثمانية بعد ذلك وقضت على حكم المماليك فى مصر فى زمن السلطان قانصوه الغورى ودخل السلطان سليم الأول القاهرة سنة ١٥١٧ م وشنق طومان باى الذى خلف قانصوه الغورى على عرش مصر وبقى السلطان سليم فى هذه الديار نحو ثمانية شهور ثم عاد الى القسطنطينية وحمل معه كثيرا من العمال المصريين والخليفة العباسى المتوكل ويقال إن المتوكل تنازل عن حقوقه فى الخلافة الى السلطان سليم فى سنة ٩٢٦ ﻫ ١٥٢٠ م وأصبح سلطان الأتراك يلقب من ذلك العهد بلقب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين واعترف العالم السني باللقب وانتهى أمر العباسيين

الباب الثانى عشر

حضارة الدولة العباسية وأسباب سقوطها

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ ﻫ ، وظلت قائمة حتى سقطت فى سنة ٦٥٦ ﻫ ، على يد هولا ـوخان الفاتح المغولى العظيم، فكأنها استمرت فى الحكم ٥٢٤ سنة ، وجلس على عرشها فى أثناء تلك المدة الطويلة سبعة وثلاثون خليفة ، وكان لخلفائها فى أثناء القرن الأول من حكمها الكلمة العليا والسيادة التامة على العالم الاسلامى شرقا وغربا ، يأتمر الناس بأمرهم ولا يجسر أحد مهما علت منزلته وكبر شأنه أن يرد لهم قولا أو يقف فى وجه جنودهم، وبلغت بغداد عاصمة الدولة مبلغا عظيما من الحضارة والعمران لم تبلغه مدينة غيرها فى عصور التاريخ المختلفة ، فكانت زهرة المشرق وجنة الدنيا ، وشيدت فيها القصور الكثيرة حتى سميت مدينة القصور وكانت فى غاية الفخامة والزخرفة ، ولعب الذوق الفارسى فى تنسيقها دورا مهما ، وغرست فى أنحاء المدينة البساتين الفيحاء والحدائق الغناء ، وكان بها الميادين الواسعة اشتهر منها الميدان المربع وكان ميدانا فسيحا أمام قصر الخليفة حيث كانت تستعرض الجند ، وتقام المباراات الرياضية وسباق الخيل ، وقد وضعت فيه المصابيح للانارة ليلا ، وازدحمت المدينة بالمساجد الكبيرة التى شيدت فى بناء فخم على شكل هندسى جميل وزينت جدرانها بالزخارف البديعة والنقوش الزاهية الجميلة، ولقد فاقت بغداد غيرها من مدن العالم فى عصرها بما حوته من أسباب المدنية الزاهرة ، اذ امتلأت بالمدارس والكليات التى كانت مهدا للعلوم والفنون ، وأقيمت بها دور الشفاء (المستشفيات)

والملاجىء بعضها خاص بالرجال وجعلت الأخرى للنساء ، وقد أديرت تلك الكليات والمستشفيات والملاجىء على أفضل الأساليب الادارية الحديثة وهرع الناس من جميع انحاء الدولة إلى دار السلام واتخذوها مقرا لهم فبلغ عدد سكانها نحو مليونين من الأنفس . فشيدت فيها الضواحى الجميلة وامتدت إلى مسافات بعيدة على جانب نهر دجلة ، وقد اشتهرت منها المهدية ويقال إنها فاقت الجزء الغربى من بغداد فى عظمتها وجمالها

أما الخلفاء العباسيون الأول فكانوا مثال الابهة والجلال ، وكان الخليفة منهم يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية ، وكان الرئيس الأعلى فى الأمور السياسية والعسكرية ، ومصدر القوة ومرجعها . ولم يكن الوزير إلا مستشارا منفذا لأوامر الخليفة ، يراقب الضرائب والمراسلات الرسمية ، ويشرف على الادارة المدنية والحربية . ولقد أخذت الخلافة العباسية من مظاهر الابهة والعظمة مالم تأخذه الدولة الأموية ، فكان إذا خرج الخليفة تتقدمه كوكبة من الحراس فى زى نظامى فكان حرس موسى الهادى يستلون السيوف وهم على ظهور الجياد أمامه ووراءه ، وشد رماة السهام قسيهم ، وركز حملة الرماح رماحهم ، وكان الرشيد والمأمون يخرجون للصلاة فى يوم الجمعة فى أعظم مظاهر الملك والخلافة ، فكان يتقدم الموكب فرقة من المشاة يحملون الاعلام ، ثم فرقة الموسيقى تصدح بشجى الانغام ، ويسير خلف الموسيقى جماعة الامراء على جياد مطهمة محلاة ، ثم يجىء الخليفة على جواد أبيض ووراءه كبار رجال الدولة ثم يسير بقية الحرس فى نهاية الموكب ، وكانت تتجلى عظة الخليفة أيضا فى المقابلات الرسمية وفى الأعياد والاحتفالات القومية ، وأعدت غرف خاصة لتلك المقابلات مشيدة على صف واحد وكان يجلس بها رءوس القوم والامراء ورجال الحاشية والبلاط وكانت

الستائر الثمينة المزركشة تسدل على أبواب الحجرات ، وإلى جانب كل باب يقف حاجب يزيح الستار عند قدوم الزائر، ويسمح له بالمرور فاذا ما اجتاز حجرتين ودخل الثالثة وجد الخليفة على عرشه وحوله مائة رجل فى أجمل ثياب شاهرين السيوف ، وعلى يمينه ويساره جلس الامراء والوزراء فى درجاتهم، وعند مايصل الزائر إلى تلك الغرفة يصيح الحاجب باسمه فيتقدم ويظهر خضوعه وطاعته، وكانت العادة فى ذلك عندهم أن يضع الرجل يده اليمنى على صدره ويحنى رأسه قليلا ثم يرفع يده من على صدره الى رأسه ، أما الفرس فكانوا يركعون. أما فى المقابلات الخاصة فكان الخليفة يسمح للزائر بلثم يده وكانت مقصورة على الأمراء وكبار رجال الدولة والعلماء والادباء والشعراء وكان ولى العهد يجلس عادة الى يمين الخليفة. ويجلس القوم فى صفين عن يمينه ويساره على حسب أنسابهم ومراتبهم ، ويدور الكلام والبحث فى مختلف الشئون السياسية والعلمية والادبية، ويقول الشعراء ماتجود به قرائحهم ويقص الرحالة مالاقوه فى رحلاتهم. وكانت عادة الخليفة فى شهر رمضان أن يولم الولائم فى قصره لقواد جيشه من جميع الأقاليم ، وكثيرا ما كانت تقام تلك الولائم فى قصور الوزراء . وفى عيد الفطر كانت تقام وليمة جامعة لوجهاء بغداد وكان الخليفة ينيب عنه شخصا فى حضور تلك الولائم

ظلت حكومة الخلفاء حكومة أوتقراطية حتى جاء عصر المأمون فانقلبت إلى حكومة دستورية شورية واجتمع فى عهده مجلس للنواب يمثل كل الطبقات والعناصر التى تخضع للخلافة العباسية، ويتمتع النواب بالحصانة البرلمانية، ويبدون رأيهم فى مختلف شئون الدولة بمنتهى الحرية والصراحة، وقد ظل هـذا النظام البرلمانى قائما حتى فقد الخلفاء سلطتهم الزمنية ، ففقد المجلس سلطته السياسية، وقصر مناقشاته على المسائل الفقهية والدينية، وقد حذا امراء آل بويه والسلجوقيون والأيوبيون حـذو الخلفاء العباسيين

واستعانوا بالمجالس النيابية فى الادارة الحكومية فى الممالك والاقاليم التى خضعت لسلطانهم

وكان الخلفاء فى عهد الحكومة الاوتقراطية يستعينون فى إدارة الشئون بطائفة من الولاة أصحاب الكفاية الادارية والدربة السياسية وقد جروا على سنة تغيير الولاة بعد مدد قصيرة حتى لايستأثروا بالسلطان والنفوذ فى ولاياتهم، وكانوا يعينون معهم أصحاب البريد ليخبروا الخليفة بكل صغيرة و كبيرة من أمور الادارة الاقليمية . وكان بجانب صاحب البريد عدد كبير من الجواسيس والمخبرين نساء ورجالا ، وكانوا يكتبون للخليفة التقارير الوافية عما يجرى فى دائرة اختصاصهم ، وقد استمرت هذه الاداة السياسية فى عملها حتى سلب الاتراك والديلم وغيرهم الخلفاء سلطتهم فاندثرت تلك الاداة النافعة

دواوين الدولة والادارة المدنية :

سارت الادارة فى أنحاء الدولة العباسية على أسس ثابتة منظمة لاتقل عما يجرى فى الممالك المتمدينة اليوم ، ولعلها كانت فى بعض الأقطار أحسن مما نراه فى هذا العصر ، وكانت وظائف الحكومة مفتوحة للمسلم والمسيحى واليهودى والهندى ، والأعمال موزعة بين دوائر الحكومة توزيعا محكما ، وكان ديوان العزيز هو ديوان حكومة الخليفة ، وكان يرأسه كبير الوزراء وكان الوزراء فى عصر الخلفاء الاقوياء ينوبون عن الخليفة ويسيرون دفة الأمور باسمه ، ولما ضعف نفوذ الخلفاء ضعف نفوذ الوزراء أيضا ، وحل محلهم أمير الامراء . وكان فى قصر الخليفة موظف يماثل رئيس الديوان العالى فى الوقت الحاضر يسمى استاذ الدار ، واشتهر من دواوين الدولة غير الديوان السابق ديوان الخراج وكان عمله جمع الضرائب وفرضها وتنظيم

أمور الجباية وشئونها، وديوان الزمام واختص بالدخل والنفقات، وديوان الحربية الذى أشرف على الشئون العسكرية وترتيب الجند والنظر فى أمر مرتباتهم وتنقلاتهم إلى غير ذلك مما تشرف عليه وزارة الحربية فى الوقت الحاضر، وكان هناك ديوان للبريد والرسائل وكان من أخطر الدواوين شأنا وأكبرها عملا، وكان هو الذى يتولى تحرير الرسائل والمكاتبات الرسمية ويرد على جميع الرسائل التى ترد من الاقاليم والامارات والممالك الاجنبية. وكان رئيسه هو الذى يحمل خاتم الخليفة وكان يحضر مجلس الخليفة ليدون ما يقال فيها ويلخص ما يرفع من المظالم ويرد عليها، وأما الشرطة فكان لكل مدينة شرطتها ولكل شرطة رئيس «حكمدار» ، وكان الشرطة أقساما يوزعون على البلدان التابعة فى ادارتها للمدينة، وكان عليهم حماية الناس والمتاع والعسس ليلا ، وكانت مرتباتهم حسنة ليعفّوا، وكان من ضمن اعضائها موظف يسمى المحتسب وكان عليه مراقبة المكاييل والموازين، ويعاقب المدلسين والغاشين ويلاحظ الأسواق ويراقب عمليات البيع والشراء. وقد أنشأ العباسيون وظيفة أمير الحج لحماية الحج من غارات البدو وكان يخرج مع جنده لمراقبة سير الحجاج والعمل على راحتهم

ايرادات الدولة :

نظمت الدولة العباسية ماليتها تنظيما بديعا ورتبت شئون ميزانها المالى ترتيبا جيدا ، حتى كان دخلها كافيا لسد نفقات الادارة الحكومية من مدنية وعسكرية، ولم يمد الخلفاء يدهم إلى الاستدانة كما يفعل ملوك العصر الحديث وظل الخليفة قابضا على ناصية الحال مسيطرا على موارد الدولة وخرجها عند ما كان صاحب الأمر والنهى فى المسائل الدينية والمدنية ، ولما ضعفت

هذه السيطرة وفقد الخليفة نفوذه السياسى اضطربت الشئون المالية اضطرابا شديدا ، وفسدت أحوال الدولة تبعا لذلك

هذا وكانت الدولة تستمد ايراداتها من ضريبة الأرض ، وضريبة الدخل ، والعشر والزكاء ، والصدقات ورسوم الجمارك ، وضريبة الملح والأسماك ، وعوائد حوانيت التجار والباعة الذين يبيعون فى الشوارع فى أماكن خاصة ، وضريبة المصانع والمعامل والطواحين وضريبة الواردات وقد الغاها الواثق لتشجيع التجارة البحرية

هذا وقد نقل ابن خلدون فى مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة ثبتَ الدولة العباسية فى عصر المأمون ، وهو أثر تاريخى يدل على مقدار الجباية الخراجية فى جميع الأقاليم التى خضعت للدولة إذ ذاك ، ويؤخذ منه أن الخراج بلغ مجموعه فى ذلك العصر الزاهر ٣١٨٦٠٠٠٠٠ درهم و ٣٨١٧٠٠٠ دينار وذلك غير العروض التى كانت تجبى من أقاليم الدولة وكانت بمثابة ضرائب عينية من عسل وأثواب وسكر وحلل وأبسطة وزيت ودقيق إلى غير ذلك : « وكان هذا كله يرد إلى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه ارزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه فى الحوادث التى تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقى بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه فى الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا . »

القضاء والزراعة والصناعة والتجارة :

كان القضاء فى الدولة العباسية يسير على سنن قويم وكانت الحقوق المدنية لأهل الذمة تترك لرؤسائهم الروحانيين أما قضايا المسلمين فكان

القضاة ينظرونها وكان لكل مدينة قاض خاص ، وفى المدن الكبيرة كان للقضاة نواب وكان قاضى القضاة فى بغداد أكبر موظف فى الدولة ، وكان فى العاصمة ديوان يسمى ديوان النظر فى المظالم وكان ينظر فى الجنايات والقضايا الهامة وكان يرأسه الوالى أو الخليفة

أما العناية بالزراعة فكانت كبيرة وبخاصة فى بلاد الجزيرة لخصوبة أرضها وصلاحية تربتها للنبات ، فحفرت فيها الترع وشقت القنوات وأصلحت الاراضى الزراعية حتى أصبحت ربوع الدولة جنانا زاهرة

وكانت العناية بالصناعة لاتقل عن تلك العناية الزراعية . فاستخرجت المعادن واشتهرت خراسان بمناجمها الحديدية واستخرج الرصاص من كرمان ، وصنع الرخام والصيني فى تبريز ، واستخرج الملح وصنع الكبريت والصابون والزجاج ، وافتتحت المصانع فى بغداد وسامرا وفى غيرهما من أمهات المدن ، وأنشئت المعامل لصنع الورق والمصانع للتطريز بالذهب والحرير ، وانتشرت صناعة السجاد واشتهرت الكوفة بصناعة الحرير والمناديل

أما التجارة فقد اتسع نطاقها فى عهد العباسيين ووصلت متاجرهم بحرا إلى الهند والصين وبرا إلى داخل أفريقية والصحراء ونهر النيجر وتداول الناس نقود الدولة العباسية فى أنحاء العالم المتمدين

الحالة الاجتماعية والعلمية :

ارتقت الحياة الاجتماعيـة فى الدولة العباسية ارتقاء عظيما وسبق الشرقيون أهل الغرب فى مضمار الحضارة والعمران وتقدموا فى طريقة زيهم وأساليب معيشتهم المنزلية ، وتقدمت الأسرة تقدما باهرا واشتركت

المرأة مع الرجال اشتراكا فعليا فى ميدان العمل والاجتماع ، ونبغ القوم فى الفنون الجميلة والموسيقى ، وأدخلوا أنواعا كثيرة من الألعاب الفارسية بين الطبقات الراقية ، واشتهرت كثيرات من النساء فى عهد الرشيد والمأمون والمعتصم بالعقل الراجح والكفاية الأدبية والشعرية ، ومنهن من نبغ فى علم الشريعة مثل زينب أم الوليد وقد عاشت فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى، وحازت ثقة علماء عصرها وسمحوا لها بتدريس الشريعة . وكانت أم المقتدر ترأس محكمة الاستئناف وتنظر فى الدعاوى وتقابل رجال الدولة والسفراء والأجانب ، وكان النساء فى عصر الرشيد والمأمون يشتركن مع الرجال فى المناظرات الأدبية والعلمية ، وكن يشتركن أحيانا فى المسائل السياسية، ويتبارين فى الشعر فارتقت المجتمعات المنزلية ، وانتشرت الثقافة والتهذيب بفضل هذا الاشتراك ، ولقد اشتهرت الملكة زبيدة زوج الرشيد باجادة الشعر وحصافة الرأى، وكثيرا ما أرسلت الى زوجها وهو فى ميادين القتال بقصائد رقيقة من نظمها ، وكتبت للمأمون بعد وفاة ابنها الأمين كتابا له مكانته فى عالم الأدب ، وكذلك كانت حال بوران زوج المأمون فقد كانت على جانب عظيم من الفضل والأدب

أما الحالة العلمية فقد امتازت الدولة العباسية عن كل الدول الاسلامية بأنها كانت مشرق العلوم والمعارف ومطلع الرقى الأدبى فى العصور الوسطى فى العالم المتمدين، وكانت دولة العلم والتدوين والترجمة، وظهر فيها الفطاحل من العلماء الذين نبغوا فى كل العلوم وضربوا فيها بسهم صائب وكانت بغداد زهرة مدن العالم وكعبة طلاب العالم، وسوقا يقصدها الطلاب من كل حدب وصوب ، وكثرت فيها دور الكتب وكان لبائعى الكتب منزلة بين الناس ، وكانت مكتباتهم أندية للطلبة والباحثين، وفيها

كانت تقام المجادلات الفلسفية والدينية بين المعتزلة وأهل السنة وعلى رأسهم أبو الحسن الاشعرى فى مسألة القضاء والقدر، وفى رؤية الله سبحانه وتعالى يوم الحساب وخلق القرآن وغير ذلك من الموضوعات العلمية وكان أصحاب تلك المكتبات من ذوى العلم والرأى والمؤلفين، ونشطت صناعة الكتابة والخط، وانتشرت المؤلفات ورخصت أثمان الكتب فأقبل الناس على شرائها، ونهضت البلاد نهضة علمية وفكرية فى عصر المأمون إلى درجة كبيرة، وألفت الكتب فى الأدب والتفسير والحديث ونبغ عدد عظيم فى علوم الطب والفلك، وشيدت المراصد الفلكية وتقدم فن الصيدلية وغيره من العلوم الحديثة كعلم النبات والتاريخ، وأرسلت البعوث العلمية إلى القسطنطينية والاسكندرية والهند، فترجموا علوم الطب والفلك والفلسفة الألهية والرياضة والطبيعة والمنطق، وكان المأمون يفيض الذهب النضار على النابغين فى الترجمة حتى كان يعطى أجرة ترجمة الكتاب وزنه ذهبا

وكان للنهضة العلمية الاسلامية أثر كبير فى أوربا عند ما أفاق أهلها من سباتهم، وطرحوا عن أعناقهم جهالات العصور المظلمة، وأخذوا يعملون بما أخذوه من العرب. هذا وقد نبغ فى العلوم الشرعية الامام البخارى والامام مسلم والامام أحمد بن حنبل وأبو الحسن الاشعرى، واشتهر فى علوم الطب والصيدلة الحرث بن كلدة ويحي بن جاسوية طبيب الرشيد وعلى بن رضوان وعلى بن سينا وكانت كتبه تدرس فى فرنسا وأوربا ستة قرون، والرازى (٣٣٠ ﻫ) وهو أول من استعمل المسهلات فى الصيدلة وجبرائيل بن بختشيوع واسحاق بن سليمان (٩١٥ ﻫ) وقد ألف كتابا فى تشخيص الأمراض وتشريح الأعضاء ووصف وظائفها، وفيه صفات طبية مضادة للسموم، أما فى العلوم الرياضية والفلكية فقد وضع محمد

ابن موسى الخوارزمى الجبر على أساس ما عرفه من الاغريق والهنود ، وتقدم علم الجبر على يد العرب حتى حلت المعادلات من الدرجة الثالثة وقد اخترعوا فى حساب المثلثات الظل والجيب ، ووضع جابر الفلكى قانونا فى حساب المثلثات ، وقد ألف العرب أرصادا فلكية وأزياجا وحسبوا الكسوف والخسوف ، واخترعوا رقاص الساعة والمزاول الفلكية ، وصححوا كتاب المجسطى تأليف بطليموس، وعنهم أخذ أهل اوربا الأرقام الحسابية وعلم الجبر والمقابلة . وقد نبغ كثيرمن العرب فى علمى التاريخ والجغرافيا ، ومن أشهر المؤرخين الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن خلكان وابن شاكر ، أبو الفرج وأبوالفداء وغيرهم . وفى عصر الدولة العباسية كتب المؤرخون فى فلسفة التاريخ وحذا حذوهم أهل أوربا ، وظهر منهم كثير برعوا أيضا فى الجغرافيا فانهم أول من جابوا الاقطار ورسموها ووصفوها وصفا دقيقا لايزال كثير منه فى مؤلفاتهم الممتعة

وكان للأغانى والشعر عند العباسيين منزلة سامية فكان الخلفاء يفيضون العطايا الواسعة عليهم ، وكان الشعر فى كل ضرب من ضروبه حماسة وغزلا ورثاء وغيرها فوق الغاية من متانة الألفاظ وجلال المعانى وبلغ الغناء من الحسن جودة لم تكن فى عهد غير العباسيين، وكان لكبار المغنيين منزلة رفيعة فى الدولة كابراهيم الموصلى وابن اسحق وابن جامع وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق العد والحصر

اضمحلال الدولة العباسية وسقوطها :

ملأت الدولة العباسية العالم المتمدن حضارة وعلما، ولكنها مالبثت بعد انقضاء عصر خلفائها العظام بموت المعتصم أن دخلت فى دور انحلالها

وتدرجت فى اضمحلالها حتى سقطت نهائيا على يد المغول كما سبق أن ذكرنا ولهذا الانحلال ثم السقوط عوامل مختلفة وأسباب شتى نجملها فيما يلى:

أولا : ارتكزت الدولة العباسية عند بدء قيامها على القوة الفارسية واستعان خلفاؤها بالخراسانيين على توطيد عرشهم وتثبيت مركزهم واستخدموهم فى كل شيء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش ، واتخذوا منهم البطانة والحاشية وولوهم الوزارة ، فأخلص الفرس لهم إخلاصا قويا وخدموا الدولة بأخلاص وأمانة ، وظلوا كذلك حتى انقضت فترة الخلفاء العظام فقلبوا ظهر المجن لها وانقلبوا أعداء وطعموا فى أطرافها وعملوا على الاستقلال بأماراتهم ، ونازعوا الخليفة نفوذه وسلطانه ، فاختلت أمور الجباية واضطربت الحال المالية ، وعجز الخلفاء عن دفع مرتبات الجند الأجانب فثاروا عليهم واعتدوا على مكانتهم ، فسقطت هيبتهم بين الجماهير . ولجأ هؤلاء الخلفاء إلى العناصر الطامعة فى أملاك الدولة فسهلوا عليهم سبيل الفتح وأرشدوهم بعملهم إلى مواطن الضعف فانفرط عقد الدولة

ثانيا : امتاز العالم الاسلامى عند بدء قيام الخلافة الاسلامية بالوحدة السياسية والدينية ، وخضع الناس جميعا لأمير المؤمنين فى الشئون الدينية والمدنية ، وأقروا له بالزعامتين ، فسارت الدولة الاسلامية سيرا ايجابيا وفتحت البلدان والاقطار ، ونشرت الدعوة الاسلامية شرقا وغربا واعجب الجميع بحضارة العرب وجلال الاسلام ، ولم يفكر انسان فى عصر الخلفاء الراشدين الاوائل أن ينازع الخليفة تلك الزعامة ، ولكن لم تدم الحال طويلا وانقضت هذه الوحدة بانقضاء عصر الخلفاء الاقوياء واضمحلال الدولة الاموية وظهر فى أنحاء الخلافة العربية وخصوصا فى بلاد المشرق أفراد نازعوا أمير المؤمنين سلطته الروحانية

ولما تأسست الدولة العباسية غضب العلويون وأنصارهم ونشروا بين الناس أنهم أحق بالخلافة من العباسيين أبناء عمهم، والتف حولهم جمهور كبير من أهل الشيعة وناصروهم فى حروبهم على الخلفاء العباسيين، وعظم أمر الدعاة العلويين، وكشفوا للناس عن مواطن ضعف القائمين بأمر الخلافة الاسلامية، فضعفت الهيبة الدينية فى القلوب، وانتهز عمال السوء تلك الفرصة وحركوا الثورات، وشجعوا الفتن والقلاقل حتى يصلوا الى مأربهم السياسية من وراء هذا الانقسام وتلك الفرقة، وانتثر عقد الوحدة الدينية التى أرهبت العالم المتمدين يوما من الايام بقوتها، وظهرت دول فى شرق الخلافة العباسية وأخرى فى غربها تعمل على معاضدة العلويين، وقامت الدولة الفاطمية فى شمال أفريقية ومصر، وانتزعت من أملاك الخليفة العباسى فلسطين وسورية والحجاز ومعظم اسيا الصغرى، وظهرت الدولة الزيدية فى طبرستان وجرجان، وظهرت دول أخرى فى شبه جزيرة العرب، واشتغل الخلفاء العباسيون بأمر تلك الفتن، وجردوا جيوش دولتهم لاخمادها والتضييق على العلويين ودعاتهم أينما وجدوا، واحكم العلويون دعوتهم ونظموا صفوفهم، وبعثوا دعاتهم الى جميع الاقاليم الاسلامية غربا وشرقا، واعتنق القرامطة وغيرهم عقيدة العلويين، وحركوا نار الثورة والاضطراب فزلزلوا جوانب الدولة. وفى اوائل القرن السادس الهجرى ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فارهقوا الناس، وافسدوا الدول، وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بنى العباس وظل هؤلاء العلويون ينخرون فى عظام الخلافة الاسلامية حتى قضوا على الدولة العباسية واسقطوها

ثالثا: كان من نتائج الخلاف الذى شجر بين الأمين والمأمون أن ازدادت قوة العنصر الخراسانى، وظهر البيت الطاهرى وهو أول بيت من

الموالى استقل بأمر خراسان واستكثر المأمون وأخوه المعتصم من شبان الأتراك وتألفت منهم الجيوش فى عصر المعتصم. واستند الخليفة على قوتهم فى اقامة دولته واستغنى عن العرب وعصبية العرب ، وعن أبناء خراسان أيضا ، وقد ارتكب بعمله هذا خطأ جسيما . إذ أن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعهم لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم ، وعملوا على الاستئثار بالنفوذ والسلطان فى الدولة ، وحصلوا على ما أرادوا وأصبح الخلفاء فى يدهم العوبة يحركونهم كيفما شاؤا ، وضعفت صولة الخلفاء وقلت قيمة أقوالهم وافعالهم وأوامرهم ، ورأى ولاة الأطراف أن الفرصة سانحة للاستقلال بما تحت أيديهم لأنهم لم يكونوا أقل من اتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ فى عاصمة الخلافة . وعلى ذلك لم ينتصف القرن الثالث الهجرى حتى كان الدولة العباسية تحيط بها دولة مستقلة عن سلطان الخلفاء. أما العنصر العربى الذى أمتاز بالشجاعة والاقدام وانكار الذات ورفع لواء الأسلام عند بدء ظهوره فقد ضعف ضعفا عظيما وتفرق قبائل وعصائب عاد الكثير منها إلى مواطنها فى القفر والصحراء ، ففقد الخلفاء أقوى سند كانوا يعتمدون عليه واختل التوازن بين عناصر الدولة وساءت الأمور

رابعا : جرى الخلفاء العباسيون على سنة نقض العهود وعدم احترام الوعود ، ومصادرة الأموال فأدى ذلك إلى نوع من سوء التفاهم بين الخليفة والولاة ، وازدادت الحال تحرجا بذيوع الرشوة ، فكان العامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء والناس على اختلاف طبقاتهم ، وكان المال يتداول بالمصادرة والرشوة ، فاضطربت أحوال الدولة المالية أيضا اضطرابا شديدا ففسد الأمر ، وعكف الخلفاء بعد الواثق على مجالس الشراب والاغانى والقصف والاشتغال باللذات

والملاهى . وانصرفوا عن مصالح الدولة وتركوها إلى غلمان الاتراك وقوادهم فتصرفوا على حسب اهوائهم ومآربهم الذاتية ، فاضمحلت الدولة وسارت بخطوات سريعة نحو الانحلال والسقوط

جاء فى كتاب حماة الاسلام ما يأتى : « اضمحلت الخلافة العباسية بالاسباب التى اضمحلت بها الخلافة الأموية من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل ، وزادت عليها عوارض أخرى اصابتها متتالية فكانت أشد بلاء من تلك الأسباب المتقدمة : منها كثرة المذاهب واضطهاد الأئمة والتفرق فى الاعتقاد ، وظهور أصحاب الدعوات الباطله كالباطنية والفاطمية والشيعة والمعتزلة والراوندية وغيرهم . ومنها كثرة وجود دخلاء الاعاجم الذين فعلوا فى الدولة العباسية مالا يفعله العدو الفاتك بعدوه . »

تضافرت هذه العوامل التى ذكرناها مع غيرها من الأسباب التى ضاق المقام عن ذكرها ، واسقطت ذلك البناء الشامخ من علوه الشاهق واضحت الدولة العباسية وكأنها حلم من الأحلام التاريخية الممتعة وخيال من الأخيلة البديعة التي مرت بالتقدم البشرى وهو يخطو خطواته نحو العصر الحديث

انتهى

ملحـــق

نظرة عامة فى حال الاغريق الاجتماعية

فى عهد عظمة أثينا واسبرطة وأثر ذلك فى المدنية العربية (١)

عظمة أثينا — عصر كيمون (٤٧٩ — ٤٦١ ق. م.)

كان لانتصار الاغريق على الفرس ٤٧٩ ق. م. أثر كبير فى تاريخ العالم وفى رقيهم الاجتماعى إذ أن ذلك الانتصار حفظ لهم حريتهم ومكنهم من أن يورثوا العالم كله من غرب وشرق آراءهم فى السياسة والدين والعلم والفن والفلسفة

تحصين أثينا : عاد الاثينيون بعد الانتصار إلى بلادهم وقد صحت عزيمتهم على تحصين بلادهم وتجديد ماتخرب منها . وقد أشار عليهم تمستكليس بطل موقعة ميكالى أن يبنوا سوراً جديداً حول أثينا يلتجىء اليه أهل الريف إذا ما حاق بهم خطر

فلما رأت الولايات المجاورة ذلك أخذت تحرض اسبرطة على التدخل فى الأمر إلا أن تمستكليس تمكن بما أوتيه من دهاء أن يفاوض أسبرطة ويقنعها بحسن نية أثينا فى هـذا التحصين فلم تبد مقاومة تذكر ، حتى صار السور منيعاً ثم فطن أهل اسبرطة إلى أنهم خدعوا إلا أنهم أخفوا غضبهم حتى تحين الفرص بنى الاثينيون سوراً آخر بعد ذلك حول بيروس ميناء أثينا فأصبحت بذلك بيروس وأثينا من أمنع بلاد اليونان تحصينا وتفرغت بعد ذلك لتتبوأ مركز الزعامة فى بلاد اليونان

---

(١) تفضل زميلى الاستاذ عبد الفتاح الزيادى بمراجعة هذا الفصل وتنقيحه كما أنه تفضل بضبط المواقع والبلدان على الخريطة المرفقة به ، فله جزيل الشكر

حلف ديلوس سنة ٤٧٧ ق.م

اشترك الاغريق كلهم فى الدفاع عن بلادهم ولكن أثقل الأعباء كان على عاتق أثينا فأصبح لها بعد الانتصار على الفرس مركز خاص بين المدن الاغريقية واتجهت سياستها بعد انتهاء الكفاح من فارس الى الاحتفاظ بهذه الزعامة فكونت من مدن آسيا الصغرى وجزر الارخبيل حلفاً تحت زعامتها بقصد الدفاع عن صوالح اليونانيين في أوربا وآسيا ضد الفرس والأعداء الخارجين ، واتفقت أثينا على أن تقوم كل مدينة بتقديم عدد معين من السفن أو مقدار معين من المال لتحقيق هذا الغرض

و يعرف هذا الحلف بحلف ديلوس نسبة للجزيرة التى وقعت فيها شروط هذه المحالفة . وهذه الجزيرة واقعة في بحر الارخبيل وتعتبر مركزا للعبادة عند اليونان إذ بها الآله ابولو إله الموسيقى عندهم

وبتعهد الحلفاء أن يقدموا سفنا ومالا لأثينا صار بيد أثينا القوة الحربية والخزينة العامة وقد تقرر أن يجتمع كل عام مندوبون من المدن المختلفة فى ديلوس للبحث فيما يهمهم من الأمور

تقدم الحلف : عمل القائد الشهير كيمون على تقدم الحلف حتى يشمل شواطىء بلاد اليونان الشرقية والشمالية ومعظم جزر بحر الأرخبيل وبلغ عدد أعضائه نحو المائتين ، وزال الخطر الفارسى وتحررت شواطىء بحر الارخبيل وأقاليمه منهم

ولما زال هذا الخطر عن أعضاء الحلف فضل كثير دفع ضرائب لخزانة ديلوس عوضا عن السفن والرجال، وقبل كيمون منهم ذلك وأقنع أهل أثينا بأفضلية المال على السفن والرجال ، إذ استطاع بذلك أن يشيد أسطولا متجانسا و يدرب رجاله تدريباً حربياً واحدا . كما أن هذا أفاد أهل أثينا بشغل العاطلين فى بناء السفن

خروج بعض الأعضاء من الحلف : بعد أن زال الخطر الفارسى أصبحت أثينا بهذا الحلف صاحبة النفوذ والسلطان ونزل محالفوها من صف الأنداد إلى صف الأتباع ، ففكر بعض الأعضاء فى الخروج من الحلف وأثارت جزيرة تكسوس الموضوع ، وأبت أن تدفع مالا لأثينا معتمدة على مساعدة الفرس . إلا أن كيمون أشهر عليها الحرب وأرغمها على دفع غرامة سنوية كما سلبها حريتها ، وأصبحت تابعة من توابع أثينا . ثم ثارت جزيرة تاسوس سنة ٤٦٣ ق. م فأصابها ما أصاب جزيرة تكسوس على يد كيمون

إسبرطة وأثينا :

مقدمة : علمنا فيما سبق أن تمستكليس استطاع اقناع اسبرطة بحسن نية أثينا فى التحصين . وأن أهل أسبرطة فطنوا إلى خداعه وانتهزوا الفرصة للايقاع به ، وقد نجحوا فى ذلك فرماه الاسبرطيون بالميل لفارس فدافع عن نفسه حتى أثبت براءته وفى سنة ٤٧١ حوكم ونفى إلى ارجوس إلى أنه تمكن من الفرار إلى فارس ، فرحب به ملكها وغمره بالاحسان . ولما أراد ملك فارس أن يستغله لمحاربة أثينا قيل إنه فضل الموت و الانتحار على خيانة وطنه

عصيان الجند فى أسبرطة سنة ٤٦٤ ق. م.

بسقوط تمستكليز ظل أهل أسبرطة أصدقاء للاثينيين مدة ، وقد ظهرت هذه الصداقة لما أن غضب الجند فى أسبرطة بسبب استبداد أولى الأمر بهم ، ولما أن أجمعوا أمرهم وهاجموا اسبرطة وكادوا يظفرون بها و يستولون عليها استنجدت بأثينا فانقسم أهل أثينا فريقين فريق يرى مساعدة أسبرطة وهو الحزب الديمقراطى وعلى رأسه افيلتيز وفريق يرى عدم المساعدة وهو حزب المحافظين وعلى رأسه كيمون . وبعد مناقشات ومجادلات حادة انتصر حزب المحافظين وقام كيمون بحملة يساعد بها أسبرطة سنة ٤٦٢ ق. م

اشتداد ساعد الديمقراطيين : ترك كيمون حزبه بدون سند فاشتد ساعد الحزب الديمقراطى ، واستطاع هذا الحزب أن يقنع الحكومة بضرورة دفع مرتبات للموظفين حتى يتقدم للوظائف الأكفاء فقراء كانو أم أغنياء . وكانت هذه خطوة فى سبيل تقدم الديمقراطية . وقد استطاع افيلتيز فى غياب كيمون أن يسلب مجلس الاريوباجوس حصن الاستقراطية شيئا من سلطته السياسية واقتصر عمله على نظر المسائل القضائية المتعلقة بجرائم القتل . وقد ساعد افيلتيز صديقه الشاب بركليز المتشبع بمبادىء الديمقراطية

سقوط كيمون سنة ٤٦١ ق.م : لما وصل كيمون إلى أسبرطة قوبل بفتور إذ اتهمه الاسبرطيون بمفاوضة الثائرين ، فاضطر للانسحاب بدون أن يأتى عملا ما ، فاستاء الشعب الاثينى من تلك الاهانة وحل غضبه على من كان السبب فيها ، وصدر الحكم بنفى كيمون مدة عشر سنين سنة ٤٦١ ق . م وتغير مجرى السياسة فى أثينا وأرسلت حملة بحرية مساعدة للمصريين ضد أردشير وأخرى برية امدادا للحملة ضد اسبرطة ، فخابت الأولى وانهزمت الثانية ، عندئذ ثاب الشعب إلى رشده وعرف لكيمون فضله ، فدعاه قبل أنقضاء أجل النفى وكان بركليز ممن اقترحوا عودته . ولما عاد لم يحد قيد شعرة عن خطته القديمة وطالب عقد الصلح مع اسبرطة وأثينا والقتال مع الفرس . فعقد مع الاسبرطيين هدنة ٥ سنوات وشخص بأسطوله إلى جزيرة قبرص واستخلصها من يد الفينيقين والفرس إلا أنه مات عقب انتصاره فكانت هذه الواقعة خاتمة الحروب الفارسية ، وقد مات كيمون بعد أن رفع أثينا إلى مركز حربى ممتاز وقطعت فى أيامه مراحل فى سبيل الحضارة والعمران

عصر بركليز ٤٦١-٤٣١ ق.م

ولد بركليز سنة ٤٩٤ ق . م وكان والده اكسنثبوس الذى انتصر على

الفرس فى واقعة ميكالى من أعاظم القواد ، وأمه من أسرة عريقة فى الحسب فكان عزيزا فى قومه ، تعلم على يد أعاظم الرجال فضلا وعلما ، فعنوا به كثيرا وبذلوا ما فى وسعهم لتهذبه ، فنشأ عاقلا رزينا يملك نفسه فى حالتى الغضب والرضا ، اذا خطب فى قومه ذلل له القول وانقاد له اللفظ ، فيخلب الألباب ويفحم الخصوم ، ولا تخلو خطاباته الحماسية من رقيق الألفاظ ودقيق المعانى وقد كان بركليز يتقشف فى معيشته ويقنع بالكفاف من ثروته العظيمة

وجد الشعب الاثينى فى بركليز ضالته المنشودة ووثق به وأسلس له قياده وولاه جميع أمره ، وبقى هذا الرجل نحو عشرين عاما فى يده سلطة الملوك من التصرف فى أموال الدولة ، والامرة على الجيوش البرية والبحرية ، والقول بالحرب أو الصلح . وهو مع ذلك لم يتخذ لنفسه لقب الملك . وكان فوق جميع من عاصروه بمميزاته ومواهبه ، حتى أن العصر سمى باسمه ، • اعتبر عصره العصر الذهبى لاثينا لظهور فحول الشعراء والفلاسفة والصناع ورجال السياسة

ومما يؤثر عن بركليز أنه كما قال بلوتارك (كان يحكم بالاقناع) فلم يجعل نفسه فوق القانون وأحسن السياسة فى الداخل وفي الخارج

سياسته الداخلية :

كان يرمى بركليس فى سياسته الداخلية الى أمرين خطيرين (أولا) تخويل الشعب جميع الحقوق في حكم نفسه بنفسه ، (ثانيا) جعل أثينا سيدة اليونان ومركزا للسلطة والقوة السياسيتين ومهدا للصنائع والعلوم

تقدم الديمقراطية فى عهد بركليز :

مقدمة عن نشأة الديمراطية فى أثينا

انقسمت الطبقات الاجتماعية فى أثينـــا الى طبقتين : طبقة الأرقاء

وطبقة الأحرار . وانقسمت طبقة الاحرار الى أشراف وعامة . وكان بجانب هؤلاء عنصر من النزلاء الاجانب وهؤلاء اشتركوا اشتراكا فعليا فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية مع الاثينيين ، ولم يشترك فى الحياة السياسية الاثينية غير طبقة الأحرار ، الاشراف والعامة . وكان الأشراف فى بدء قيام أثينا أصحاب السلطة فيها فكان الاشراف لهم مجلس مكون من تسعة أعضاء منتخبين يتجدد انتخابهم كل سنة ويسمى مجلس الارا كنة . وكان بجانبه مجلس آخر وهو مجلس السناتو ويسمى (مجلس الاريوباجوس) أخذا من المكان الذى كان يعقد فيه

وفى نهاية القرن السابع ق . م ثارت البلاد طالبة تعديل دستورها لاستبداد أغنياء الأشراف بفقراء العامة ، وكان من نتائج ثورتها أن أصلح سولون الدستور

دستور سولون

جعل سولون أساس الاصلاح مقدار الثروة التى يملكها الفرد شريفا كان أم غير شريف ، ليشترك فى الحياة السياسية . وبذلك قضى على احتكار الاشراف تولى السلطة فى البلاد . وأباح للعامة الاشتراك فى السلطة على حسب ما يملكه من ثروة وما يدفعه من ضريبة ، فقسم السكان بحسب ثروتهم إلى طبقات أربع : الطبقة الأولى وهى التى تملك قدرا معينا من الثروة وتدفع ضريبة معينة ، والطبقة الثانية من الفرسان ، والثالثة من الذين يملكون المحراث والثيران والأرض الزراعية وكانوا فقراء ، والرابعة هم الذين لا يملكون شيئا أو كانت ثروتهم لا تبلغ حدا معينا . وقد حفظ للطبقات الثلاث الأولى جميع المناصب وهى مناصب الاركون وحفظة الخزانة وحفظة السجون وغير ذلك من الوظائف العامة . أما أفراد الطبقة الرابعة فلم يكن لهم من الحقوق السياسية الا الاشتراك فى جلسات جمعيات الشعب

بقى الأشراف فى دستور سولون أصحاب سلطان ونفوذ فى الدولة ولكن اكتسبت الديمقراطية بعض مكاسب سياسية . فقد نص الدستور على حق مجلس الاكليزيا (الجمعية العمومية لطبقات الشعب الأربع) فى انتخاب الاراكنة ، وفى مراقبة أعمال الحكام وكان لها سلطة سياسية وقضائية أما مجلس الأربعمائة (وهو مجلس شيوخ ينتخب أعضاؤه من بين الأفراد الممتازين من أعلى الطبقات) فكان يشرف على أعمال الاكليزيا . وهو الذى كان يقرر موعد انعقادها ويحضر لها المسائل التى ينظرها ويراقب تنفيذ قراراتها

سلبت هاتان الهيئتان كثيرا من اختصاصات مجلس الاريوباجوس ، ومع ذلك بقى هذا المجلس الحصن الحصين لطبقة الحكام المتقاعدين ، وبقى له من السلطة السياسية أعلاها وأوسعها ، فقد كان يراقب أعضاء المدينة و يوقع بمن خالف . كأنه سلطة قضائية عليا و يؤدى الى خزانة الحكومة ما يجتمع من الغرامات

عطل الدستور فيما بين سنتى ٥٦٠ — ٥١٠ ق . م وعند سقوط هذا النوع من الحكم اكتسبت الديمقراطية مكاسب جديدة بما أدخله كليستنيس من

الاصلاحات التشريعية ، ولما جاء بركليز بلغت الديمقراطية فى عصره أقصى مجد لها . واليك أهم المظاهر الديمقراطية فى ذلك العصر . دفع أجر لأعضاء الجمعية العمومية للشعب حتى يحضروا الجلسات بانتظام فأصبحت هذه الجمعية المرجع الأعلى لأمور الدولة ، وكان قولها القول الفصل فى كل الأمور التى تعرض عليها — أما الشئون المدنية للحكومة فقد أدارها مجلس الخسمائة (وهو مجلس الأربعمائة القديم بعد أن عدله كليستنيس) وكان ينتخب أعضاؤه بطريق القرعة من بين أفراد الشعب ، وكان هذا المجلس هو الذى يحضر المسائل التى تنظر فيها الجمعية العمومية . وبجانب هاتين الهيئتين وجد مجلس العشرة يمثل الدولة فى الأمور العسكرية والسياسية . أما السلطة القضائية فقد كانت مستقلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ويقوم بأعمالها

محاكم شعبية تتكون من خمسة آلاف شخص ينتخبون بالقرعة من بين سكان المدينة ، ويقسمون إلى عشر فرق ، وكانت هذه الفرق هى التى تقوم بالأمور القضائية ، وكل عضو فيها يتقاضى أجراً . وبدستور بركليز هذا زالت القوة السياسية لمجلس الاراكنة ، وسلب مجلس الخمسمائة السلطة الادارية التى كانت لمجلس الاريوباجوس ، واستولت المحاكم الشعبية على ما كان له من سلطة قضائية

والخلاصة أن الدستور الاثينى فى عصر بركليز قد فتح بابا لكل عضو من أعضاء الدولة للاشتراك فى أمورها السياسية على اختلاف أنواعها ، ووضع الجميع على قدم المساواة أمام القانون ، وسوى بينهم فى الحقوق المدنية والسياسية، فتمت بذلك الديمقراطية فى ذلك العصر لطبقة الأحرار . أما الأرقاء والاغراب فقد ظلوا بعيدين من الاشتراك فى الأمور السياسية ، ولهذا كانت الديمقراطية قديما محدودة المعنى اذا نظرنا اليها فى ضوء معناها الحديث

سياسته الخارجية :

قلنا ان بركليز أراد أن يجعل أثينا سيدة اليونان وأن يقاوم اسبرطة مخالفا فى ذلك رأى كيمون ، ولذا كانت سياسته الخارجية موجهة إلى تحقيق هذا الغرض، فشجع الاثينيين على أن يقووا أنفسهم وبحريتهم كما فعل تمستكليس من قبل ، فقوى أسوارها وحصن موانيها تحصينا منيعا ، ثم اتخذ خطوة جريئة نحو أعضاء حلف ديلوس فاستصدر أمرا بالغاء مجلس ديلوس الذى كان يجتمع فيه نواب من المدن المتحالفة للنظر فى شؤونهم العامة ، وبارسال هؤلاء النواب إلى أثينا ، ثم شرع فى تشجيع الديمقراطية ومحاربة الارستقراطية فى جميع مدن اليونان ، فاعتبر المتحالفون ذلك تدخلا فى امورهم الخاصة، ورأوا فيه معاملة السيد للمسود خصوصا بعد أن حتم عليهم التقاضى امام المحاكم الاثينية ونقل خزانة الحلف . عندئذ أصبحت أثينا من القوة بحيث ضعفت المدن الأخرى ضعفا كبيرا ، وخضع بعضها لاثينا خضوعا لا يتفق مع تساوى الحليفات

أما البعض الآخر فقد دفعهم حبهم الذاتى الى الخروج على الاثينيين ، وقوى عندهم هذه الفكرة اعتقادهم بضعف الفرس وعدم حاجتهم الى التعاضد لاتقاء شر هؤلاء الأعداء ، فقامت أولا بالثورة جزيرة ساموس سنة ٤٤٠ ق.م واشتركت معها مدينة بيزنطه ، فلما نمى الخبر الى بركليز أسرع بالذهاب اليها للضرب على أيدى الثائرين ، فاستولى على سفن ساموس وضيق على عاصمتها الحصار حتى اضطرت الى التسليم . وهدم الحصون وأداء الغرامة الحربية ، وسار منها الى بيزنطة فكان نصيبها ما أصاب ساموس . ورأى بركليز بعد ذلك أنه لا يمكن اثينا تسود جميع البلاد الخاضعة لها الا بسداد الرأى وحسن التدبير ، فحمل أولا الناس على الاعتقاد بقوتها بأن جعل سفنها تقوم بمظاهرات عظيمة ومناورات ذات شأن ، ووطد دعائم القوة الظاهرية بتأسيس مستعمرات كثيرة صارت لاثينا مصارف للتجارة ومرافىء للسفن وثكنات للحاميات

الفنون والآداب فى عصر بركليز:

عنى بركليز بتجميل أثينا ولم يتردد فى الاتفاق عليها من أموال المتحالفين فبنيت في زمنه المعابد الفخمة ومن أشهرها (البارثينون) فوق تل عال مشرف على أثينا يعرف بالاكروبول ، وقد زينه فيدياس بأجمل المناظر وصور فيه الآلهة فأحسن تصويرها وأودع فيها كثيراً من آيات الجمال ومظاهر الجلال خصوصا فى نصيب زيوس وقد جعل خارج المعبد تمثالا للمعبودة أثينا ارتفاعه ٧٠ قدما . ويدلنا على عناية القوم بهذا الأثر العظيم ماحصل بين أهل أثينا وفيدياس عند اختيار المادة التى يصنع منها تمثال أثينا الاكبر فانه لما قال بتفضيل الرخام لرونقه الثابت كاد الناس يقتنعون ولكن لما ذكر من علل التفضيل قلة النفقة أسكتوه وصاحوا به ليكن من العاج والذهب الخالص فكان ما أشاروا به

وقد شيدت أيضا دور للحكومة فى فضاء خارج المدينة ينعقد فيها مجلس الخمسمائة والمجالس الاخرى ، وشيدت قصور أخرى فى جهات مختلفة حتى بدت المدينة للناظرين بهيجة تأخذ بالالباب ، وصارت أثينا فى هذه الفترة القصيرة تسترعى

أنظار العالم كما كانت بابل منذ قرن قبل هذا التاريخ فى عهد بنو خذنصر

واهتم بركليز أكبر اهتمام بالتمثيل ورأى فيه الوسيلة لتهذيب الشعب وتربية الذوق السليم ، فبنى بالقرب من الاكروبوليس مسرحا عظيما يسع ٣٠٫٠٠٠ شخص ، وقد حض الناس على أن يغشوا دور التمثيل فأعطى العامة تذاكر يدخلون بها هذه الدور بدون ثمن فكانوا يسيرون اليها أفواجا أيام الاعياد والمواسم ، ويجلسون على مدرجات خشبية ، اما الممثلون فكانوا كلهم من الرجال وكان الالقاء بالغناء ومن الروايات التى كانت تمثل روايات سوفوكليز الذى كتب الروايات التمثيلية بنوعيها التراجيديا (المأساة) وهى روايات تبعث فى النفس الرهبة وتحرك فيها عاطفة الشفقة وتورث القلب حزنا وأسى ، والكوميديا وهى روايات فى الاخلاق والعادات تتخللها فصول فكهة مفيدة . أما يوروبيدس فكان يخرج على القديم ويستهتر فى رواياته بالاستقراطية ، وقد حاز تأييد الشبان وأصر له الكهول العداء ، وقد حالوا بينه وبين الجائزة الأولى مرارا . هذا ولم يكن يتردد بعض الكتاب فى جعل رجال الحكومة أنفسهم موضوعا لروايات مختلفة وقد كان من عادة الكتاب بعد توزيع الجوائز وانتهاء فصل التمثيل ، أن يتفرغوا لكتابة قصصهم الجديدة على ورق البردى ، ثم يدفعونها للمثلين فيجدون فى حفظها وفى تمثيلها كما كان رجال الموسيقى يلحنون الاغانى المطلوبة

بعض عظماء الرجال المعاصرين لبركليز

عاصر بركليز غير هؤلاء الروائيين سقراط سيد الفلاسفة وزعيم الفلسفة البشرية — وبقراط أبو الطب الذى ارتقى بصناعة الطب من خرافة الى صنعة علمية شريفة . وبالرغم من أن التشريح كان محرما فى زمنه فانه مع ذلك عرف أمورا كثيرة متعلقة بتركيب المخ والأحشاء وغيرها

وكان يفصد ويحجم ويكوى ، وبرع جدا فى تشخيص الأمراض

أما ليسياس معاصره فكان من أعظم الخطباء المفوهين . كان قوى الحجة بليغا فى بيانه ظل سيد الخطباء فى اليونان والرومان زمنا طويلا

ومن هنا تدرك أن أثينا فى زمن بركليز كانت مبعث العرفان فى بلاد اليونان.
وأن عصره كان أبهى العصور وأرقاها حتى قال أحد المؤرخين فى وصفه
أى عصر يضارع عصرا اجتمع فيه بمدينة واحدة سوفوكليس وافوبيديس
أعظم الشعراء وليسياس أقدر الخطباء وهيرودوت وثيوثيديس أشهر المؤرخين
وبقراط أبو الطب وأريستو فانيس رب التمثيل وفيدياس أبرع المصورين
وانكساغوراس وسقراط أكبر الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين

قوة الامبراطورية الأثينية وضعفها :

صارت أثينا فى عهد بركليز أكبر دولة بحرية وارتقت فيها الفنون
والآداب وظهر فيها السياسيون ، ولكن تلك العظمة كانت تتخللها عوامل
ضعف كثيرة ، فان المدن التى كونت الامبراطورية كانت خاضعة لأثينا خضوع
العبد للسيد كما عرفت ، فنظرت الى أثينا نظرة الكراهية والمقت ، وعدتها قاضية
على الحرية الهلانية ، وأخذت تتحين الفرصة لتثور بها وتخلع ذلك النير الثقيل
عن أعناقها . فعظمتها كما ترى كانت مستندة الى القوة وحدها ولو أحسنت الى
نفسها لاتخذت من حلف دياوس سلاحا ينصرها فى كل ملمة ، ولكنها استبدت
فكرهها الناس . ولو أخذتهم أثينا بالحسنى لامكنها أن تحوز سيادة البحر الابيض
المتوسط ، وتقضى على تاريخ روما فى أول عهده بالجمهورية ، يضاف الى النظم
التى وضعها بركليز فيما يختص بدفع أجور للعامة كانت عاملة على فساد أخلاقهم
كما أن إقبالهم على دور التمثيل كان باعثا فى نفوسهم الشعور بالترف والميل الى
الكسل ، حتى أنهم نظروا الى الاشغال العامة نظرة الازدراء والاحتقار فضعفت
قواهم المعنوية وظهر هذا الضعف جليا فى الحروب البلوبونيزية

الحروب البلوبونيزية

أسبابها

(١) انقسام الولايات اليونانية شطرين مختلفين فى العادات والنظم والتقاليد.
وقد أدى هذا الانقسام الى سوء التفاهم (٢) ما قام به الفرس من.

الدسائس للتفريق بين مدن اليونان ، فقد عرفوا كيف يربحون بنثر الذهب ما عجزوا عن كسبه باشهار السلاح ، وقد ساعدهم على ذلك ضعف الوطنية الذى تفشى فى بلاد اليونان ، (٣) نظر اسبرطة بعين الحسد والقلق الى نهضة أثينا الأدبية والسياسية ، فكانت تتربص لها زلة تسقطها من سماء مجدها وغطرستها فكانت اسبرطة النواة التى تجمع حولها عوامل السخط والاستياء من تصرفات أثينا وقضائها القضاء المبرم على تجارة حلفاء اسبرطة وبخاصة تجارة قورنثة . كل هذا أوجد قضية خطيرة بين أثينا واسبرطة لا يمكن الفصل فيها الا بتحكيم السلاح . غير أن ذلك لم يكن ليشعل نيران الحروب إلا اذا تطاير شرر الخلاف من ثنايا ما يضمره كل فريق للآخر من السوء ، فلما همت قرنثة بتأديب مستعمرتها جزيرة كركيرا التجأت هذه إلى أثينا ، فأخذت بيدها والتجأت الأولى الى أسبرطة ، فشدت أزرها وابتدأت الحروب الكبرى التى سميت الحروب البلوبونيزية

وظهرت فيها أمة اليونان كأنها أمة تنتحر . واستمرت من سنة ٤٣١ حتى سنة ٤٠٤ ق.م وانتهت بانحلال الأمبراطورية الأثينية

الحرب وموت بركليز سنه ٤٢٩ ق.م

الدور الأول :

حشدت اسبرطة وحلفاؤها طيبة وقرنثة جيوشها وأغارت على أثينا فأمر بركليز جميع المقيمين خارجها أن يلتجئوا اليها ، فحملوا كل متاعهم ودخلوا المدينة ، وانبثوا فى أنحائها حتى ضاقت بهم المعابد والمساكن . فلما زحف الجيش الاسبرطى وجد نفسه وسط خراب وصحراء مقفرة وأمام أسوار شاهقة منيعة ، وفى أثناء ذلك كان القواد الأثينيون يخرجون بأساطيلهم العظيمة ويحرزون نصرا بحريا على أعدائهم ويستولون على سفنهم . وقد كان من سوء حظ الاثينيين ان انتشر الوباء بينهم بسبب ازدحامهم ، فحصد فى أرواحهم ولم يرحم بركليز رجل الساعة فى أثينا فى وقت ما كان أحوج الاثنين فيه اليه . تركت أثينا

بعد موته بدون حكومـة تصلح لادارة الأعمال وطمع رؤساء الأحزاب فى مركزه وظهر جماعات من المتاجرين بالوطنية يتملقون الشعب ، ويرونه الأداة لمجدهم . تعوزهم حكمة بركليز ورويته . وقد أطلق على هؤلاء « الديماجوجيين » وشغلوا الشعب فى حروب بعيدة ، ونخص بالذكر منهم كليون والسبياديس فانهم أثاروا فى رؤس الشعب حمية الحرب وقاوموا أنصار السلم مثل نقياس ما استطاعوا

ثورة لسبوس وكركيرا سنة ٤٢٨ — ٤٢٧ ق . م

حدث أن ثارت جزيرة لسبوس على أثينا ولم تستطع أسبرطة مـد يد المساعدة لها فحاصرتها أثينا حصاراً عنيفاً وقاتلتهم حتى أذعنوا ، وأعملت السيف فى رقابهم بعد ذلك . وفى كركيرا كان الهول أشد فان الأحزاب السياسية بعد أن اقتتلت نحو السنتين استنجد الدمقراطيون بأثينا فأخذت بيـدهم ، وقامت بنصرتهم وسلمتهم زمام الأحكام فأعملوا الذبح فى مخالفيهم

بقيت بعد ذلك الحروب بين اسـبرطة وأثينا سجالا إلى أن رجحت كفة أثينا ، ونزل الاثينيون بيلوس سنة ٤٢٦ ودعوا الهيلوت (المستعبدين لاسبرطة) إلى الحرية . وكان قائد الأسطول الاثينى ديموستين فارتاع أهل اسبرطة وطلبوا الصلح ، فتشدد كليون فى الشروط فلم يقبل الاسبرطيون ، واستمرت الحرب وأرسل كليون إلى بيلوس لمعاونة ديمستين وأحرز الاثنان انتصاراً سنة ٤٢٥ق . م وعادوا بأسرى كثيرين من جزيرة اسفـكتاريا ، فتقوى ساعد حزب الحرب على حزب السلام أو حزب المحافظين فى أثينا وعلى رأسه نقياس

حدثت بعد ذلك مناوشات انتهت بقتل كليون وقتل ملك أسبرطة وبموتهما تعادلت كفتا الحرب وفاز أنصار السلم . وقد أوفد الاثينيون نقياس إلى أسبرطة للمفاوضة فى أمر الصلح وفى سنة ٤٢١ق.م استطاع نقياس أن يعقد الصلح الذى سمى باسمه . وتهادن مع اسبرطة خمسين سنة ، وردت كل من اسبرطة وأثينا ما فتحته من البلدان ومن أسرته من الرجال، وبذلك عادتا الى النقطة التى ابتدأتا منها بعد حرب دامت عشر سنوات شلت فيها حركة التجارة وضاعت فيها الأموال

نقض الصلح وظهور السبياديس سنة ٤١٩ - ٤١٥ ق.م

ظهر فى أثينا بعد صلح نقياس زعيم ديما جوجى جديد هو السيباديس عرف بجرأة كانت تصل به الى حد الطيش ، وقد استطاع بفصاحته أن يقود الشعب ويحمله على تنفيذ مآربه ، وقد رأى أن الحرب وحده هو سبيله الى المجد والزعامة ، وقد لاحت له فرصة الحرب مع اسبرطة عند ما علم ميل ولاية ارجوس بالتحالف ضدها، فخطب ودها وعقد معها محالفة دفاعية هجومية . فاستاءت اسبرطة وحاربت أرجوس وأقامت فيها حكومة ارستقراطية تعاقدت مع اسبرطة وألغت تعاقدها مع أثينا فاعتبر السبياديس هذا العمل من جانب اسبرطة نقضا للصلح وهاجم جزيرة بيلوس ونكل بأهلها

حملة صقلية سنة ٤١٥ ق.م

رغب السيباديس الاثينيين فى الحملة على صقلية بحجة مساعدة بعض المدن ضد سيراقوسة أقوى مدن صقلية وزعيمة المستعمرات اليونانية فيها . وعارضه نقياس ورأى الخطر كل الخطر فى الحملة ، ولكن الاثينيين لم يأخذوا برأيه وأعدت أثينا لتلك الحملة من العدد والرجال ما لم تره من قبل مدينة من مدن اليونان ، وكان على رأسها السبياديس ونقياس ، وما كادت الحملة تسير حتى استدعى السبياديس لمحاكمته فانقلب خائنا وانحاز الى اسبرطة ، ودلها على مكان الضعف فى أثينا — أما نقياس فقد انفرد بالقيادة وتراخى فى الحملة على سيراقوسة ، وجاء المدد من اسبرطة وانتصر الجيش السيراقوسى والاسبرطى على جيوش أثينا ، وتغيرت مجرى الأحوال ، وأصبح الجيش محصورا بعد أن كان محاصرا فانخلع قلب نقياس وطير الخبر الى أثينا فأمدته بجيش عظيم تحت قيادة ديمستين بطل بيلوس، وحمل على سيراقوسه حملة فقد فيها ألفى رجل وأعقب ذلك انهزام شديد فى وقعة بحرية فقدوا فيها أسطولهم مصدر قوتهم وموضع آمالهم ، ولم يبق أمامهم للنجاة الا سبيل الهرب . فانهزمت الحملة شر هزيمة وانتصر أهل سيراقوسة سنة ٤١٣ ق.م انتصارا حاسما وقبضوا على القائدين وأعدموهما . وأخفقت الحملة اخفاقا تاما .

الدور الأخير من الحرب ٤١٢ - ٤٠٤ ق.م

تشجع الاسبرطيون واتخذوا خطة الهجوم وخطبوا ود الفرس وتحالفوا معهم، وحرضوا مدن آسيا الصغرى على الخروج ضد أثينا، ولكن الاثينيين بذلوا جهدهم فى وقف تلك المدن عند حدها . حدث فى ذلك الوقت أن طرد الاسبرطيون السبياديس لسوء مسلكه معهم، فقصد فارس وأقنعها بفائدة تحالفها مع أثينا ونقضها التحالف مع اسبرطة ، وكان بجزيرة ساموس جيش أثينى بذل له السبياديس كثيرا من مال الفرس ترغيبا له فى السير تحت امرته، فقاده وانتصر به على الاسبرطيين فى وقعتين بحريتين سنة ٤١١ ق . م ووطد سلطان أثينا فى جهات كثيرة ودخل أثينا دخول الظافر سنة ٤٠٧ ق . م ، فأعادت اليه الحكومة أملاكه وأمواله وصرح له أن يعمل على ايجاد الاتحاد الاغريقى ، ولما لم يستطع انجاز ما تكفل به اعتزل العمل ولجأ إلى معقل خارج بلاده حتى اغتاله أحد الفرس

فقدت أثينا بموته خير قائد ولكنهم واصلوا الحرب،واشتبكوا مع الاسبرطيين فى معركة أجوس بوتامى ، وفيها باغتهم القائد الاسبرطى ليساندر وحال دون وصول الغلال الى أثينا فقاتل الاثينيون حتى أرغمهم الجوع على التسليم وبذلك انتهى أزهى عصور أثينا سنة ٤٠٤ ق . م

عقد الصلح سنة ٤٠٤ ق. م

أرسلت أثينا إلى اسبرطة تطلب الصلح فعقدت الأخيرة مؤتمراً من حلفائها ، وأخيرا قرروا (١) هدم حصون أثينا وقلاعها وتسليم سفنها الحربية (٢) التنازل عن الاملاك الخارجية (٣) التصريح للأشراف المنفيين بالرجوع اليها ثانيا ، وتسلم ليساندر المدينة وأحرقها وسط نغمات الموسيقى

ولم يكتف بهذه الاهانة بل تدخل فى شئون الحكومة، وشد أزر الحزب الارستقراطى وأقام من أنصاره ثلاثين وجلا حكاما على المدينة ، طغوا وبغوا وجردو اهيا كل من أثاثها وصادروا الأغنياء في أموالهم، ثم أعيدت الحكومة الديمقراطية ثانياً بعد انهرام الثلاثين جباراً، ولكنها كانت ديمقراطية شوهاء

الكفاح الاخير بين الولايات الاغريقية :

زعامة اسبرطة

قبلت أثينا مرغمة الانضمام إلى الاتحاد الاسبرطى، وأصبحت اسبرطة زعيمة الولايات الاغريقية، فوزعت جنودها على حصون البلاد واحتلتها، وأخضعت الجمهوريات الصغيرة بكل عنف واستبداد، وأقامت حكومات متعددة جعلت السلطة فيها لعدد صغير من الارستقراطيين وأيدتهم بقوتها (الحكومات الاوليجاركية)، وقامت بين الارستقراطيين والديمقراطيين منازعات كان من نتيجتها أن أصبح الكثيرون من أهل البلاد الاغريقية وخاصة أثينا يعيشون خارجها فى منفاهم يعملون على اسقاط من كان سببا فى نفيهم

سقوط اسبرطة وزعامة طيبة

كره الاغريق حكومة اسبرطة وتحالفت أثينا وطيبة على اسقاط اسبرطة، وانضمت اليها كورنثة وأرغوس، واتخذوا من اشتغالها بمحاربة الفرس (٣٨٧ - ٢٩٥ ق . م) فرصة وثاروا عليها، وقتل فى هذه الثورة ليساندر إلا أن أسبرطة صالحت الفرس وعملا معاً على اخضاع أثينا ثانياً لخضعت — ولما لم تستطع اسبرطة أن تسير فى البلاد سيرة العدل وانصاف عد الناس زعامتها غير مشروعة، وكان أول الخارجين عليها الديمقراطيون من أهل طيبة — قام هؤلاء وقلبوا الهيئة الحاكمة وأجبروا الحامية على التسليم، وفى أثناء ذلك جددت أثينا أسطولها وهاجمت به اسبرطة وهزمتها، فأصبح موقف اسبرطة حرجا وطلبت الصلح، فعقد مؤتمر فى اسبرطة حضره مندوبو جميع الولايات الاغريقية، وعنى الجميع بصالح البلاد العام إلا أن الصلح لم يتم وظهر القائد الشهير الطيبي ايبامنونداس وهزم الاسبرطيين فى موقعة فاصلة سنة ٣٧١ق.م، فسقطت عظمة اسبرطة وآلت الزعامة إلى طيبة، إلا أن هذه الزعامة

كانت قائمة على وجود هـذا القائد فلما قتل فى معركة بحرية (٣٦٢) ق.م زالت قوة طيبة برا وبحرا

مغزى ذلك كله أن أثينا ثم أسبرطة ثم طيبة عجزت عن تحويل الاغريق إلى أمة متحدة ، وأن الاغريق على تفوقهم العقلى لم يعرفوا كيف يوحدون صفوفهم حتى عند ما دهمهم المقدونيون ، وان عظمتهم تتجلى فى فنونهم وآدابهم وفلسفتهم، ولا تتجلى فى سياستهم فقد أظهروا فيها قصر نظر وتغلبا للعواطف على مصلحة الجنس الاغريقى كله

١ ـ نتائج هذه الحروب وانحلال الديمقراطية :

كانت هـذه الحروب مبدأ اضمحلال الديمقراطية، إذ أنها كانت سببا فى توزيع القوى وتهديم بناء الدولة، وأول ما جرته حب الزعامة و المجد واسترسال الزعماء فى تمليق الشعب وأرضائه وجعل الكلمة العليا للديماجوجية ، وقد ساعدت على تفشى روح الحزبية التى أدت إلى الانقسام ، أما الفضائل فقد فقدت قيمتها، فارتكبت أفظع الجرائم ولم يحتكم مقترفوها الى قانون غير قانون البغى والتشفى، واصبح سوء الظن رائد الجميع ، وفسدت النفوس حتى كان لا يمكن التعويل على أصدق الوعود وأغلظ الأيمان، كما فسدت الوطنية أيضا وانحلت الأخلاق وأصبح من الضرورى العمل من جديد على إصلاح المعوج من الخلق

٢ — فوضى المال :

ساءت الأحوال المالية كثيرا منذ أن خصص بركليز أجورا ضخمة للمحلفين والموظفين وتوزيع الأموال ذات اليمين وذات الشمال على الشعب وقد زادت الحرب هذه الفوضى سوءا ، ففسدت طريقة جمع الضرائب فى اثنائه واستنزفت هـذه الحرب الخزانة، وكان من الضرورى للتخلص من هذه الحال

النظر فى أصلح الطرق لجمع المال ، فأدى هـذا البحث الى دراسة مالية الأمة دراسة منتظمة ، فأخذت الأعمال المالية صبغة فنية، واشتغل أهل أثينا بالصناعة والتجارة كى يستعيدوا ما كان لهم من مقام فى عالم الصناعة والتجارة ، وأدى بهم التفكير فى شؤونهم الخاصة الى تأليف شركات اقتصادية فأتت بأجل الخدمات للصناعة والتجارة، وقد أنشأوا مصرفا ماليا (بنكا) فكان الأول من نوعه فى العالم واثمرت فيه الأموال ، وأصبحت أثينا بفضل مجهودات أهلها المركز المالى للعالم القديم (شأن لندن واوشنجتون) فأثرى اليونان و بدأ الأغنياء يعيشون عيشة الترف داخل بيوتهم فزينوها بالنقوش وفرشوها بالبسط والحرير فكان هـذا تطوراً جديداً فى حالتهم الاجتماعية

(٣) الارتزاق من الجندية :

إن اهتمام الناس بشؤنهم الخاصة واهمالهم المصلحة العامة كان من أظهر نتائج الحروب . وقد دعاهم هـذا الخلق الجديد الى اتخاذ الجندية مهنة للارتزاق فخرج الكثيرون يعرضون قواهم الحربية ومهارتهم العسكرية على الأمم القريبة منهم كمصر واسيا الصغرى وفارس ، و بهذا تفرقت قوتهم ، وقد امتاز بعضهم بما أظهروه من المهارة النادرة ونخص بالذكر منهم

اجزونوفون عند قورش ملك فارس . كتب هـذا القائد رسالة فى الحرب فى أيامه الأخيرة واسمها اناباسيس أو الارتقاء، وتعتبر هذه الرسالة أهم ما كتب فى التاريخ القديم كبداءة للفنون الحربية، ومنها عرف الأغريق طرق تهديم الحصون وتفضيل الرماح على السهام، واستخدام السفن الحربية الكبيرة ذات خمسة السطوح

حضارة الاغريق

من وفاة بركليز حتى سقوط الولايات الاغريقية

فن البناء والنحت والنقش :

اقتصر فى زمن الحرب على بناء الحصون والسفن ، ولما وضعت الحرب أوزارها انتحى الاغريق ناحية جديدة فى الفن ، وأخذ النحاتون عن قدماء المصريين تزيين أعلى الأعمدة بنقش الأزهار وأوراق النخيل، واثار ذلك البناء لاتزال في أثينا وقورنتة حيث تعرف هذه الاعمدة باسمها ، وقد ظهر تطور جديد فى فن نحت التماثيل فأصبحت رمزا صادقا للحياة تمثل الضعف الانسانى والعواطف البشرية والحياة بما فيها من سرور أو حزن، وقد كانت تماثيل فدياس ومعاصريه لاتمثل إلا ناحية خاصة من الحياة وهى العظمة ، ومن الذين برعوا فى هذا الضرب الجديد من النحت براكستليز وسكوباس

أما النقاشون فقد اقتبسوا عن المصريين القدماء نقش الصور على ألواح خشبية، وتلوينها بألوان زاهية تتمثل فيها حسن الذوق، وأقبل الناس على شرائها ثم برع الرسامون أمثال ابولو دوراس فى طريقة التظليل، فزادوا بذلك من جمال الرسم وقربوه إلى الحقيقة ، وأبدعت أيديهم مناظر الحوادث القديمة وآثار تلك الرسوم كثيرة بمدينة بومبى

الديانة والحالة العقلية :

تقدمت الحالة العقلية فى بلاد اليونان تقدما كبيراً ، وكانت عقليتهم فى مبدأ أمرهم، تجرى مع الخيال ، وتبتدع الأساطير شعراً ونثرا لتفسير مظاهر الكون المختلفة . أن هذه العقلية هى التى جعلتهم يؤمنون فى القديم بعدد من لآلهة لا يمتازون عن بنى الانسان إلا فى درجة الكمال ـ استيقظت هذه

العقلية قبل الحروب البلوبونيزية وجدت في تعرف حقيقة هذا العالم وعلته الأولى، فنشأ نوع من التفكير يسمى الفلسفة الطبيعية، وكانت أهم ماعنيت به تلك الفلسفة مسائل الطبيعة والفلك والجغرافيا، ثم تنوعت هذه الفلسفة فى مظاهر مختلفة وآلت فى النهاية إلى انكار حقائق الأشياء على يد طائفة من السفسطائيين نزعوا من صدور اليونان ايمانهم بآلهة اولمبوس وحملوهم على الاستهانة بأصول دياناتهم القديمة ونبذ عاداتهم، ولكنها لم تود بهم إلى عقيدة ثابتة، وقد ترتب على انكار السفسطائيين لحقائق الأشياء نتائج سيئة بعضها دينى وبعضها اجتماعى وخلقى، فحصلت فوضى فى الاخلاق وتعددت الآراء الدينية وانحلت الرابطة الاجتماعية، وذهب كل فريق فى تفسير الفضيلة والرذيلة والصواب والخطأ والخير والشر مذهبا شخصيا، يناسب هواه و يتفق مع مآربه، وكان من الضرورى لصدّ هذا التيار الجارف أن يتعرض فريق من الناس للبحث فى العقل الانسانى ومدى قوته التى يدرك بها الاشياء، فحولت الفلسفة من الطبيعة إلى الانسان وقواه العقلية، وزعماء هذه الفلسفة سقراط وافلاطون. أما سقراط (٤٧٠ — ٢٩٩ ق . م) فقد شغل بالحوار عن كل شيء، وقد تناول السياسة العامة والشئون الاقتصادية، والمبادىء الخلقية ونظام الحكومة، وأساليب التربية، ولذله الحوار فيها كلها — على أن السر فى عظمة سقراط هو نبوغ تلاميذه أمثال افلاطون الذين دونوا تاريخ حياته فى سجل الخلود، ورووا أحاديثه، ودبجوا محاوراته بأسلوب من البيان قل أن يجاريهم فيه أحد — نشر أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) تعاليم أستاذه وقد شغله انحطاط الديمقراطية فى زمنه، فتناول طبيعة الدولة ونادا بمبدأ الشيوعية فى كتابه الشهير (الجمهورية) وعالج المسائل الاقتصادية والسياسية فى كتابيه الاخريين (القوانين والسياسة) وتعد هذه الكتب من أنفس المصادر القديمة فى علم نظام الحكومات

انتقال العلوم والآداب من الغرب إلى الشرق :

لما توفى الاسكندر سنة ٣٢٣ ق . م انقسمت امبرطوريته العظيمة فكانت مصر من نصيب البطالسة ، وكان ملوك البطالسة يعنون بترقية العلوم وأحياء الآداب ، فانشئوا دار كتب عظيمة بالاسكندرية ومدرسة جامعة كبرى وأسسوا المراصد والحدائق الخ . وقد ذاع صيت الاسكندرية بمعاهدها العلمية حتى صارت كعبة للعلوم، يؤمها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم المتمدين، وقد كان بطليموس الأول نفسه يذهب إلى البلاد الاغريقية ليجمع أعاظم الفلاسفة والعلماء من الاغريق ليذهبوا معه إلى الاسكندرية يدرسون بمدارسها ويشتغلون بالبحث والتأليف بمساعدة دار الكتب والتحف، ومن بين هؤلاء عدد كبير حفظ التاريخ ذكرهم، منهم أقليدس صاحب كتاب الاصول فى الهندسة وابراتسين وبطليموس الجغرافيان وهيبارخس الخ . على يد هؤلاء انتقلت المدنية من الغرب إلى الشرق، وظلت الاسكندرية أمينة على التقاليد والفلسفة الاغريقية إلى أن دخلت مصر فى حوزة الرومان سنة ٣١ ق . م بعد موقعة اكتيوم فانتقلت الحضارة إلى رومية التى زادت من الحضارة قليلا

ولما أن انشطرت الدولة الرومانية إلى شطرين شرقى ومقرها القسطنطينية وغربى ومقره رومة وجد طلاب الثقافة اليونانية حصنا أمينا في القسطنطينية خصوصا بعد ان انتهت الدولة الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦م على ايدى المتبربرين وبقاء القسطنطينية بعد ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة تنشر الثقافة اليونانية فى العالم . بقيت القسطنطينية هذه المدة وهى ميدان لابحاث فلاسفة الاغريق وتآليفهم حتى ظهر الفرس وهددوها ، واخذوا انطاكية ، واستمر الكفاح بين الدولتين حتى خربت الحرب آسيا الصغرى التى كانت ميدان نضال بين دولتين احداهما تمثل المسيحية والاخرى تمثل الديانة القديمة ، ولما ان ظهر العرب المسلمون بعد ذلك قضوا على دولة الفرس ووجهوا جهودهم الى دولة الرومان ، فانتزعوا

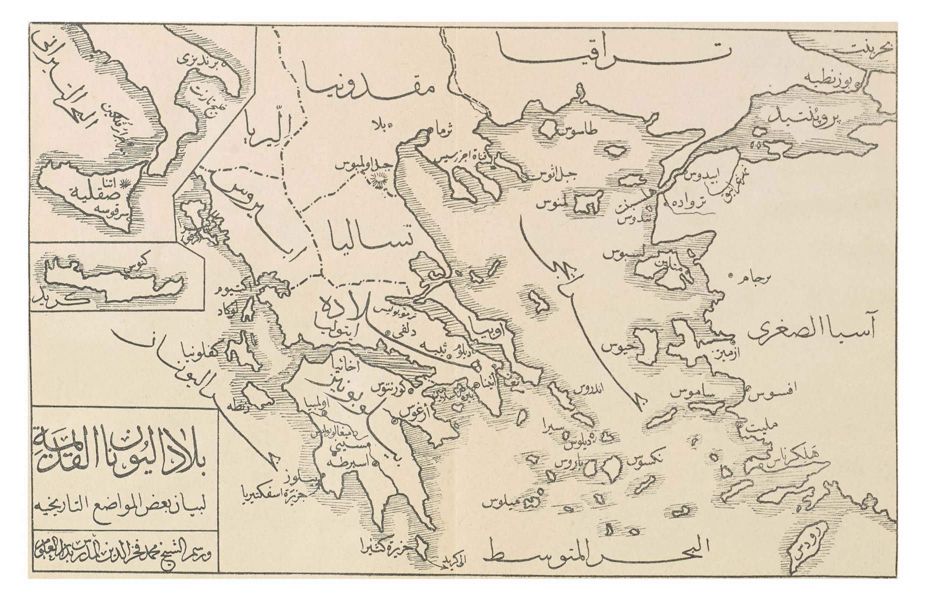
منها فلسطين وسورية ومصر ، وهددوا القسطنطينية مراراً . فانتقلت الحضارة الاغريقية بذلك الى أيدى العرب الا أن حضارة العرب كانت فى أول أمرها عربية دينية مستمدة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وبقيت هكذا قائمة فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ، وفى أواخر هذه الدولة وأوائل الدولة العباسية بعد أن استتب أمر الدين وصنفت كتب الدين و اللغة بدأ العرب يهتمون بالعلوم الدنيوية ، وقد ساعدهم على هذا الاهتمام (١) اختلاطهم بالأعاجم فى الأمصار التى فتحوها ، و بالاخص بطائفة النسطوريين وهم فريق من النصارى فروا من القسطنطينية أيام الاضطهاد ، وسكنوا الشام والعراق وأسسوا لهم مدرسة للطب فى ادسا بالعراق ، تعلم فيها العرب على أيديهم صناعة الطب والعقاقير (٢) اختلاطهم بطوائف يونانية أخرى فرت الى حران وبعض بقاع آسيا نفاهم الامبراطور جستنيان من أثينا ، فأخذوا عنهم الفلسفة والهندسة والرياضة (٣) اهتمام الخلفاء وغرامهم بالعلوم العصرية

و قد ترتب على هذا الاهتمام أن بدأ دور الترجمة و النقل فى عصر أبى جعفر المنصور الذى كان عظيم الشغف بالطب و النجوم و الهندسة ، و لما جاء المأمون اقتدى بالمنصور و أرسل البعوث الى بلاد الاغريق فتبحروا فى اللغة اليونانية واستمدوا من كتب أثينا و الاسكندرية أكثر من ٢٠٠ كتاب فى الحساب والهندسة والحكمة والتنجيم الخ

و قد تسارع الناس فى زمن المأمون الى الأخذ بمذهب المعتزلة الذى أساسه تطبيق النصوص على الأحكام العقلية ، فترجمت كتب المنطق و الفلسفة لمعاضدة هؤلاء المعتزلة على اقامة الحجة و ترتيب الادلة ، و قد أمر المأمون بنقلها اذ أنه كان يميل بطبيعته لهذا المذهب ، وبهذه المناسبة يقول ابن خلدون « ان العرب أخذوا المنطق وأصوله عن اليونان ولم يزيدوا فيه على الأصول التى وضعها له أرسطو »

(٢) دور التحقيق والتأليف

كان اشتغال العرب بهذه العلوم الدخيلة لا يتعدى حد النظر و الشرح و التلخيص ، ثم أخذوا بعد ذلك يمحصون نظرياتهم ويحققون مسائلها فدخلوا



بلاد اليونان القديمة
لبيان بعض المواضع التاريخيه
ورسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
تراقيا
مقدونيا
اليريا
ابيروس
تساليا
هلادة
آسيا الصغرى
البحر المتوسط
بحر ايجه
بحر اليونان
صقلية
اتنا
سرقوسه
برندزى
كريد
كنوس
بلا
جبل اولمبوس
ثرما
قناة اجزرسيس
جبل اثوس
طاسوس
لمنوس
ايدوس
تراواده
لسبوس
متلين
برجام
خيوس
ازمير
ساموس
افسوس
مليت
نكسوس
باروس
ديلوس
سيرا
ميلوس
اندروس
رودس
بوزنطيه
بروپنتيد
اوبيا
ثيبه
دلفى
اتوليا
اخائيا
كورنثوس
ارغوس
اسبرطه
مسيني
اوليمبيا
كفلونيا
لوكاد
جزيرة كتيرا
جزيرة اسفكتيريا
بيلوز

بذلك فى طور التأليف والاختراع ، ونبغ منهم عدد عظيم من كبار الفلاسفة والمؤرخين والشراح والأطباء

من هذا تعلم أن أثر اليونان فى الثقافة الانسانية عظيم عميق، لانهم أمدوا العلم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكريهم كما أمدوه بما وقفوا عليه من زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان، فاذا ما قلنا ان العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ومنتجات العقول اليونانية فكأننا نقول ضمنا انهم وقفوا على آثار العقليات الانسانية العامة وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة ، فاستفادوا بتلك العلوم والمعارف فائدة كبرى ، وعنهم أخذ الغربيون فى أبان نهضتهم العلمية فى القرون الوسطى فكأنهم كانوا حلقة الاتصال بين الحضارة القديمة وثقافتها وبين الحضارة فى العصر الحديث

فهرس الكتاب

الباب الثامن

الباب التاسع

الباب العاشر

الباب الحادى عشر

الباب الثانى عشر

ملحق   صحيفة

